جائزة McKitterick 1992

ألبرتو مانغويل

أخبار من بلاد أجنبية

ترجمة
جولان حاجي

رواية

دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- تاريخ القراءة
- فنّ القراءة
- يوميات القراءة
- الفضول
- مدينة الكلمات
- المكتبة في الليل
- مع بورخيس
- ستيفنسن تحت أشجار النخيل (رواية)
- عاشقٌ مولعٌ بالتفاصيل (رواية)
- عودة (رواية)
- كل الناس كاذبون (رواية)
- ذاكرة القراءة

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

ألبرتو مانغويل

أخبار من بلاد أجنبية

ترجمة

جولان حاجي

دار الساقي

Alberto Manguel, *News From a Foreign Country Came,*
Clarkson Potter Publishers, 1991
© Alberto Manguel, 1991
c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria
www.schavelzongraham.com

الطبعة العربية
© دار الساقي 2018
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2018

ISBN 978-614-425-854-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033—6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

Animula vagula blandula[1]

*

إلى روبرت ريد
روحاً هائمة رقيقة

---

١ هذه العبارة اللاتينية تستعيد السطر الأول من المقطع الذي كتبه الإمبراطور الروماني أدريان: "أيتها الروح الصغيرة، أيتها الجوّالة الصغيرة الساحرة،/ يا ضيفَ جسدي ورفيقه،/ ها أنت تغادرين الآن إلى أمكنة/ باهتة مقفرة قاسية،/ وعند وصولك ستكفّين عن المزَاح". [الهوامش كافة منْ وضعَ المترجم، وقد حوفظ في متن الرواية على الإيقاع الخاص الذي اعتمده المؤلف في استخدام علامات الترقيم، كما حوفظ على المفردات والعبارات التي وردت بلغات أخرى في سياق الرواية، ووضعنا ترجمتها العربية بين قوسين معقوفين].

أنباء آتية من بلاد أجنبية،
لكأنَّ كنزي وثروتي خبيئان هناك:
يا للهيبِ الذي أضرَمتْه في قلبي،
أليفاً كان في مسامعي نداءُ روحي[1].

توماس تراهيرن

[1] وردت هذه القصيدة في كتاب **قرونٌ من التأمُّلات** لتوماس تراهيرن (١٦٣٧-١٦٧٤)، وهو أحد الشعراء الميتافيزيقيين الإنكليز.

إِثرَ حديث

دمٌ أحمر من الغلاصم الحُمر للأسماك البلهاء
ينشف في المرسى المسفوع بالشمس. وهذه هي الحقيقة:
بمستطاع المرء أن يتخيّلَ الَحصولَ على ما يشاء.
معظم الناس لا يعذّبون الأطفال. لكنّ بعضهم يفعلون.

الجميعُ يقِرُّون- بمستطاع المرء أن يتخيّل الدرايةَ
حتى بأساليبِ الإنسان التي لا تُطاق، إذا واتَتْهُ الجرأة.
قلتَ إن النورسَ حطّ ليفقأ الأعينَ الحيّة
للسلمون على الشاطئ؛ يا عزيزي، ألستَ تأبهُ

بالردِّ على أحد، لطفاً لا تكبُّراً.
ألّا نكونَ إنسانيين، هذا يناسبنا أحياناً كقفّازِ الله[1].

---

١ تصعب ترجمة قصائد الشاعر الكندي ريتشارد آوترام (١٩٣٠-٢٠٠٥)، لأن العديد منها تقبل قراءات متعددة، فتخسر عند الترجمة الكثير من اقتضابها وكثافتها واحتمالاتها ومعانيها المضمرة. كان آوترام قد كتب عن محاولته الاستجابة بكتابة الشعر أمام النقمة المستعرة ضد وسائل الإعلام جراء معالجتها،

الذي قد يتخيّلنا مخلوقات تهزأ
مِن كونها الله، ومِن فظاعةٍ أنها لا تحبُّ أحداً.

ريتشارد آوترام

أو سوء معالجتها، العذابَ والظلم الإنسانيين. توقف مراراً عند لا إنسانية الإنسان، واعتقد أن المخيلة نفسها التي تنجب الأمل والرعب موجودةٌ داخل كلِ شخص، ولا مفرَّ لأحدٍ من مواجهة فظائع الإنسان، وإن تعذّرت الإدانةُ المطلَقة. هذه المواجهة ضرورية لأن البشر يضعون المعايير الأخلاقية وفق ما يناسبهم عادة، وهم يتجاهلون ما لا يريدون، وخياراتهم تكشف نقائصهم وتناقضاتهم. حول هذه القصيدة، المأخوذة من ديوانه **أسطورة اليمام** (٢٠٠١)، قد يقال، في تأويل مسيحي، إن الإنسان قفازٌ تحرّكه يد الله ومشيئته، وإن Glove هيGod is love [الله محبة]. بالطبع، إن مفردة مثل "المرء" أو "عزيزي" تحتمل الجنسين في اللغة الإنكليزية، وإذا اعتمِدنا خياراً آخر في قراءة السطر ما قبل الأخير، فسوف نجد المرء يتخيّل نفسَه الله فيهزأ بكليهما، وبهذا التأويل، سينطوي السطر الأخير على صعوبة أو استحالة أن يحبّ المرء أحداً حتى نفسه، لأن الجميع مرعبون.

هنا

كان بمقدورها أن ترى الشاطئَ من نافذتها، هناك تحت، ولكن بدا الوصولُ إليه مستحيلاً، كأن البحر والرمل والصخور جزء من صورة في بطاقة بريدية. استبعدتْ فكرةَ سقوطها مثل طائر، أو مثل لبّ تفّاحة؛ وبدلاً من ذلك، كان عليها الانسحاب إلى داخل البيت، داخل العتمة الباردة للصالون. أولاً، كان عليها المشي أمام غرفة والديها؛ ثم الخطو الخفيف لتتحاشى صرير الألواح الخشبية للدّرَج؛ وتالياً الحذرُ من غرفة الجلوس حيث يقرأ مسيو كليف؛ وأخيراً الركض قبالة المطبخ والخادمة ريبيكا.

ولكن قد يحالفها الحظ. لعلّ ريبيكا تتحدّث إلى أحدهم، بعد إغلاق باب المطبخ. لعلّ والديها خارج البيت. لعلّ مسيو كليف نائم.

بدت غرفة نوم والديها خالية. نظرت خطفاً إلى كرسي أمّها الهزّاز الكبير منصوباً بذراعيه المقوَّستين، ثم إلى الزاوية حيث خزانة أبيها المصنوعة من خشب البلوط. أحسّت للحظةٍ بأنها في مأمن. هبطتِ الدرج على رؤوس أصابعها ممسكة بالدرابزين البارد.

– بونجور. تعالي وأعطيني قبلة الصباح.

كان مسيو كليف واقفاً عند النافذة، ينظرُ إلى الحديقة وظهره مولى لها. دسَّ يديه البيضاوين المنمَّشتين في جيوبه وانحنى عليها ليقبّلها. تنشّقتِ الرائحةَ القوية المُغثية لشيء لم تميّزه. أبعدتْ فمها عن قبلته فمسحَتْ شفتاه خدَّها.

- الشجرة تموت.

نظرتْ من النافذة.

- الشجرة تموت، هل ترين؟

كانت هناك كتلة صغيرة سوداء من الغصون طافحةٌ بالأوراق، منتصبة وسط خضرة الحديقة. استطاعت أن ترى طرف الشاطئ وراء الشجرة، تقطعه شباك السياج، وخلفه قاربٌ أبيض صغير في البحر.

- إنها تسمَّى شجرة كرز برّي. ليس هناك أي كرز على غصونها الآن.

وضع مسيو كليف يده اليسرى على كتفها العارية. بسبّابته تلمّس شحمةَ أذنها. كانت الرائحةُ تنبعثُ من أنفاسه.

- أمعني النظر. هل ترين تلك العناقيد من البذور السُّود الضئيلة عالقة في شبكة العنكبوت الرقيقة هناك، عند الأطراف المعقوفة للأغصان؟

فكّرتْ، "كأن عنكبوتاً قد نسجت بيتها باستعجال كبير، لتتموّن بمئة ذبابة سوداء من أجل الغداء".

- نحن ندعوها *limaces d'été*، بزّاقات الصيف. ويدعوها الإنكليز يسروع الخيمة[1]. مثل الديدان. مخلوقات طرية جائعة. اعتادوا رسمها منذ وقت طويل زاحفةً في خروجها من أجسادنا، ليذكّرونا بأنها الورثة الحقيقيون للأرض.

تملّصتْ منه، لكنه قبض على يدها وأحكم الإمساك بها.

- *Viens voir* [تعالي انظري].

---

١ Tent caterpillars: يرقات نوع من العثّ المستوطن في أميركا الشمالية، تنسج على فروع الأشجار شرانق واسعة بيضاء تشبه الخيمة، ثم تتغذى بأوراق الشجرة لتفتك بها في النهاية.

خرجا إلى الحديقة.

مسيو كليف استلّ علبة ثقاب من جيب معطفه.

– راقبي بانتباه. *Regarde* [انظُري].

أشعل عود ثقاب، وفي حرارته تماوج القارب الصغير في البعيد. مزّق اللهيب شباكَ العنكبوت. اتّسعت الفجوة كفم مشدوه، وعبر الشفتين المتفحّمتين تساقطتْ أربعُ أو خمس يرقاتٍ سُودٌ وصغيرة جداً. لثوانٍ تشبّثت بالحافات المشتعلة، ثم تهاوت بنعومة على الأرض. أشعل مسيو كليف عودَ ثقاب ثانياً. ثقبٌ آخر، أكبرُ من الأول، امتدّ عبر قلب شباك العنكبوت. مِزَقٌ رمادية تدلّت من الغصون رخوةً، ثم انبثقت، دون صوت، حفنات يرقاتٍ من الجرح البليغ المفتوح، مخلوقاتٍ أعماها بغتة ضوءٌ سيلتهمها، متشبثة بكامل أجسامها بخيطانٍ مشرشرة، محاولةً أن تتحصّن بالظلام. اشتعل عود ثقاب ثالث في لهيبٍ طويل، أزرق أمام الغصون، وطاول اللهبُ نفسه بضعَ حشرات. راحت حشرات أخرى تتسلق الشجرة بجهد كبير، ولكنّ لهباً رابعاً أدركها قبل أن تبتعد كثيراً. تلوّتْ اثنتان منها عند قدميها.

كان مسيو كليف قد أفلت يدها. كان جاثياً عند الشجرة، مستغرقاً في نخز الجثامين بِعُود. سارت مبتعدة باتجاه الممشى. لم ينادِها لتعود.

***

كانت هناك بوابة في نهاية الممشى، ومن بعدها، يميناً، Chemin de la Plage [طريق الشاطئ]. كانت ريبيكا واقفة خارج البوابة مع جوزي

دانكلماير. كانت السيدة دانكلماير قد قالت لأبيها في الكنيسة: "ريبيكا شكل فتاة من فتيات المحميّة الهنديّة[1]، شعرها طويل جداً، وأسنانها صفراء كلها". كان للسيدة دانكلماير أسنان صناعية ناصعة البياض كانت تطقطق أحياناً عندما تسرع في الكلام.

قالت ريبيكا بلغة فرنسية ركيكة: "إنه يريد الذهاب معك إلى الشاطئ. وأخبرتُكِ بارتداء لباس السباحة عندما تذهبين للسباحة. يجب أن تعرف فتاة بعمر عشر سنين ارتداء لباس السباحة عندما تذهب للسباحة"[2].

كان جوزي يقطع الأوراق من غصون القيقب الخفيضة. مرّر يده على اللحاء، قاطفاً الأوراق في تلك الأثناء، ثم ترك الغصن يرتدّ عارياً في الهواء.

– توقّفْ عن ذلك. أنت تؤذي الشجرة.

أحكم جوزي قبضته على غصن آخر. جرّته ريبيكا بعنف، لكن جوزي مزّق غصناً آخر ثم انطلق في الجري عبر الممشى. تنهّدت تنهيدةَ غيظ، وهي تضرب بيد حمراء قبيحة فستانها المزركش بالزهور. رقّقتْ صوتها:

– ستهتمّين به بعض الوقت، أليس بلى؟

لا جواب.

---

١ بُنيت المحميات الهندية، واقتصر سكناها على سكان كندا الأصليين، المفقَّرين، استناداً إلى قانون الهنود الحمر الذي سُنَّ عام ١٨٦٧، أي عند تأسيس الاتحاد الكندي الفيدرالي.

٢ سيلاحظ القارئ، في غير موضع من حوارات الرواية، أخطاء نحوية مقصودة وكلاماً ركيكاً وضعه الكاتب على لسان الشخصيات الأجنبية.

– سأجلب لك قطعة كاتو، لكليكما، لاحقاً. تستطيعين أن تأكليها تحت الصخرة[1]؛ سيكون ذلك جميلاً، لا؟

شرعت تلاحق جوزي عبر الممشى، لا رغبةً في إطاعة ريبيكا بل لحاجتها إلى الهرب من صاحبة الصوت المتذمّر.

صاحت ريبيكا وراءها:

– سأكون هناك بعد قليل. انتبهي إلى نفسك.

ثم اختفت.

والآن ترامى الشاطئ بأكمله أمامها، ملتفّاً حول الصخرة، تعلن عنه لافتة تقول PLAGE [شاطئ] بحروف حمراء فاقعة. كانت ضربة الفرشاة على حرف G قد ذرذرت قطرات دهان. كشطتْ قطرةً بظفرها. خيّل إليها أنها قد جرحت نفسها.

كان بمستطاعها أن ترى من مكان وقوفها جوزي راكضاً فوق تجمعات الماء الصخرية التي توشّحها أعشاب البحر، عبر شريطٍ من الحصباء، مستمراً بالركض إلى حيث يضيّقُ المدُّ الدربَ المفضي إلى الصخرة مرتين يومياً. بدا حجمه ضئيلاً ضآلةً لا تصدَّق أمام كتلة الحجر الرمادية الضخمة.

لا أريد اللعب معه، فكّرتْ. تساءلت متى سيعود ماتيو من المعسكر، وكان مِن عُمرها. كان بمقدورها أن تتكلم مع ماتيو. أحياناً.

لم يكن هناك إلا بضعة سيّاح يجمعون القواقع ويتنزّهون في الماء

---

١ صخرة بيرسه المثقوبة في خليج سان لوران، عند طرف شبه جزيرة غاسبه في كيبيك، كندا. تبدو الصخرة مثل سفينة مبحرة في عرض البحر، وهي أحد معالم الجزء الفرنسي من كندا.

الأخضر الضحل. كان رجل ضخم يعتمر طاقية سباحة بيضاء ممسكاً بمنظار، رافعاً إياه إلى حيث تراءت الطيور التي تحلّق في دوائر، كأن بالوعة هائلة توشك أن تبتلعها. أخفض الرجل منظاره نحو القوس الذي يخترق الصخرة وصيّرها شهيرة. اعتاد والدها القول إن القوس "جسر لا يفضي إلى أي مكان". لوّح جوزي بيديه وارتمى في الماء. وعلى ما يبدو، كان يصيح بشيء ما في اتجّاهها، ولكنه كان من البعد بحيث لم تستطع أن تفهم ما كان يقوله، وإضافة إلى ذلك، كادت أصواتُ الطيور، الممتزجةُ بهدير الموج وهسهسته، تغطّي على كل صوت آخر.

جلستْ على حجر مسطّح وخلعت حذاءها. عادت إليها صورة اليرقات الميتة. تساءلت أي مخلوقات عاشت ذات مرة داخل القواقع التي انطحنت الآن وصارت رملاً، مخلوقات هياكلها العظمية المكسّرة إلى قطع لا تُحصى تنزلق بهدوء عبر أصابع قدميها. ذات مرة، أثناء الجلوس على هذا الحجر إياه، عدّد لها والدها المستحيلاتِ الثلاثة الكلاسيكية. الأول هو لمحُ وجهِ الريح، والثاني هو جدْلُ حبلٍ من الرمل. لم تستطع أن تتذكر المستحيل الثالث. اغترفت حفنة وتركتها تتذرذر من بين أصابعها. شرائط من العظام الميتة.

لم تذهب أمها إلى الشاطئ أبداً. تصوّرتها على الدرب المنحدر الذي من الحصى والجذور المتشابكة، وهي بوزنها الهائل تحاول النزول صوب البحر. لم تكن بدانةُ أمها تفاجئها كشيء مضحك بتاتاً، قدر ما فاجأت الآخرين: أطفال الجيران، وجوزي، والسيدة من غراند ريفيير التي كانت تأتي لتكوي الملابس وتساعد ريبيكا بلغتها

الفرنسية، في المطبخ، وكانت قد رأتها تضحك وراء النافذة بينما أمها تشقُّ طريقها، بصعوبة وحذر، عبر الحديقة. كان هناك مقعد حديدي في الزاوية البعيدة، مطليّ بالأخضر، وكانت أمها تجلس هناك أحياناً، إذا كان الجو لطيفاً ومشرقاً، فتقرأ رواية فرنسية مهترئة الورق، أو تحيك في صمت. رأت ريبيكا مرة واحدة أو اثنتين جالسةً إلى جوارها على المقعد وهي تتحدّث بهمسات عجولة. تذكّرت: "كأنها تحاول ألا توقظ أحداً أو شيئاً ما".

كان والدها يجلس على ذلك المقعد أحياناً، مدخناً سجائره الجيتان، ولكنه كان يميل إلى طقس أقسى. في الواقع، لم يكن يبالي إطلاقاً بالبرد أو الحرّ، على ما يبدو، فكان بمقدوره الجلوس هناك تحت شمس منتصف النهار في أغسطس، أو في المساءات القارسة أواخر مايو، عجوزاً ضخماً تناسبهُ كلُّ الفصول، وفي يديه دائماً كتاب غريب وقلم رصاص. كان يكتب على هوامش الكتب التي يقرؤها، وقد رأتْ في المكتبة صفحات بأكملها تملؤها حروفٌ أنيقة التدوين، كلماتٌ سُطّر تحتها، جملٌ بخطٍّ بديع، دقيق في تدوير الحروف، حاولتْ ذات مرة أن تنسخه وفشلت. فكرتْ: "لا أعرف كيف يبدو خطُّ أمي".

غلغلت أصابعَ قدميها في الرمل الساخن، عشرَ حيواناتٍ وردية تحفرُ جحورها. هل ستكبر لتصير مثل والدتها؟ قالت لها ريبيكا: كلا، أبداً، فعظامها مختلفة تماماً، وكذلك شكل وجهها؛ كانت شديدة النحول، وخداها غائرين، وعيناها نجلاوين، وشعرها خفيفاً جداً، أما أمّها، فكانت امرأة ضخمة، امرأة طويلة، حتى قبل أن تشبَّ

لتصبح بهذا الحجم الكبير.

في بيت آخر بعيد، رأت أمّها تمشي مثل انعكاس في مرآة تشوّه الأشكال، ممطوطة من رأسها إلى قدميها. كانت حركاتها سريعة، وذكّرها صوتها بالأجراس. انبعثت من أرضية البيت الذي تتذكّره رائحةُ شمع وذراعا أمّها، القويتان اللتان لا تتراخيان، تنقضّان لترفعاها، بينما وجه أمها، المقبِل نحوها ليقبّلها، تفرّق بغتة إلى أجزاء مثل ماءٍ تحت المطر.

ورغم ما نفَته ريبيكا، فقد تخيلت نفسها مرة أو اثنتين مثل أمها الآن، كبيرة وبضة ومليئة بالغمازات، بعينين صغيرتين تغوران عميقاً داخل وجهٍ أبيض، وفم صغير حزين لا يكاد ينفتح، وشَعرٍ لا يزال محتفظاً بسواده معقودٍ خلف رأسها على شكل وردة. رأت نفسها على ذلك النحو، وقد حاولت التثاقل في مشيتها والجلوس على كرسي أمها الهزّاز بعزيمةٍ لا تلين متأرجحةً إلى الأمام والخلف، فإلى الأمام والخلف. وفي عصر أحد الأيام، أثناء تأرجحها الصامت على الكرسيّ، نافخةً وجنتيها وشعرها مربوط من الخلف، لاحظت أمها تراقبها من الباب. أرادت أن توضّح، "ليس هذا مضحكاً، لا أحاول أن أكون مضحكة"، ولكن بعد فوات الأوان. كانت أمها قد ابتعدت مرة أخرى وخرجت من إطار الباب.

كان جوزي يلوح بيديه، منادياً إياها على الأرجح لتنضم إليه. لم تأبه بالردّ. كان هناك جمعٌ من النساء اللواتي يمشين متثاقلات على الرمل، وتنانيرهنّ تتماوج في الريح. موجة أخرى. هديرٌ. انتظار الموجة التالية. هسهسةٌ. هديرٌ. هسهسة. لم تستطع أن ترى الرجل

ذا طاقية السباحة البيضاء. كان شخص آخر، صبي، يمسك بالمنظار مصوّباً إياه باتجاه الطيور. والآن اختفى جوزي أيضاً. علَت الطاقية البيضاء فوق الزبد ثم ابتلعها الموج مرة أخرى. ربما سيُعيرها الصبيُّ المنظار. كانت تريد أن ترى قمة الصخرة حيث عشّشت الطيور بالمئات. انتظرت ظهور جوزي. بوسعه أن يسأل الصبي ليعيرهما المنظار، لم يكن خجولاً.

ثمة ظلام تحت الأمواج. ظلامٌ عميق، في منتهى الهدوء، كلماتٌ من دون صوت. منذ وقت بعيد، في ذلك البيت النائي، رأت رسماً في مجلة أطفال، سمكاً طائراً يقفز من البحر إلى المناقير المفتوحة للنوارس العملاقة، وفي البعيد مركبٌ صغير، ثم، في الأسفل، مالئةً ثلاثة أرباع الصفحة، كانت الأعماق السوداء – الخضراء حيث تتربّص أسماك قرش لمّاعة بالسمك الذي سيعاود الغوص. كانت تراها وقد أعماها ضوءُ المساء المبهِر، مرتدّةً كالسهام إلى الماء، فتمسك بها الأنياب وتشدّها إلى أعشاب البحر اللزجة، والأنياب في الرسم ملتمعة بحافات صفراء وزهرية فاقعة، وضّح لها والدها أن ألوان الطباعة قد تداخلت مع ألوان الـ*gravure* [المحفورة]. عالمٌ عميق، مظلم، هادئ. أخبرها والدها بأن عنوان الصورة هو "القَدَر المروّع للسمك الطائر".

رأت جوزي يرفع ذراعه عند جريه خارجاً من الماء، ثم استدار فجأة وعاود الجري إلى البحر مرة أخرى. "أحمق"، قالت بغضب. كان عليها أن تنتظر ذلك المنظار. ظهر الرجل ذو الطاقية البيضاء وكان يجفّف نفسه بمنشفة حمراء كبيرة.

- آنا!

ما أحبّت أبداً رنينَ اسمها.

- آنا!

كانت ريبيكا تهبط الدرب مع رجل لم ترَه آنا من قبل. صديق آخر من أصدقاء ريبيكا. كان ثديا ريبيكا يعلوان ويهبطان عندما تضرب قدماها الأحجار على الدرب.

- آنا!

- نعم.

- أين جوزي؟

- في الماء.

- أليس بارداً جداً؟

رفعتْ آنا كتفيها.

- هذا توليو.

ابتسم الرجل. كان أحد أسنانه الأمامية مفقوداً. كانت بشرته أدكن من بشرة ريبيكا. قال شيئاً باللغة الإسبانية لم تفهمه آنا. منذ ثلاث سنين، عندما أتوا إلى كيبيك وبدأت آنا الذهاب إلى المدرسة، طرحتْ سؤالاً بالإسبانية. ظلت الكلمات معلقة في الهواء البارد؛ ضحكَ الصفّ. أخبرها المعلّم بأن عليها التكلم بالفرنسية فقط في الصفّ. وقطعت آنا وعداً على نفسها بأنها مذّاك فصاعداً، طوال ما تبقّى من أيام حياتها، لن تتكلّم الإسبانية أبداً.

إلا الأرقام.

كانت الأرقام سحرية.

حاول الرجل المدعوّ توليو أن يصافح آنا. كانت أظفاره محفوفة بالسواد. مدّت آنا يدها، لا لتصافحه وإنما لتأخذ الكاتو الذي ناولتها إياه ريبيكا. كاتو إسفنجي. مع مربّى الحليب.

- اذهبي نادي جوزي. لدي كاتو من أجله أيضاً.

نهضت آنا من دون أن تفك تصالب ساقيها، ثم بعد وثبة صغيرة انطلقت تجري إلى حافة المياه.

- جوزي! جوزيبي!

لا شيء إلا الزبد على الأمواج. أحصنة بِيض، فرسان خُضر[1]. لا رؤوس، لا أيادي.

- جوزيبي!

مشتْ ريبيكا وصديقها باتجاهها.

- هل انصرف جوزي؟ هل رأيتِه ينصرف؟

كان جمع النساء يراقبنهم، رافعاتٍ أيديهنّ لتقي أعينهنّ من الريح. هسهسة. هدير.

ركضت ريبيكا باتجاه الصخرة. تبعها توليو.

- جوزيبي! جوزيبي!

---

١ في الملحمة الإنكليزية القروسطية مجهولة المؤلف، **السير غاوين والفارس الأخضر**، يظهر فارسٌ عملاق لباسه أخضر وبشرته خضراء، ليلة رأس السنة في بلاط الملك آرثر، فيدخل قاعة الاحتفال، ممتطياً صهوة جواده، وينادي بالتحدي التالي: لن يقاوم مَن يضرب عنقه بالفأس، ولكن إذا نجا، فعلى مَن سدّد له الضربة أن يرتقب الردّ بعد سنة ويوم واحد. ينبري السير غاوين الشابّ لهذا التحدي، ويضرب عنق الفارس الغامض الذي يتملص من الموت، ويتوارى حاملاً معه رأسه المقطوع، متوعّداً باللقاء، لتبدأ رحلة مطارده غاوين بغرائبها المسرودة شعراً في هذه الملحمة.

إحدى النساء نادت آنا، بالفرنسية، لتسأل هل هناك أي مشكلة.

هزّت آنا رأسها.

خلع توليو حذاءه وارتمى في البحر. موجة ضخمة غمرتْهُ بالكامل، ولكنه أفلح في رفع رأسه بعدها وواصل السباحة. فكرتْ آنا أنه يشبه وحشاً في فيلم رعب، شعره ملتصق بجبينه وقميصه ملتصق بجسده.

- جوزيبي!

كان هناك بضعة أناس آخرين واقفين على الرمل المبلّل يستطلعون البحر. كان هناك الرجل ذو المنشفة الحمراء، وجمع النساء وبضعة أطفال.

حلّقت فوقهم سبعة طيور أو ثمانية ثم حطّت على مبعدة بضعة أقدام. تهادت في مشيتها، غير مكترثة لهم.

كانت ريبيكا تصيح على توليو بالإسبانية. رغماً عنها، التقطتْ آنا كلمة أو اثنتين.

Uno, dos, tres, cuatro, cinco... [واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...]

صياحٌ فوق الأمواج. تفرّق المتجمّعون. لاح توليو حاملاً جسد جوزي، بين ذراعيه، جاهداً يشقّ الماء. غطّى الرجلُ الضخم جوزي بمنشفته، ولاحظت ريبيكا فجأة أنها لا تزال تحمل في يدها قطعة الكاتو التي أحضرتها لجوزي. رمتْ بالقطعة المبتلّة للطيور.

صرخات طيور.

تمتمات وولولات.

هسهسة، هدير، هسهسة.

ضغطت ريبيكا برأس آنا على خاصرتها المبلّلة.

– آه، آنا، آنا. أرأيتِ؟ أرأيت؟

وضع توليو جوزي على الرمل، محاولاً إبقاء المنشفة حوله. كانت هناك قطعة من أعشاب البحر عالقة بالحاجب الأيمن لجوزي. تمنّت آنا لو لاحظها أحد وأزالها. تململت للإفلات من حضن ريبيكا.

قال عجوز موضّحاً: "التيار. قوي للغاية بالنسبة إلى طفلٍ مثله. كان عليه أن يعرف".

انحنى توليو كأنه سيقبّل جوزي على شفتيه. ردَّ بيدٍ ذقنَ جوزي إلى الخلف؛ وغطّى بالأخرى أنفَ جوزي. ثم بدأ النفخ. ارتفع صدر جوزي قليلاً، ثم انخفض.

– لقد اتصلتُ بالهاتف. *L'ambulance arrive* [الإسعاف قادم].

استمرّ توليو بالنفخ. تهامس الجمع وتصايحوا. أمسكتْ ريبيكا بيد جوزي وندّت عنها أنّاتٌ صغيرة. وضع الرجل ذو طاقية السباحة يده على كتف آنا. دوّى بوقُ سيارة الإسعاف وسط الطيور الزاعقة، وأشار الصبي الأشقر إلى قمة الطريق حيث رجال الإسعاف يسارعون إلى النزول مع نقّالتهم. إحدى النساء قبّلت آنا على الخدّ وضمّتها إلى صدرها الذي كان يفوح برائحة زيت جوز الهند. نورسٌ رماديّ، كان ينقر شيئاً ما بالقرب من آنا، قفز قفزة صغيرة وطار مبتعداً، ثم عاد كأن شيئاً لم يحدث. الجمع بأكمله، بالتنانير والمناشف وثياب السباحة، سار خلف الرجال الذين يحملون جوزي على النقّالة، ووجهه مبلّل وأبيض، بينما في الخلفية، ظلت الأصوات تردّد *noyé, noyé, mort noyé* [غريق، غريق، مات غرقاً]، والمرأة صاحبة زيت

جوز الهند ممسكة بيد آنا وهما تسيران بتثاقل عبر القواقع الناعمة أمام اللافتة التي تقول Chemin de la Plage [طريق الشاطئ] على درب الحجارة والجذور. وسط الريح والأصوات ونداءات الطيور وصرخاتها، التقطت مرة أخرى خفْقَ الأمواج، ثابتاً كدقاتِ ساعة، واستسلمتْ له، الهدير والهسهسة، ثم الهدير مرة أخرى.

هسهسة، هدير.

هدير.

***

ركضتْ آنا إلى غرفة أمّها لأنها كانت تريدُ أن تُحْضَن. على الطريق إلى البيت، طرح عليها مسيو كليف سؤالاً، لكنها لم تلتفت حتى برأسها. كانت تريد أن ترى ذراعي أمها البيضاوين الضخمتين مفتوحتين كجناحين، ثم تنضمّان فوقها ولا تسمحان بدخول الضوء. "أجنحة من الخبز"، فكرت وهي تتذكر الملائكة المصنوعة من العجين التي أطلعتها ريبيكا على كيفية إعدادها في عيد الميلاد. ولمّا فتحت باب غرفة نوم والديها، كانت أمها على كرسيها الهزّاز، تحدّق بهدوء في حياكتها. كانت ذراعاها ترفرفان فتعلوان وتهبطان فينثني الجلد الرخو عند المرفق، حاميتين عشّ حياكتها الذي كانت آنا تدرك أنها لا تستطيع المطالبة به. لن تتباعدَ الذراعان.

"سأجلس هنا"، قالت آنا، مشيرة إلى المقعد المطرَّز الذي تريح عليه قدميها. انتظرتْ.

- هل تعلمين أن جوزي...؟

هزّت رأسها.

- أريد أن أقول لك، أنا آسفة.

أحسّت أن الكلمات غير صحيحة. كان والدها يصوّبها أحياناً: "لا تقولي آسفة، قولي المعذرة". علامَ المعذرة؟ واصلت العصفورة الضخمة رفرفاتها، وعيناها على الإبر التي تتكتك. واحد، اثنان. واحد، اثنان.

- أنا خائفة.

غمغمة، فغمغمةٌ أخرى.

- نقلوه. هل رأيتِهم ينقلونه؟

تكّة إبرة حياكة.

كانت ريبيكا تدفعها أحياناً إلى الكلام. فهل بمستطاع آنا دفعها إلى الكلام؟

- هل أنت خائفة؟

تكّة، فأخرى. واحد، اثنان.

- لقد غرق.

غرق، كلمة صعبة. تلتصق بالحلق. غدَق، غسَق، غرق[1]...

كانت الذكرى القديمة لأمها تلُوح وتختفي، وهي تجوب الغرفة مفعمةً بالحيويّة وتدير عنقها مبتسمة لها بعينين مختلفتين.

واصلت العصفورة البيضاء الضخمة الطقطقة بجناحيها.

- كانت السيدة دانكلماير تحمل الهدايا عندما نزلت من السيارة.

---

١ ترد هنا كلمتان قريبتان لفظاً من drowned [غرق]: Down, drone.

كانت قد اشترت أشياء لجوزي من سانت تيريز.

نهضت العصفورة. كبرت الذراعان، ترقّق اللحم المتهدّل شيئاً فشيئاً حتى صار ستارةً مخرَّمة كتلك الستائر التي ترفرف على النوافذ في غرفة الجلوس. ضاق الوجه الأبيض المدوَّر، العينان الغائرتان غاصتا أعمق، مثل ثقوب المحار في الرمل، وبصرخةٍ واحدة، تزلزل كلُّ شيء. الغرفةُ صارتِ البحر، وورقُ الجدران الماءَ. حلّ الظلام، كأن غيوم عاصفة عظيمة قد دلقت ماءها بغتة على الشمس، وفي إطارٍ مذهَّب كان مركبٌ صغير ينفث دخانه على الأفق. غاصت عصفورة البحر الضخمة في الأعماق الجديدة الباردة – مرفرفةً على الدوام، مطقطقة على الدوام – ملقيةً على آنا نظرة خاطفة وقالت:

– لا أحد يغرق أبداً، لا أحد يغرق أبداً، لا أحد يغرق أبداً.

***

كانت ريبيكا تبكي في غرفتها. ظلَّ وجه السيدة دانكلماير يطالعها مثل سمكة مرعبة. ريبيكا لم تخسرْ شيئاً، وقالت لنفسها: "لم أفقد شيئاً يخصّني"، لكنّ صوتها لم يخفّف عنها. جوزي راقدٌ هناك مثلما رقد لويسيتو من قبل، في ذلك التابوت الذي يبدو مثل لعبة.

منذ خمس سنين أو ستّ، داخل منزل واطئ مطلي بالكلس في ضاحية في بوينس آيرس، كان الجيران يتنقّلون بصمت، داخلين إلى الغرف المعتمة وخارجين منها، يربتون على كتف أختها متمنّين لها الخير، أختها التي قبّحها الحزن، المحدودبة على الحافة الخشبية

للتابوت المطلي بالأبيض كأصيص أزهار في بيتِ دمية.

لَو لَم، لو لم، لو لم. ظلّت أختها تردّد، مراراً وتكراراً، مثل ابتهال: "لو لم أطلب من إلبيو أن يعود، لو لم أغضب من بابا كثيراً، لو كنتُ قد أرسلت لويسيتو بعيداً مع عمّه، لو كنّا قد غادرنا عندما أخبرَنا إل نيغرو". لا مهلة للحداد على زوجها الذي أخذته سيارة فورد فالكون سوداء (قال الجيران)، نازفاً (قال الجيران)، منادياً زوجته. "لا يمكن فعل شيء، هذه هي طبيعة الأشياء، حظّ سيئ، *señora*، حظّ سيئ". كلّا (قال الجيران)، لم نرَ وجوهَ الرجال، كلّا (قال الجيران)، رجاء لا تطلبوا منا القدوم. ماذا بوسعنا أن نقول؟ لم نرَ شيئاً، أيَّ شيء في الواقع.

كانت ريبيكا قد عادت مع أختها إلى الغرفة، وحاولت إيقاف أختها عن رؤية لويسيتو. كانت يدا أخت ريبيكا قد خدشتا ذراعيها، تاركتين وراءهما خطوطاً رفيعة من الجلد المسلوخ. والجيران: "حاول منعهم من أخذ أبيه. لم يكمل الثامنة، لكنه رجل صغير. تشجّعي سينيورة يولاليا. تشجّعي. ما عسانا نقول؟"، توقفت يدا يولاليا عن الخدش وهمدتا في يدي ريبيكا.

الجيران رتّبوا الجنازة، ألبسوا لويسيتو أول ثوب ارتداه عند تناول القربان المقدس، ووضعوا الزهور. أتت بنت عمها لورينثا، وزوج لورينثا، والشقيق الأصغر لإل نيغرو. أتى رجل البوليس الذي يقطن على مبعدة بضعة بنايات، مصطحباً زوجته معه، ولكن الجيران لم يسمحوا له بالدخول. لم يقولوا شيئاً، لم يفعلوا شيئاً. فقط وقفوا في المدخل، كتفاً إلى كتف، ولم يتزحزحوا. طلب الدخول، قائلاً:

"اعذروني"، رافعاً صوته. انصرف في النهاية.

امتنعت يولاليا عن الطعام والشراب. كانت تريد أن تعرف.

–هل ضربوا لويسيتوي؟ هل دفعوه جانباً وفلقوا رأسه على إطار الباب؟ كانوا يمسكون بي؛ لم أستطع أن أرى، قولوا لي. هل ضربوا لويسيتو عن قصد؟ هل فعلوا ذلك؟

– ششش، لا جدوى من السؤال، يولاليا، لا جدوى من السؤال.

– لكنني محتاجةٌ أن أعرف. يجب أن أعرف.

لا جدوى من السؤال.

***

كان مسيو كليف واقفاً مرة أخرى إلى جانب شجرة الكرز البري. وكأن شيئاً لم يُفسِدْ سكينتها. كانت جسوم *limaces d'été* [بزّاقات الصيف] قد اختفت، عادت إلى التراب، طاهرة، رفاتاً انضافَت إلى رفات.

كان مسيو كليف رجلَ أمن. كان لقبه الكامل هو الرقيب الأول موريس كليف، ملحقاً بقسم التحقيقات الخاصة في الـSûreté [الأمن] الكيبيكيّ، كما كان يردف دائماً، ولكن الجميع عرفوه بصفته مسيو كليف. لم يناده أحد بلقبه حتى الذين يعلونه بالرتب. كان قد خدم في فرنسا، في الجيش الفرنسي، وفي الجزائر، ثم حين رقّ شعره وكثر مرؤوسوه الشبان، أحسّ مسيو كليف بتراجع ميله إلى المغامرة واشتدّ عليه الحنين، فقرّر أخيراً، بعد

نحو عشرين عاماً، التخلي عن العلم ذي الألوان الثلاثة والرجوع إلى كيبيك. هنا، لم يكن الواجب عشيقة متطلّبة. سُمح له باستثناء خاص الدخولُ إلى الـSûreté [الأمن] بعد عمر الخامسة والثلاثين، وأعقبت ذلك سلسلة من القضايا الهادئة. "أعمال مكتبية أساساً"، كان يقول دوماً، كمَن يقدّم عذراً.

لم يأسف بالتأكيد على إرساله في مثل هذا التحقيق الروتيني إلى بيرسِه. اعتادت جدته أن تأتي إلى بيرسِه في الأيام التي سبقتِ النزلَ الرخيصة المفضوحة ودكاكين التذكارات القذرة، في تلك الأيام عندما كان مكان الإقامة الوحيد هو L'Hôtel de la Plage [فندق الشاطئ] الذي قد تداعى الآن عائداً إلى الرمال التي نشأ منها. كان مسيو كليف يرغب دائماً في تمضية العطلات في بيرسِه.

كانت أظفار يدي مسيو كليف قد اتّسخت. كان ينبش في التراب، عند مقعد الحديقة، بقعة صغيرة بدت له محفورة حديثاً، ليكتشف عظمة قذرة لا أكثر. كنزُ كلب، دليلٌ على جريمة كلب. نقّب مسيو كليف جيبه بحثاً عن سكين الجيش السويسري[1] خاصته، ففكّ أحد نصالها، وراح ينكش التراب من تحت أظفاره. أهلّةٌ رمادية صغيرة، كظلال أظفاره، التصقت بالسكين ثم تساقطت على الأرض.

كان مسيو كليف حريصاً ألا يقصّ أظفاره أثناء تنظيفها. قالت له جدته، منذ سنوات مغرقة في البُعد إن على الروح بعد الموت، قبل

1 سكين جيب متعددة الاستعمالات، تضم مقصاً صغيراً ومقص أظفار وفتاحة زجاجات ونصالاً عدة؛ سميت بهذه التسمية في اللغة الإنكليزية لأن الجنود الأميركيين خلال الحرب العالمية الثانية استصعبوا نطق اسمها الألماني Offiziersmesser.

خلودها إلى الراحة، لملمةُ كُل قلامة من قلامات أظفارنا من كل مكان رميناها فيه. كان مسيو كليف حريصاً دائماً على قصّ أظفاره فوق علبة صغيرة مطلية بالمينا كان قد اشتراها في جانِت[1] منذ وقت طويل.

كان مسيو كليف شخصاً ضجِراً. كان يتطلع إلى تمضية بضعة أسابيع مع صديقه أنطوان بيرِنس، فيسترجعان الزمن الذي مضى، والجزائر والأيام المشرقة، تلك الأيام حين كان مسيو كليف في شبابه قد انطلق بحثاً عن نصيبه من الثروة على خطى بُيجو وبِليسيه[2]. ولكن بيرِنس اختلق الأعذار، وعمد إلى تجنّب مسيو كليف منذ وصول الأخير إلى بيرسه. لم يكن مسيو كليف راغباً في فرض أي شيء على صديقه. كان قد اتصل به من باب المحبّة،

١ مدينة جزائرية في الصحراء الكبرى، على الحدود مع ليبيا.

٢ الجنرال الفرنسي إيمابل بِليسيه (١٧٩٤ - ١٨٦٤)، المعروف بتوحشه، وأوامره بتجويع الجزائريين ونهب ممتلكاتهم وحرق قراهم؛ لعل أفدح جرائمه مذبحة مغارة الفراشيح شرق مستغانم، سنة ١٨٤٥، حيث لاذ بهذه المغارة مئات الناس من رجال مدنيين ونساء وأطفال وشيوخ، فأمر بِليسيه جنوده بمحاصرتهم فيها وإحراقهم وخنقهم بالدخان. بعد هذه المحرقة، تمت ترقيته من المارشال توما بُيجو (١٧٨٤ - ١٨٤٩) الذي كان أول حاكم فرنسي عام للجزائر، معتمداً في إخضاعها سياسة الأرض المحروقة، وخاض حرباً طويلة ضد الأمير عبد القادر الجزائري، وكتب بعد عودته إلى باريس أن الأجدى لفرنسا هو الاكتفاء باحتلال بعض الموانئ الجزائرية، بينما تمسّك أمثال فكتور هوغو باستعمار الجزائر بأكملها، وكتب الأخير قائلاً إن ما ينقص فرنسا هو قليل من البربرية، فالأتراك العثمانيون، المحتلّون السابقون للجزائر، كانوا يحسنون قطع الرؤوس أكثر من الفرنسيين، مضيفاً إن العقل لا ينفع مع الهمج بل القوة العارية، وقد أدركتْ روسيا وإنكلترا تلك الحقيقة، فاستعمرتا العالم البربري، أما فرنسا، فسوف تنقل الحضارة إلى مستعمَراتها.

نعم، ومن باب الكياسة أيضاً؛ لم يكن قد ألمح إلى الإقامة في منزل بيرِنس، بل بيرِنس هو مَن قدّم بنفسه غرفة له؛ من دون حماسة كثيرة، صحيح، ولكن بيرِنس، على أي حال، لم يكن قطّ واحداً من أصحاب المشاعر الجيّاشة.

هل يمكن للمرء أن يفقد *l'esprit de combat* [الروح القتالية]؟ ما عاد بيرِنس قادراً على النهوض بنفسه كجندي، كتفاه تهدّلتا، مشيته يعتريها التعب... فقط لو استطاع لفت انتباه بيرِنس مرة أخرى، فقط لو تحدّث إليه بيرِنس، من القلب. فكر مسيو كليف: "آه، حسناً، لستُ قارئاً عظيماً، ليست لي أذنٌ موسيقية، لا أعرف شيئاً عن الرسم. فإذن، ما أقلّ الأشياء التي سيتحدّث معي عنها".

هل غيّرتِ الحياة الزوجية أنطوان؟ تأمّل مسيو كليف هذ السؤال. لقد التقى مدام بيرِنس، للمرة الأولى، في مدينة كيبيك. كانت صدمة حاول إخفاءها بلطف. أنطوان، أنطوان بيرِنس، أنطوان الذي لا مثيل له، متزوّج بهذه المخلوقة؟

كان أنطوان قد التقاها، على ما يبدو، في الجزائر، بعد وقت غير طويل من مغادرة مسيو كليف. هل كان أنطوان يكلّمها عن الفن، عن الأدب؟

بالطبع، كان الوضع مختلفاً في سالف الأيام. ما أبدى بيرِنس إلا اهتماماً شخصياً بالكتب والحفلات الموسيقية. لم يكن هناك شيء من هذا الاستعراض الفجّ لرفوف كاملةٍ من الكتب. كان اهتمامه العام ينصبّ في الناس. كان يراقب الناس بنهم مقتني تحف، ودقّةِ عالم حشرات حريص على اكتشاف لماذا تأكل هذه

الخنفساءُ الحلازينَ فحسب، وأخرى براعمَ الورد، وثالثةٌ اللبَّ الفاجر للتّين. ولم يكن يترفّع عن اقتسام اكتشافاته مع غيره، فيشير لمسيو كليف إلى نزوات الشخصية وأمزجتها الخاصة وطِباعها، وإلى التلوّنات والأشكال والأصوات الإنسانية. في البداية، اعتقد مسيو كليف أنه أمام رجل يأخذ كولونياليته على محمل الجدّ. كان بيرِنس يبدو راغباً في فهم المكان الذي كانوا يعيشون فيه. درس اللغة العربية. التقى بضعة فرنسيين عجائز مجانين قرروا اعتناق الإسلام، وأمضوا ليالي طوالاً معه في غرفة صغيرة نتنة الرائحة في شارع إلواز. لعب الشطرنج مع الصيادين. كان مسيو كليف يستمتع بصحبته، وأصبحا (أو هذا ما ظنّه دائماً) صديقين، رفيقين. كذا *mon camarade* [يا رفيقي]، وكيت *mon camarade*. هكذا كان أحدهما يحادث الآخر، ريثما فوِّض أمرُ بيرِنس إلى الرقيب الأول غروليبه، فبدأ مسيو كليف يفكر جدياً في *La Nouvelle France* [فرنسا الجديدة]، وطنه وأرضه الأمّ. *Terre de nos aïeux*[1] [يا أرضَ أجدادنا]، دندن مسيو كليف متمهّلاً.

حدّق مسيو كليف بعيداً باتجاه الصخرة المغطّاة بالطيور وذرقها، وخلفها جزيرة بونافنتور. حاول تثبيت نظره على طائر واحد وتمييزه واقتفاءه في طيرانه الإهليلجي، ولكنه تبيّن استحالة ذلك. عيناه ضيّعتا الطائر، فصار الأخيرُ طائراً آخر، ثم آخر، ثم آخر. إنه لا يتفرّد بأي سمة، عديم الاسم، عديم الوجه، جزء من رقم. انزلقت سكين مسيو كليف وقصّتْ قلامة ظفر ضئيلة جداً من سبّابته اليسرى. تخيل مسيو

١ السطر الأول، بعد "آه كندا!"، في النشيد الوطني الكنديّ بنسخته الفرنسية.

كليف روحه وهي تحاول العثور على ذلك الظفر الذي لا يكاد يُرى، فضّياً في رمال الحديقة.

***

كان مسيو أنطوان بيرِنس في غرفته التي كانت بمكانة المكتبة أيضاً. كان ينام مع ماريان في غرفة النوم الزرقاء الكبيرة، حيث ينام قيلولته بعد ظهر كل يوم من الثانية إلى الرابعة بالضبط. ولكنه كان يقضي معظم وقته هنا، في المكتبة، أثناء إقامته في بيرِسه.

كانت الحيطان بأكملها تقريباً مغطّاة بخزانات كتب من خشب البلوط، باستثناء جهاز ستيريو مثبّت يشغل نصف حائط، ونافذة كبيرة بارزة عند الطرف القصيّ. كانت النافذة مطلّة على البحر، وجزيرة بونافنتور في البعيد، والصخرة، والجسر الحجري المحطّم الذي يُرى اتّصاله باليابسة عند انحسار المدّ.

كانت طاولته إلى جانب النافذة. على الطاولة نشّافة ورق قديمة جلدية الحافات من الجزائر، قلم مون بلان عريض الرأس، رزمة من الورق الأبيض عليه ختم مائي لأسد رابض، بورتريه مؤطّر بالفضة لبيرِنس نفسه حين كان في الحادية والعشرين من عمره، مرسوم على عجل بقلم رصاص وموقّع باسم جان كوكتو سنة ١٩٣٨، منفضة ماركة ديوبونيه[١] ملوّنة بالأبيض والأزرق كان حموه قد سرقها ذات

١ منفضة ديوبونيه: شاع استخدام هذه المنافض المثلثية الشكل في مقاهي باريس ومدن فرنسا، وقد روّجت لها شركة "ديوبونيه" للمشروبات الكحولية.

مرة من فندق في مرسيليا، علبة سجائر جيتان من دون فلتر، قدّاحة ذهبية تحمل توقيعاً محفوراً لا يُقرأ إلا عند إمالتها بزاوية معينة، ثقّالة ورق كريستالية كانت تعود في يوم من الأيام (على ما قيل له) إلى شاتوبريان، وكان قد أهداه إياها السفير الفرنسي في بوينس آيرس منذ سبعة أعياد ميلاد أو ثمانية. معظم الأشياء التي أحبّها كانت هنا، في بيرسِه، لا في منزله في مدينة كيبيك.

كانت هناك على الرفوف كتبٌ بالإنكليزية والفرنسية والإسبانية، وكتب قليلة بالعربية. كان بمستطاعك أن تعرف بأي لغة قد كُتبت وفق حالتها ولونها. فكانت الكتب العربية بلون القشدة ومتّسخة الكُعب؛ أما الفرنسية والإسبانية، فكانت قد اهترأت ولاحت الخيطان التي تضمُّ الملازم بعضها إلى بعض؛ وللكتب الإنكليزية كُعب لمّاعة كبيرة الحروف، وكانت أكبر حجماً من البقية. كانت هناك تحت النافذة البارزة أرففٌ تضمّ القواميسَ والموسوعات، ومعجمين جغرافيين عائدين إلى أبيه، وهو طبيب أرياف من النورماندي مات بعد وقت قصير من ولادة بيرِنس، وكان وجهه في ذاكرة بيرِنس مشوَّشاً تتداخلُ فيه اللحى والقبعات والشوارب. كانت هناك أيضاً صورة ممزَّقة ومرمَّمة ومحمية بالبلور لحشد أمام بناية مصمَّمة على طراز *fin- de- siècle* [نهاية القرن التاسع عشر]، موقَّعة باسم ماريان بيرِنس.

كانت هناك بين رفوف الكتب نسخة مؤطَّرة من محفورة دُورَر النحاسية "الفارس والموت والشيطان". كان قد اقتنى هذه المحفورة منذ مراهقته، عندما اشتراها في سوق للأغراض المستعملة في باريس، قبل الحرب. درسها بتمعّن ليحفظ الخطوط التي حفرها منقاش الفنان،

مفتشاً عن تفاصيل لا تكاد تُرى في القلعة على التل في الخلفية وفي الأشجار الملتوية الفروع المنبثقة من الصخور في درب الفارس. ولكي يتذكّر، حاول نسخ كل شكل من الأشكال على حِدة: الشيطان، مع وجهه الأخرق الدنيء وأذني خنزير وقَرني كبش، متلكئاً في المؤخرة؛ الموت، العجوز والأشبه بالجيف، قابضاً على الوقت في ساعة الرمل بابتسامة *Schadenfreude* [شماتة]؛ الفارس، *Ritter*[1] [الخيّال]، على جواده المتبختر القوي، مكتسياً بلباسه المعدني، مثقلاً بالأسلحة، مدرَّعاً بخوذة محارب يمكن أن يُرى من خلالها وجهه، مكشوفاً حليقاً رزيناً، وجه مغضّن ومستغرق في التفكير خلص أنطوان بيرِنس بمرور السنين إلى الاعتقاد بأنه وجهه هو. *Der Ewige Ritter* [الخيّال الأبدي] يخوض حرب ملك على أرض أجنبية، مخاطراً بموت الجميع ونزول اللعنة على الجميع. مع ذلك، يبدو وحيداً للغاية بين يدي دُورر. كان المرء يعلم أنه كان يملك اسماً، وبيتاً، وماضياً، وقد عانى من ألم الأسنان، وأضناهُ الحبّ، وفضّل جبنة الماعز على الجبنة المصنوعة من حليب البقر، وآمن بخلاص روحه، وتجاهل كلبه. "الجسد، من طينٍ عاديّ إلى غبار عادي"، فكّر. كانت محفورة دُورر مهيمنة على الغرفة.

كان هناك مقعدان جلديان كبيران قبالة الباب يراهما المرء فور دخوله، ورغم ذلك ظلت هذه الغرفة غرفة رجل وحيد. لم تكن وضعية المقعدين توحي بالأحاديث. قد يوحيان بمقابلة، ولكن ما من حميمية. أتى مسيو كليف بضع مرات ليتحدّث إليه هنا، ليتحدث

١ فارس من الفرسان الذين توكل إليهم حراسة قلاع الملوك، واعتبر في بعض الأحيان واحداً من طبقة النبلاء الدنيا في ألمانيا والنمسا.

إليه، وليس معه. كانت هناك قطة، قطة برتقالية، قطة برتقالية طويلة الوبر وعلى ذروة كلٍّ من أذنيها قنزعةُ فروٍ بيضاء، مستلقية على واحد من ذينك المقعدين. كانت آثار المخالب على الذراع اليمنى للمقعد وصولاً إلى قائمته اليمنى تشير إلى صاحبه. كان أنطوان بيرِنس، مدخّناً سيجارة جيتان وموازناً منفضة بورسلان بيضاء على ركبته، يجلس على المقعد الثاني. كان يقرأ كتاباً لكنه يتمنى لو كان كتاباً آخر. كان يحاول أن يتذكّر بضعة أسطر من الكتاب غير الموجود لديه لكي يقارنها بالأسطر التي قرأها للتوّ.

غادر العريف ترِمبلي منذ حوالى ربع ساعة، قادماً من مركز البوليس في بيرسِه، بعدما أخبره عن غرق ابن دانكلماير، "يا مواطننا الفخريّ في بيرسِه، إنها مأساة مفجعة، سيّدي". لمح مسيو كليف رتبته، وأراد العريف ترِمبلي أن يُطمئن مسيو بيرِنس إلى أنه لن يتعرض إلى المزيد من الإزعاج، "ولا ضرورة لحضور التحقيق، سيدي".

تساءل هل يجدر به الذهاب والتحدث إلى دانكلماير أم لا. لا يكاد يعرفهم، ولكن آنا كانت تستمتع باللعب مع الولد. العلاقات الاجتماعية الودودة، الخسارة الدائمة، قال لنفسه. في مركز القرية، سيستأنف الأعيانُ الآخرون في بيرسِه أشغالهم مرة أخرى، إذ لم يكادوا يُعنون بالموت الصغير في البحر. سيتناولون عشاءاتهم ويناقشون السياسة في هدوء منازلهم الصيفية، أو سيجلسون حول أجهزة تلفزيوناتهم وينتظرون أن تصلهم أخبار العالم الواسع والشرير الذي لم يكن يمسّ قريتهم.

عقبَ استقرارهم في كيبيك، قبل ثلاث سنين لا أكثر، منذ صيفهم

الأول في بيرسه (اكتشف بيرسِه، "شفرة تعلو من الماء"، في ديوان أندريه بروتون أركين ١٧[١] الذي قرأه خلال مراهقته في فرنسا تحت الصخور الشاهقة لإترِتا[٢])، كان يراقب هؤلاء الناس كمثل عالم طيور يراقب العدد الهائل لطيور البحر المتحوّلة التي تحوم على الشاطئ إلى ما لا نهاية.

تخيّلَ أنه كان في نظرهم ذلك الشخص الأسطوري، "الجنتلمان" العجوز المترف الآتي من فرنسا، يكاد يضاهي نجماً سينمائياً يمضي عطلته هنا. فرض هؤلاء الناس واجبات اجتماعية عليه، مسؤوليات الجِيرَة، احتكاكاً مع الجحيم. لكن آنا أحبّت الشاطئ. وبدت ماريان هنا أكثر سعادة مما كانت عليه في مدينة كيبيك. ذلك فوق أي اعتبار آخر.

حبوب الطبيب البيضاء الصغيرة ساعدت ماريان على النوم، وعلّم بيرِنس نفسه أن يحبّ هذا الجسم الأبيض البطيء الضخم الذي كان ذات مرة في منتهى القوة، في منتهى السرعة. قال الطبيب في مدينة كيبيك: "أحياناً تحدث هذه الأشياء للنساء اللواتي ينجبن في وقت متأخر من حياتهنّ، يستحوذ عليهن اكتئابٌ معين، ولو بعد بضع سنين من ولادة الطفل، مثل خمار الدخان الذي انسدل على القديسة آنا[٣]"، وأضافَ بشيء من الحذلقة: "بعد الحبَل بلا دنَس".

١ كتب بروتون هذا النص الشعري أثناء رحلة إلى شبه جزيرة غاسبِه في كيبيك.

٢ بلدة في إقليم النورماندي شمال غربي فرنسا، معروفة بجروفها وأقواسها الصخرية الطبيعية.

٣ القديسة آنا جدّة المسيح وفق الأناجيل المنحولة، أمُّ مريم العذراء التي أنجبتها، مثلما أنجبتْ ابنتُها المسيحَ، بعد حبَل بلا دنس.

الواجبات الاجتماعية، كرّر بيرِنس، مع تنهيدة. فكر من جديد في الأسطر التي كان يبحث عنها، ولكنه ما كان ليجدها اليوم. سمع طرْقاً على الباب. كانت ابنتُه، آنا.

باعتناء وضع الكتاب المفتوح كأنه يتفادى ثنيَ كعبه، وجثا بجانبها. أخذها بين ذراعيه، أرجحها بلطف، ولوهلة لم يقُلْ شيئاً. ثم، حين أربكته الوضعية، قبّلها على شفتيها، نهض بمشقّة وقادها إلى مقعده وأمسك بها أمامه أثناء كلامه.

– لم يكن خطأك.

– ولكن، لماذا حدث؟

– لا نعرف يا حبيبتي. لا نستطيع أن نعرف.

– لكنه لن يعود.

– كلا، لن يعود.

– هل يستغرق الغرق وقتاً طويلاً؟

– كلا.

– هل هو موجِع؟

– لا أظنّ ذلك.

– هل سبق ورأيتَ أحداً يغرق؟

كان هناك تردُّدٌ طفيف.

– نعم.

– هل تألّمَ الغريق؟

توجّب أن يكذب عليها الآن.

– كلّا.

- هل يعرف الشخص الذي يغرق أنه يغرق؟
- لا أحد يعرف. ربما. ربما لا.
- هل سيمكث مسيو كليف طويلاً؟
- كلّا.

هزّت آنا رأسها وكفّت عن طرح الأسئلة.

أراد أن يقول لها إن جوزي قد أنهى مدّته فقد بلغت مدّته نهايتها. أراد أن يقول لها إننا جميعاً قد تمّ قياسنا بطرق مختلفة لمدد مختلفة، وإننا مصنوعون من الزمن، مثل العشب أو الساعات الشمسية أو الماء. أراد أن يدفعها إلى التفكير فيما له نهايةٌ معيّنة نستطيع رؤيتها، الأشكال المرئية للزمن، النموّ والعبور والتحلّل، الأنهار والحشرات وعناقيد زهور اللانتانا التي كانت آنا تحبُّ مصّ سويقاتها، الأغصان على أرض الغابة المغطّاة بالطحالب، وحتى أبراج النجوم البطيئة التحول في ظلماتٍ كانت تتلاشى بدورها. بالنسبة إليه، كان ذلك كله في منتهى الوضوح، ومحسوساً إلى أبعد حد. كان دائماً يعرف بالضبط مكانَ كلّ شيء في هذا العالم المرهَق.

لكنها لم تكن بحاجة إلى سماع ذلك.

ولهذا أخذها بين ذراعيه مرة أخرى، ورفعها نحوه وأمسك بها، وأرجحها مرة أخرى بنعومة بالغة وقتاً طويلاً، في صمت، كأنه، والدها، مركزُ الكون الذي لا يتزحزح، وهي، ابنته، قمرٌ صغير أزرق يدور حوله، كأنها تستمدّ منه القوة وتعكس ضوءه.

كان أنطوان بيرِنس جالساً على المقعد وابنته في حضنه عندما قفزت القطة من مقعدها إلى الأرض، مططت ساقيها الخلفيتين

وتثاءبت ومشت بمنتهى التروّي إلى الباب الذي تُرك موارَباً، ثم إلى الممرّ. كان أنطوان بيرِنس لا يزال على تلك الوضعية عندما قرعت ريبيكا الباب، بعد قرابة ساعة، لتقول إن عشاء آنا جاهز.

***

أكلت آنا وحدها في المطبخ. أعدّت لها ريبيكا قطعة صغيرة من السمك المشوي وسلطة بندورة، ثم خرجت إلى الحديقة. رأت آنا وهي تنظر عبر النافذة أمَّها جالسةً على مقعد الحديقة وريبيكا تمشي باتجاهها. عاودت التحديق في صحنها. كانت جائعة، ومستحية لأنها جائعة. سآكل النصف فقط، قالت لنفسها.

أخذت الصحن مع السمكة نصف المأكولة وخرجت. كان بوسعها أن ترى ريبيكا قد حشرت نفسها إلى جوار أمها على المقعد؛ أطّرهما الضوء المبهر للعصر بوهْج ذهبي، مُلقياً بظلّيهما الطويلين على العشب. كانت ريبيكا تتكلمٌ بحماسة. حاولت آنا أن تتبيّن ما كانت تقوله، ولكنّ شفتي ريبيكا كانتا تتحرّكان بسرعة كبيرة، وتمازجت الأصوات بهدير البحر من تحت وصراخ الطير من فوق. رأت ريبيكا تأخذ بيد أمها اليسرى وتمسك بها، فالتفت وجه أمها نحو ريبيكا بابتسامة مرتبكة.

إنها تتحدّث إلى ريبيكا، فكّرت آنا.

كانت آنا تعرف أن الأمور كانت مختلفة في بوينس آيرس. كانت أمّها تغنّي لها، وتروي لها القصص، وألّفت آنا لأمّها قصصاً بمزيج

من الإسبانية والفرنسية. *Uno, dos, tres, cuatro*. [واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة]. حاولت آنا جاهدة الإنصاتَ إلى صوت أمها في تلك الذكريات نصف المختَرعة التي تنبعث في ذهنها قبل خلودها إلى النوم، ولكنها فشلت. نظرتْ بعناية كبيرة إلى الصورة الوحيدة التي عثرت عليها لأمّها قبل ولادة آنا: امرأة ضخمة، لا امرأة بدينة؛ امرأة قوية، مع شعر أسود أملس كالجلد الصقيل. احتفظ والدها بالصورة في أحد أدراج المكتبة، وعثرت عليها آنا هناك ذات صباح أثناء تفتيشها عن الأشياء الممنوعة. كانت تعلم أنها أمها، ومع ذلك بدت المرأة دون أي شبه بأمها، كأن مَن رسمها لا يتحلّى بذكاء كبير في استخدام قلم الرصاص. بالنسبة إلى آنا، كانت أمّها هي مَن هي الآن؛ لم يكن لأمها ماضٍ ولا شباب ولا طفولة. لن تموت أمّها أبداً.

وقفت آنا عند طرف الحديقة، حيث ينحني السياج على السفح الصخري، وأعادت السمكة نصف المأكولة إلى البحر.

***

قرّر أنطوان بيرِنس قبول دعوة مدام آناليز ميشو في تلك الليلة نفسها. ولن يحضر مسيو كليف معه.

ما كان ليسأل مسيو كليف ما هي الترتيبات التي أجراها من أجل تلك الأمسية. تمنّى لو لم يقدّم غرفةً في بيته إلى مسيو كليف. لكن الواجب استدعى مسيو كليف إلى بيرِسه؛ كيف لـ*camarade* [رفيق] تقديم ما هو أقلّ من المسكن والمأكل؟ مسكينٌ مسيو كليف، فكر

بيرِنس، وقد تحرّكت مشاعره بغتة.

كان سيذهب إلى العشاء ليؤدي واجبه كواحد من المواطنين الوجهاء في صيف بيرسِه. وسيأخذ معه ماريان. اكتشف أن ماريان كانت تحبّ آناليز ميشو.

ذات مرة، أثناء زيارته مصحّة في الجزائر، مشمئزاً أدرك أن ما أرعبه هو الكتلةُ المتماوجة من الأجساد التي تماثلت آلامها الفردية المختلفة وصارت وحشاً وحيداً مجنوناً. قال لنفسه: "فقط، لو تقدّم واحدٌ منهم مع اسم، وقصة، وملامح تشكّل وجهاً محدَّداً، بالغاً أو طفلاً، فلربما استطَعتُ عندئذ تقبّلَ الأمر". المشرف الطاعن في السن، المعتمر طربوشاً أحمر قذراً، قال له بالفرنسية: "إنهم جميعاً خراف الله. لكن الربّ لن يعترض لو رعيتُ، أنا العجوز، بضعة منهم باسمه".

أشدهه ذلك آنذاك، وأشدهه مرة أخرى الآن وهو يقود سيارته على الطريق المنحدر وماريان إلى جانبه تضع حزام الأمان: الاستحالة المطلقة لمحبة بحر شاسع من البشر. "أحببْ جارك"، بلى، الشخص الذي نتمرأى في حركاته، مرآة نصقلها بالمداهنة، بالموعظة، بالأكاذيب عند اللزوم، شخصٌ منظّم بطريقة لائقة، سلوكه حسن وفق قواعدنا البسيطة. ولكن كلّهم *en masse* [دفعة واحدة]؟

كانت ماريان، إبّان شبابها في غابر الأيام، بشعرها الأسود المرفرف في الريح المغبرّة وبشرتها شديدة البياض حتى أنه تساءل كيف لها تحمّل الشمس الجزائرية أكثر من بضع دقائق. أما الآن، فالعينان غائصتان في الجلد، الشعر معقودٌ من الخلف، وحتى الفم

بدا أصغر حجماً في وجه شمعيّ شاحب كالقمر.

ساعد زوجته لتصعد أدراج منزل ميشو، وقرع الجرس.

– *Bonsoir, monsieur, madame* [مساء الخير، سيدي وسيدتي].

فتحت لهما الباب خادمة شاحبة الوجه. من دون ترحيب رسمي بالطبع. ساعد ماريان على خلع وشاحها الذي كانت قد دثّرت به كتفيها للتوّ، ثم فكَّ أزرار سترته الصيفية الخفيفة. ولمّا كانت الخادمة تأخذ أغراضهما، جاءت آناليز ميشو نحوهما باسطة يديها الصغيرتين كلتيهما.

– برندا مسافرة إلى أميركا الجنوبية الأسبوع المقبل، وتريد منكما أن تخبراها بكل شيء عن أميركا. لقد وضعتها إلى جواركما. هل سمعتماها تغنّي؟ بيل!

سارعت إلى تغيير اللغة إلى الإنكليزية عندما اقترب منهم رجل طويل جداً.

– بيل عزيزي، أنطوان وماريان بيرِنس. لقد أصبحا كيبيكيين، خلال...؟ ثلاث سنوات؟ أنطوان، ألا يبدو على ماريان أنها قد تحسنت كثيراً؟ وبيل، أوكِلُ إليكم بماريان هذه الليلة. تستطيع أن تمتحنَ لغتك الفرنسية. بيل واحدٌ من رجالنا في أوتاوا، أو يجدر بي القول إنه واحدٌ من رجالهم، أصله من تكساس أو مكان آخر من هذا القبيل. ما هو منصبكم بالضبط بيل؟

لم يقُم الرجل المدعو بيل بأي محاولة للشرح. رفعت ماريان ناظريها منتظرة بانصياع. "دائماً، نورُ الهلع في عينيها"، فكّر بيرِنس. أحسّ بالقلق لتركها وحدها، كأنها ستضيع طريقها وسط الضيوف.

لكن مدام ميشو أمسكت به من مرفقه وراحت تسوقه أمامها بسرعة، باتجاه سيدة نحيفة واقفة جانبياً أمام لوحة زيتية داكنة مذهّبة الحافات.

–هل سمعتُم أم لم تسمعوا برندا تغنّي؟ برندا، *chère* [عزيزتي]، هذا هو الرجل الذي كنتُ أحدّثك عنه. إنه يعرف كلَّ ما تريدين معرفته عن أميركا الجنوبية. ماذا غنّيتِ الخريف الفائت في تورونتو؟

كانت ردهة المدخل مغمورة بالضوء. والآن، في هذه الغرفة شبه المعتمة حيث عُلّقت لوحات عملاقة، استدارت الهيئة الجانبية للسيدة النحيفة البيضاء، وللحظةٍ تساءل بيرِنس هل ستغدو دون أبعاد عند رؤيتها وجهاً لوجه، مثل دمية مقصوصة من ورق. وراءها، في امتزاج الظلال بالنور، كان عملاقٌ أسطوري يتوّج شخصاً يجمعه شبهٌ غامض بصموئيل دو شامبلان[1].

قالت السيدة: "سنطير إلى بوينس آيرس في الخريف، مثل الإوز. مسيو بيرِنس، هلّا أخبرتُموني بما يتوجّب عليّ فعله، وما عليّ تجنّبه. قيل لي ألا أشرب الماء".

تدخّل صوت، قائلاً: "كما هي الحال هنا، ظللتُ أقول للناس بوجوب الابتعاد عن الماء طوال سنين".

رجل يضع ياقةً رومانية بدت فضفاضة حول رقبته النحيلة، انسحب من مجموعة صغيرة واقفة تحت تتويج شامبلان، هزّ رأسه وابتسم. أشار بيرِنس لنادل يعبر.

– كأس نبيذ؟

---

١ صموئيل دو شامبلان (١٥٧٤– ١٦٣٥): بحار ومستكشف وعالم جغرافيا وضابط ومؤرخ وديبلوماسي فرنسي، مؤسس مستعمرة "فرنسا الجديدة" ومدينة كيبيك في كندا.

رفع كأسين من على الصينية وناول إحداهما للمغنية، والأخرى للكاهن. أخذ كأساً لنفسه.

- لا أقول إن هذا يبرّر الإسراف في تعاطي الكحول، ولكن ما عساه يفعل المرء؟ هل تعلمون أن كلّ بحيرة وكل نهر وكل بقعة ماء في كيبيك حالياً لا تصلح للشرب؟

قالت امرأة شائبة الشعر مزدانة بالجواهر: "أبونا إيبير يعزو كل كارثة جغرافية إلى *les orangistes*[1] [البرتقاليّين]، آه، أبونا؟ ماذا ستفعل الـ FLQ[2] بخصوص المطر الحامضي؟ وبالمناسبة، مرحباً. أنا فيليسيته غودبو، وأعرَفُ أكثر باسم مدام لومير. أتيتُ إلى بيرسِه أخيراً، مثل *Père* [أبونا] هنا".

واصل الكاهن كلامه: "بالتأكيد، لن يُسمَح لها بالاستمرار في

---

١ أسّس الصحافي والسياسي الأيرلندي أوغل روبرت غاوان (١٨٠٣- ١٨٧٦) في أونتاريو رابطة خلصاء أورانج في كندا، وهي جمعية بروتستانتية ناصرت تنظيم "أورانج" ذا الرايات البرتقالية الذي انطلق من أيرلندا الشمالية، وشكل تهديداً مباشراً للفرانكوفونية والكاثوليكية في كيبيك، وكاد يحصرهما في هذا الإقليم فحسب. تسمية "البرتقاليين" مشتقة من لقب الأمير البروتستانتي وليم الثالث الذي كان أمير أورانج الواقعة في وادي الرون جنوب فرنسا، ثم تسلم عرش اسكتلندا وغزا إنكلترا في القرن السابع عشر فأنهى الحكم الكاثوليكي للملك جيمس الثاني، وأمسى ألدّ أعداء الملك الفرنسي لويس الرابع عشر. لعب البرتقاليون دوراً مهماً في الصراعات اللغوية والدينية السياسية في كندا، ولا يزال بعضهم فعّالين حتى يومنا.

٢ Front de libération du Québec: جبهة تحرير كيبيك هي أول حركة تحرير فرانكوفونية ماركسية في كندا، تأسست سنة ١٩٦٢، ودعت إلى انفصال كيبيك عن الاتحاد الكندي الفيديرالي، كما دعت إلى الاستيلاء على السلطة بالعمل الثوري المسلّح. حُظر نشاطها رسمياً في كندا سنة ١٩٧٠ بعد تنفيذها العديد من أعمال القتل والخطف والنهب.

كيبيك، أستطيع أن أكفل لكم ذلك. في البدء كان الكلمة؛ فسُلبنا منه. ثم خلق الله الترابَ والماء؛ فسُلبنا منهما. تحسبونهم أناساً يخشون الله، هؤلاء *les orangistes* [البرتقاليّين]؟".

قالت المغنية: "لا أخالط السياسيين"، وكرعت نبيذها تأكيداً لرأيها القاطع.

تلفّت بيرِنس حوله، وقد انتابه القلق بغتة. لم يستطع أن يرى ماريان في هذا الضوء الكابي.

ثم سمعَ: "قد لا تخالطين السياسيين، ولكنهم سيختلطون معك بالتأكيد".

– أنتم متشائمون، أبونا. لقد اعتقدتُ دائماً بوجوب اعتبار التشاؤم خطيئة أخلاقية. أي نظرة خاوية على الحياة: الدم، البيانات، الثورة...

– سيدتي العزيزة لومير. لا أسمّي ذلك تشاؤماً؛ أسميه رؤيا. ينطوي التشاؤم على فقدان الإيمان برحمة الله. لدي إيمان عميق برحمته التي تعدلها بالطبع عدالتهُ اللامتناهية.

ثم لمحها برينس في زاوية بعيدة، وكان واضحاً أنها تنصت إلى الرجل المدعو بيل. مرتاحاً التفت بيرِنس إلى الكاهن.

– فإذن، أبونا، أنتم مؤمنون بأن على الرحمة الرضوخَ للعدالة؟

– بالتأكيد، مسيو... آه، بيرِنس. سويسري، أليس كذلك؟ آه، كلا؟ فرنسي؟ نورمانديّ، إه، مسيو بيرِنس؟ حسناً، بالتأكيد. رحمتنا يفسدها نفاد الصبر. ليس لدينا وقت لننتظر عدالته. عدالته، يا مسيو بيرِنس، تقتضي الصبر. ولديه الأبدية كلّها ليصبر فيها. انتظرْ بما فيه

الكفاية، يقعْ كلُّ أرنب في مصيدته التي لا مصيدة من بعدها.

"الله الصيادُ المختلِس. يا له من متعطّش إلى الدم!" وتظاهرت المغنيّة بأن بدنها قد اقشعرّ.

– ولكن لا، ليس متعطّشاً إلى الدم. إنه، كما ترون، سؤال متعلق بالتوازن. أنتم بحاجة إلى العدالة لتمنع *le marécage du mal* [مستنقع الشرّ] من أن يطفح بما فيه. المقياس. تلك هي المزية الإلهية التي كثيراً ما ننساها. المقياس.

– العين بالعين.

– والعينان بالعينين.

جمع الندلة الكؤوس وتواروا باحتشام.

– قصدكم أن الله يفضّل أن نكون عمياناً على أن نكون بعين واحدة؟

تذكّر بيرنس اقتباساً لكنه لم يقُلْه. تركت الكلمات التي لم يلفظها طَعماً دافئاً في فمه، ذكرى سعيدة. نظر مرة أخرى باتجاه مؤخرة الغرفة.

تجهّم الأب إيبير. أضفت عليه التكشيرة مسحة كوميدية.

– الله هو إله التناظر، أتذكر؟ أنا الذي أنا[١]. التناظر معرَّفاً بالتناظر. وابنه بين لصّين، وسطهما بالضبط، أحدهما صالح والآخر سيئ.

١ إضافة إلى التناظر في صلب المسيح بين لصّين، ثمة التناظر في تكرار "أنا" مرتين، وهو إشارة إلى الإصحاح الثالث من **سفر الخروج**، حيث ترد عبارة إشكالية: "أهْيَه الذي أهْيَه" (نقترح ترجمتها إلى "أنا الذي أنا")، وهي جواب الرب عن سؤال موسى عن اسمه، ويخبره أن يقول لبني إسرائيل إذا سألوه عن اسم ربه: "أهيه أرسلني إليكم"، والترجمة الحرفية هي "أنا أرسلني إليكم".

"مهلاً، مهلاً، أبونا إيبير"، أشارت مدام لومير إليه بسبّابتها البدينة، وهزّتْ شعرَها الشائب المصفَّف المثبَّت. "ها أنتم تنسبون إلى ربّنا جمالياتِ رسّاميه".

– بالطبع، مدام. إذن، من أين كانوا سيتعلّمون التناظر لولاه؟

كان بيرِنس على وشك أن يسأل عن فوائد التناظر في الأبدية عندما صفّقتْ آناليز وطلبتْ منهم بصوتٍ عال "الانتقال إلى مائدة العشاء".

***

القدر وترتيبات مدام ميشو في إجلاس المدعوّين فرّقت بينه وبين الأب إيبير الذي أعطي، نظراً إلى سنّه، رأس المائدة على الطرف المقابل للمضيفة. كانت الشموع موقَدة، وقد توسّطت أعشاشاً من *papier-mâché* [الورق المعجون] رُتِّبت على شكل أزهار، وكان على بيرِنس أن يجهد عينيه ليرى ما بعد جيرانه المباشرين. مدام لومير، الجالسة إلى جواره، ربتت كتفه بطريقة مطمئنة. استطلع حواليه بحثاً عن ماريان ولمح عينها على الطرف الآخر من المائدة. ابتسم لها، وظنّها ابتسمت له بالمثل، وتمنى لو استطاع أن يطاولها ويضمّها لكيلا تبدو هلوعة إلى هذا الحد. كأنها محاطة بأشباح مرعبة.

كانت الكلمات تتناهى إلى بيرِنس من الطرف البعيد للمائدة، مغمورة، على ما تهيأ له، بالعتمة: الصوت العالي للأب إيبير، بيل يسأل ماريان شيئاً يتّصل بأسفارها. كان يكره ضوضاء الأصوات في حفلات العشاء، غير قادر على سماع كل ما يُقال، مشاركاً في مشاهد

متقلّبة لاستعراض لم يكن قادراً على متابعته. عندما استرجع انتباهه، كانت الخادمة منحنية في ضوء الشموع، ترفع قشور الأفوكادو الفارغة وتضع في مكانها أطباق سمك مونكالم.

تناهت إليه كلمة "الخلود" من مكان لم يتبيّنه.

انتابت بيرِنس فجأة رغبة شديدة في المغادرة. أراد النهوض والذهاب عبر العتمة المحيطة ليرفع ماريان من ذراعيها ويختفي عبر أبواب مدام ميشو. لم يكن راغباً في متابعةِ الحديث، ومجاملةِ هؤلاء الناس، ومنحِهم وقتَه وأفكارَه. "لو ابتعدتُ في عباب بحرٍ من الحِبر"، فكّر، وأطرق ناظراً إلى صحنه.

كان هناك، جالساً بين المضيفة والرجل المدعو بيل، رجلٌ طويل أشيب الشعر وأشعث الشارب أبيضه. مسح قليلاً من الصلصة بقطعة خبز، وبدأ يتكلّم لحظة تنقّطت قطرة من زاوية فمه. أضاءت الشمعة لسانه البرّاق عندما مدّه ليوقف قطرة الصلصة وفشل، فاضطر إلى رفع المنديل إلى ما سال على ذقنه.

الجميع انتظروا.

"إنه... إنه بالتأكيد الموضوع الأكثر شيوعاً في الأدب"، قال بنبرة اعتذار.

"الخلود، بروفيسور؟" ردّدت مدام ميشو بلباقة.

بفم ملآن، غمغم البروفيسور: "رغبلخلود. اعذروني. قصدتُ الرغبةً في الخلود. الرغبة في عدم انتهاء هذا الحفل، في عدم بلوغ المتعة ذروتها أبداً"، وأردف ساكباً لنفسه نبيذ بوردو الأبيض: "وإن النبيذ في هذه الزجاجة سيدوم إلى أبد الآبدين!".

فقال الرجل المدعو بيل: "على فرض أن الحياة ممتعة وسعيدة ومثمرة، ثمة أمكنة حيث الحياة كابوس. تخيّلْ، كابوس لا ينتهي أبداً".

المضيفة اعترَتْها قشعريرة. بتأنٍّ، وضعت شوكتها وسكينها، وتناولت مملحةً لها شكل أناناس.

انتهى البروفيسوز من التهام سمكته وشعر الآن براحة أكبر في الكلام. "لنبدأ بالأوضح، طبعاً. فاوست، اليهودي التائه، دراكولا، تيثونوس[1]، الملك آرثر حبيساً في شجرة. أوديسيوس الراغب في البقاء شاباً عبر التجوال. ثم هناك أصحاب الدوافع الخفية: بينيلوب وما تحيكه، شهرزاد وإطالة قصة قصيرة. الحسناء النائمة، بالطبع...".

هزّت مدام لومير رأسها، وقالت: "كان أبونا يقول لنا منذ قليل إن السبب وراء وجود الأبدية هو إتاحة الغلبة لعدالة الله. فهل تقصد، يا بروفيسورنا العزيز، أننا - الفانين المساكين - نصبو إلى المزيد من الوقت فقط كي نتمكّن من تسديد الديون القديمة؟".

- لا أستطيع الجزم بالسبب، بل لا أستطيع حتى تخمينه. لستُ شاعراً والحمد لله. أنا بروفيسور. أشرتُ فقط إلى بضع وقائع أدبية.

لاحظ بيرِنس الأب إيبير ينحني نحو ماريان ويهمس شيئاً في أذنها. التمع خدّاها ببريق زيتيّ. هل ستكلّمه بالمثل؟ كانت فيما مضى

١ تيثونوس ابن ملك طروادة، أحبّته أورورا (ربة الفجر) فخطفته وجعلته زوجها ورغبت في استبقائه معها إلى الأبد، فتوسّلت إلى زيوس ليحقق لها أمنية وحيدة: "منح تيثونوس حياة خالدة"؛ ابتسم زيوس وهو يلبّي طلبها لأنها نسيت أن تلتمس له الشباب الخالد. حين شاخ تيثونوس وطعن في السن واضمحّل جسده تماماً، حبسته أورورا في حجرة لا يُسمع فيها غير صوته الخافت الواني في توسلات لا تنتهي تنشد موتاً مستحيلاً. في النهاية، تحوّل إلى جندب.

تتكلّم حتى تنقطع أنفاسها، ولا شيء يكبح صوتَها المتّقد حماسة في الملتقيات. أما الآن، فصوتها راقدٌ، وبيرِنس راغبٌ في استمالته، استدراجه من مخبئه. *Ô Dieu, qu'est-ce que donc que la voix?* [آهٍ يا الله، فإذن ما هو الصوت؟[1]].

رفعت الخادمة أطباق السمك، ووضعت إناء السلَطة أمام مدام ميشو.

"ولماذا ستنشُدون الخلاص، مسيو بيرِنس؟" سألتِ المغنيّة.

فكّر للحظة. رأى ماريان وحدها، آنا وحدها مع ماريان. رآهما تتمشيان عبر غرف لم يكن يعرفها، خارج الزمان. الخلاص؟ هزّ رأسه، وقال: "لن أنشُدَه".

"لكنكم يقيناً لن ترفضوا الخلود إن قُدِّم إليكم، هل ستفعلون؟" سألت مدام ميشو، وهي تكوّم السلطة الخضراء في صحنها، فبدت تحت ضوء الشموع الكابي مثل كومةٍ من الفضلات.

"نعم، أعتقد أنني سأرفضه"، قال.

"اعذروني"، أقحم الرجل المدعو بيل نفسه. أشار إلى بيرِنس بشوكته حاجباً إحدى الشموع. "اعذروني على السؤال، ولكن ما هو عملكم الذي تعيشون منه، مسيو بيرِنس؟".

– أنا متقاعد.

رغبت مدام ميشو في الاستعراض.

– أنطوان متواضع. قد يكون متقاعداً الآن، ولكن فيما مضى، كان رجلاً مهماً جداً في فرنسا، *n'est-ce pas, mon cher*

---

1 بيت شعري لفيكتور هوغو.

[أليس كذلك، عزيزي]؟ وسافر كثيراً، إلى شمال أفريقيا، أميركا اللاتينية...

- في السلك السياسي؟

- كلا، في العسكري.

"مسيو، ليس لدينا جيشٌ لنتكلم عليه"، نادى الأب إيبير من حيث كان جالساً عند طرف المائدة.

"ذلك لأننا شعب سلميّ. سويسرا الشمال"، تدخّلتْ مدام لومير وهي تملأ طبَقها بالسلَطة.

"أرض الفقراء السريين والأغنياء الكسالى. توصيف حديث للجحيم!" صاح الأب إيبير.

ضحكت مدام ميشو بأدب.

بيرِنس الذي رفض السلَطة، أشاح بعينيه عن ماريان. خطر له: "لو حطّت مسؤوليةُ الكون بغتة على عاتقِ هؤلاء الأدعياء، لو اكتسبتْ ثرثرتُهم بغتة أهميةً قصوى، فهل سيستمرّون على هذا المنوال، غير مدركين أو غير آبهين لبؤسهم الفكريّ؟"، ولكنه الآن ههنا، وسط هؤلاء الأشباح. وقد يشاركهم الحديث أيضاً.

"سليمان في كلّ مجده[1]"، اقتبس البروفيسور.

استدار بيرِنس نحو الكاهن الصغير القامة.

- أبونا، كنت أعتقد أنكم دون سائر الناس ستوافقون على نظام طبقيّ. السلطة الهرمية للسماء متجلّية على الأرض، أليس كذلك؟

- النظام، نعم، مسيو بيرِنس. ولكن ما ندعوه نظاماً ليس إلا راحة

---

١ من الآية ٢٩ في الإصحاح السادس من إنجيل متى.

البال. أوافق على نظام تشمله عين الله الذي يرى كل شيء، نظام أنا نفسي أجهله. وفي النهاية، الخيار لمشيئته، كما تعلمون.

"كانت العينُ في القبر، وبادلت قابيل التحديق[1]"، أصرّ البروفيسور.

الشموع ذابت كأنها امتصّت العتمة.

"*Père* [أبونا]، لا أريد في نظام الله هذا أن أكون مختاراً"، قال بيرِنس، كأنهما، هو والكاهن الصغير، وحدهما في الغرفة الكئيبة.

- تريد أن يمسح الموت صفحةَ ذنوبك.

- أتطلّع إلى الترتيب. لتكون الأشياء في مكانها الصحيح، كما ينبغي لها أن تكون، كما أريدها. لكن فيما يخصّني، أنا أنطوان بيرِنس، لستُ بحاجة قطعاً إلى الوجود هناك كي أرى وأتحقّق. ليس لموتي أي أهمية على الإطلاق.

"تريدون أن يستمرّ الحفل من دون مضيفيه"، قال الكاهن، في الضوء المتذبذب.

"أوه، لن يكون ذلك لطيفاً بحقّي، عزيزي أنطوان"، قالت مدام ميشو وهي تمدّ يدها لتضرب بيرِنس على يده.

مرة أخرى، ظهرت الخادمات، *deux ex machina*[2] [حلّالات

---

١ من قصيدة "الضمير"، لفيكتور هوغو.

٢ المعنى الحرفي لهذه العبارة اللاتينية هو "الإله من الآلة"، وهي تشير إلى اصطلاح ساخر في المسرح الإغريقي تم تعريبه أحياناً إلى "الآلة الإلهية"؛ حين تصل الأحداث الدرامية إلى طريق مسدود وتنعدم الحلول الطبيعية، يظهر بغتة إلهٌ أو شخصٌ خارق يحل العقدة المستعصية لينقذ البطل والمؤلف على حد

العُقَد]، وقدّمن الفريز والسابايون.

قال الأب إيبير بعد وقفة تأمُّل: "لا أعتقد أن الله سيفعل ذلك، مسيو بيرِنس. نحن عصافير في يده، كما تعلمون. مجهولون كعصافير تحت تحديقة ربّنا الذي يحتضر[1]. لا يمكنه أن يترككم، كقطعة من طين لم يُحسِن الخزّاف تكوينها وذهبت مذهب السوء. هذا واحدٌ من الأشياء التي تُلهب مشاعري إلى أقصى حد إزاء عالمنا المريع. فإذا فُقد واحدٌ منا –ولن أقول "مات"، بل زالَ وتلاشى– أيٌّ منا، الأكثر تعاسة بيننا، فسوف ينهار العالم مثل برج من عيدان الثقاب. بالنسبة إلى العالم، أنتم كالشمس لا غنى عنكم، مسيو بيرِنس. لا يستطيع العالم تناسيكم. الكون منوطٌ بكم".

عبر الطاولة، لم يكد بيرِنس يرى ماريان وهو يحاول بتركيز شديد غرزَ الشوكة في حبة فريز. وعاد السؤال: "متى بدأ السقوط؟ في أي نقطة منه نجتْ، وصارت كبيرة مثل بحيرة، بعيداً عني؟ كأن الزمن قد توقف بالنسبة إليها، غطّى أحجارها بالطحلب والأشنة، طوّقها بأحراش من الشوك".

أحسَّ بأنه ما عاد راغباً في مواصلة الكلام. ابتسم للأب إيبير عبر الغرفة المعتمة، ثم لمضيفته. شعر بغتة بإرهاق شديد. مرة أخرى أراد أن يعود إلى البيت. ارتاح، بل أفعمه الامتنان لسماع مدام

سواء. ترجمناها، في سياق الرواية، إلى "حلالات العقد"، في صياغة أقرب إلى المحكية.

١ إشارة إلى الإصحاح ١٢ من **إنجيل لوقا**: "نعم، أقول لكم: من هذا خافوا! أليست خمسة عصافير تباع بفلسين، وواحدٌ منها ليس منسياً أمام الله؟ بل شعورُ رؤوسكم أيضاً جميعها مُحصاة. فلا تخافوا! أنتم أفضل من عصافير كثيرة".

ميشو تقترح أن ينتقلوا جميعاً إلى غرفة الجلوس. نهض، ساعد السوبرانو على إبعاد كرسيها، وخلسة قدر المستطاع استرقَ النظر إلى ساعته.

كانت الحادية عشرة والنصف.

***

في الغرفة المجاورة لغرفة آنا، كان مسيو كليف يحاول النوم. أحس بالخذلان لهرب بيرِنس، وبالأسف على نفسه. أحسّ بأنه أحمق لأنه يحسّ بالأسف، وبالغضب لإحساسه بأنه أحمق. كانت أفعال صغيرة مماثلة مفتقرة إلى اللطف تذكّره بتعذر الأمل في تحقيق أي نجاح فيما يفعله. كان هناك مجد صغير أيام الجيش الفرنسي، جندي واحدٌ مزيد وسط حشد غفير من الجنود؛ لم يكن هناك بالتأكيد أي مجد في قوى البوليس الكيبيكية. لقد طعن في السنّ وفترتْ همّته. كان يعلم أن زملاءه يتساءلون، خلف ظهره، لماذا لم يتقاعدْ. وكان يريد أن يسألهم، من أجل ماذا. ليذرع أرجاء البيت بصندل مهترئ، ليتلهّفَ كل ليلة إلى نشرة الأخبار المسائية لأنها، لعلّ وعسى، قد تجلب بارقةً من الإثارة؟ لقد رأى أخاه - زوجته متوفاة وأطفاله بعيدون في مكان ما غرباً - تائهاً في شيخوخة لا تتّسم بأي شيء، لا يغتسل ولا يرعاه أحد، جالساً أمام تلفاز يتذبذب وميضه، آكلاً فواكهَ مطبوخة معلّبة. ذكرى صوت تلاشى - لعلّه صوت جدّته؟ - دعت مسيو كليف إلى الانضباطً. أدار الجانب البارد من الوسادة باتجاه خدّه. سيكلّم

بيرِنس غداً. أما الآن، فسوف ينام.

وما آن لهذا النوم أن يأتي. امتدّ العمل أمام عينيه المغمضتين، بدوّامة ترتيباته التي لا تنتهي. الملفات والمذكَّرات والأضابير التي تحمل أسماء القضايا التي ينبغي أن يوليها اهتمامه، جدول أعمال قلّما ينفّذها.

"ظروف الجريمة، الفحص الطبي النهائي. هذه فرصتك الأخيرة"، قال الملازم في مركز الـSûreté [الأمن] وأنفاسه تعبق برائحة كبش القرنفل. راجع مسيو كليف قائمة المهمّات التي يجب إنجازها وهو يضع إشارات على بنودها.

حاول مرة أخرى أن يستغرقه الظلام. تخيّلَ فضاء أسودَ لا حدّ له، ولَجَه. رأى أنه لم يرَ شيئاً. أرخى عضلاته: ذراعيه، ساقيه، عنقه. راقب نفسه يغمض عينيه في العتمة.

شرعت حافة من ضوء أحمر بشقّ حدود رؤياه. ذهنه رفض الاستسلام. ازداد الضوء سطوعاً. كان بمقدوره أن يرى الغبار وأبنية بيضاء وسماء ساخنة تتلألأ. رجالاً بجلابيب طويلة مخطّطة يذرعون شوارع صفراء. كانا، هو وبيرِنس، جالسين إلى طاولة، وأمامهما فنجانا قهوة صغيران للغاية. كانت هناك مجموعة من الرجال العرب الواقفين عند الناصية يدخّنون ويتكلمون بأصوات عالية. جاءت من أحد الأزقة الضيقة فتاتان أوروبيتان ترتديان زياً مدرسياً موحّداً: الفستان رمادي والعباءة زرقاء ذات قلنسوة والجوارب بيضاء والحذاء أسود. كانت الفتاتان تمشيان يداً بيد وهما تنظران إلى الأمام. لم يكونوا أكثر من سبعة على الأرجح، أو ربما ثمانية.

هتف أحدهم ببضع كلمات من إحدى الشرفات. ضحك الرجال، وتدافعوا، ثم بدؤوا رمي أعقاب السجائر على الفتاتين. أحد الأعقاب حطَّ بالضبط داخل قلنسوة الفتاة الأطول. بدأ الدخان يتصاعد من القلنسوة. صرخت الفتاتان، علا ضحكُ الرجال أكثر. ارتفعت حلقات الدخان رقيقةً في الهواء. لم يستطع مسيو كليف أن يميّز هل الدخان الذي رآه يتصاعد من حافة القلنسوة أم من حافة فنجان قهوته. نظر نحو بيرِنس، جامداً أمام الطاولة، كأن المشهد يدور على خشبة مسرح سقيم وبيرِنس هو المتفرّج الوحيد الذي لا يجد أي تسلية. بالنسبة إلى مسيو كليف، تراءى صديقه شامخاً كشجرة سرو، جبلاً لا يتزعزع.

وإذ كان مسيو كليف منكبّاً ليحدق، عن قربٍ أكثر، بهذا الظلام الدائري المليء بالأدخنة، خمد الضوء وراء عينيه فسنح له، في صمت وهدوء، الخلودُ إلى النوم.

***

لما فتحت آنا الباب، أدركت دخولها إلى الشعبة الخطأ. لم تكن المعلّمة، مدام فروشيت، عند طاولتها، وإنما رجل داكن الوجه ابتسم لها ابتسامة عريضة، وأشار إلى واحد من المقاعد في الصف الأمامي. لم يكن هناك أي من زملائها القدامى. كانت المقاعد الأخرى يشغلها طلبة لم تَرَهم قطّ من قبل، طلبة أكبر سناً، بدت أعمارهم في الثامنة عشر، العشرين. بالغون. تلفّتت فرأت سيدة ذات شعر أشقر أجعد

محشورة في أحد المقاعد في المؤخرة، بجانب رجل ناحل طويل يرتدي بذلة بنّيّة وربطة عنق منقَّطة. أرادت آنا القول إنها قد أخطأت وسوف تغادر، لكن الرجل عند طاولة المعلّم وضع إصبعه على شفتيه، زمّ فمه وهزّ رأسه. بزاوية عينها اليمنى، رأتْ – ظنّت أنها رأت – جوزي راكضاً بسروال سباحته في ممر المدرسة. نظرت إلى السبّورة السوداء.

كان أحدهم قد رسم هناك، بالطباشير الخضراء والزرقاء، وجوهاً مستديرة مع نقاطٍ هي العيون، خربشات كتلك التي رسمَتْها على كتاب جول فيرنَ الذي أهداها إياه والدُها في عيد الميلاد. لاحظ تلك الخربشات فاستشاط غضباً، أشدّ غضباً مما رأته في أي وقت مضى. لم يضربها – لم يضربها أبداً – لكنه جعلها مذعورة للغاية.

لاحظتْ أن الناس حولها يتهامسون ("لماذا يتهامسون؟"، فكّرتْ) ثم بدأت المرأة خلفها البكاء. استدارت آنا نحوها. كانت المرأة قد خلعت شعرها كأنه شعر مستعار، وجلست هناك، صلعاء ومتغضنة الوجه، الدمع يسيل على وجنتيها ومعه يسيل مكياجها. بدا الوجه كلُّه مغبشاً بالدموع كأنها آتيةٌ من عينيّ آنا ("لماذا أبكي؟"، تساءلت آنا). بغتةً توقّفت المرأة، استلّت من جيبها منديلاً كبيراً ووضعته على رأسها الأصلع بيدين حمراوين قبيحتين.

فتحت آنا عينيها. كانت الغرفة في ظلام مطبق. تعالت باتجاهها الأصوات التي لا تزال مكتومة، ولكنها غاضبة الآن. أضاءت المصباح فوق سريرها. حدّقتْ بها وجوهُ دُماها. تسرّبَ إليها عبر السقف صوتُ ريبيكا، ثم صوتُ رجل، فصوتُ رجلٍ آخر.

نهضت من السرير وأمعنت النظر باتجاه الممرّ. كان باب غرفة نوم والديها وبابُ غرفة مسيو كليف مغلقين؛ لا ضوء يشعّ من تحتهما. وحدها النافذة المستديرة الصغيرة فوق بئر السلم مضيئة في دائرة زرقاء متلألئة، مقسَّمة إلى أربعة أجزاء مثل فطيرة الجنيات. صعدتْ آنا الدرج إلى العلّية.

كانت تعلم أن قرع الباب واجب، ولكنها لم تقرعه. ببساطة دفعت باب غرفة ريبيكا وفتحته. جعلها السقف المائل تبدو مثل غرفة في منزل دمية. كان سرير ريبيكا، المخصص لطفل على الأرجح، محصوراً بين جدارين بالضبط، وفوقه نافذة صغيرة بحجم صينية. كانت قطعة الأثاث الأخرى الوحيدة هي طاولة معدنية حمراء مستديرة وضعت ريبيكا عليها مرآةً وعلبةً مطعَّمة بالأصداف وإطارَ صور بلاستيكياً أبيض فيه عدة صور فوتوغرافية. لم تكن هناك كراسٍ. كانت ريبيكا وتوليو جالسين على السرير. كان رجلٌ آخر، ذو لحية سوداء جعداء قصيرة من دون شوارب، جالساً على الأرض، متكئاً إلى الجدار. رفع ناظريه نحو آنا.

نهضت ريبيكا واثبةً.

– آنا! ماذا تفعلين هنا؟

– استيقظتُ. سمعتُ أصواتاً.

نهرتْ ريبيكا الرجلَ الجالس على الأرض فهزّ كتفيه وردَّ عليها. ثم وقف والتفت إلى آنا مبتسماً.

– إنها فتاة طيبة. لن تفشي أي شيء.

وضعت ريبيكا يدها على كتف آنا.

- آنا، هؤلاء أصدقائي. خوان. وتعرفين توليو.

وقفت آنا ويداها خلف ظهرها. أحسّت ببرودة الأرضية تحت قدميها الحافيتين.

- آنا، والداك... لن يحبّا ذلك، إذا عرفا أنني قد أحضرتُ أصدقائي إلى هنا. اتفقنا؟ لن تقولي شيئاً؟

- ولكن لماذا هما هنا؟

"جئنا نكلّم ريبيكا. نحن أصدقاء، جئنا لنحكي"، قال الرجل المدعو خوان، فبانت بغتة ثغرةٌ بين أسنانه.

وقف توليو وبدأ يتحدّث إلى ريبيكا، بسرعة كبيرة *Uno, dos, tres, cuatro*... [واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...].

بدت ريبيكا غاضبة. أجابت بهمس مسموع، مشيرة إلى آنا، ثم إلى الرجلين. أومأ توليو والتفت إلى آنا.

- ماذا تفعلين إذا سأل أحدهم؟

- يسأل عمَّ؟

- عنّا، أصدقاء ريبيكا، الموجودين في غرفتها.

- دعها وشأنها، قالت ريبيكا.

- أريد أن أعرف. دعيها تُجيب.

بغتةً خافت آنا. تمسّكت بيد ريبيكا.

- أقول لك، دعها وشأنها.

- آنا؟، أصرّ توليو.

- لا أعرف.

- ستقولين لا، أوكي؟

أمسك الرجل المدعوّ خوان كمَّ توليو. تجاهله توليو وانتظر جواب آنا.

– نعم، سأقول لا.

"فتاة صالحة"، ربّت توليو رأسها.

أخذت ريبيكا بيد آنا.

– حان وقت النوم الآن، أليس بلى؟ سآخذك.

ثم استدارت إلى الرجلين، قالت لهما شيئاً بالإسبانية، وأغلقت وراءها الباب وهي تخطو إلى الممرّ.

***

مجدَّداً أحسّت آنا بالنعاس في غرفتها، وفي سريرها. أمسكت بيد ريبيكا.

– ابقي قليلاً.

– يجب أن أذهب، آنا.

– قليلاً فقط.

– حسناً، فقط قليلاً.

شعاع ضوء، كمثل ما تسدّدهُ منارةٌ بحرية، دار عبر الستائر راسماً شريطاً أبيض على السقف ووجوهِ دمى آنا الجالسة على رفّها في الزاوية.

– كيف كانت، ريبيكا؟

– بوينس آيرس؟

– نعم، بوينس آيرس.

لفظت آنا الاسم بلكنة فرنسية استظرفتها ريبيكا دائماً. كانت قد جلست مع *señor* بيرِنس لتعلّمه النطق الصحيح للأصوات. "بُو- ي- نُس آي- رِس، بُو- ي- نُس آي- رِس". ضحك السينيور بيرِنس وتخلّى عن الفكرة. كثيراً ما كانت تضحك عندئذ.

– تعرفين، آنا. تتذكّرين.

– ريبيكا، قولي لي.

– مختلفة جداً.

– كيف مختلفة جداً؟

ابتسمت ريبيكا كأنها محرَجة قليلاً.

– مختلفة.

اقتربت آنا لتضمّ اليد الكبيرة المخدوشة لريبيكا، الفوّاحة بمنظّف له رائحة الليمون.

بدأتْ ريبيكا: "في أماسي الصيف، كان من عادتهم الجلوس خارج البيت في الخارج، لأن الشوارع كانت مختلفة هناك، مع الأشجار الطالعة من الرصيف. كانوا يجلسون على كراسٍ واطئة، وظهورهم متكئة إلى حائط أبيض طويل من الكلس، الإبريق وتوأمه إناء الألمنيوم الخاص بالسكر والمتّة موضوعة باعتناء على حجارة الرصيف. كان هناك Papá [بابا]، وTía [العمّة] آنيتا، والصبيّان، خورخي ولويس، وأحياناً بنت عمي لورينثا التي كانت تعمل لدى أمّك قبل قدومي، وأختي يولاليا التي كانت معلّمة. وزوجها إلبيو، وابن أختي لويسيتو. لكن ذلك انقضى".

أسماء، أسماء، أسماء، أسماء. رأت الشارع والجدار مرة أخرى، وتناهت إلى منخريها رائحة يوم أحد معين. التوكو، صلصة البندورة المتبّلة الرقيقة. كان بابا ينقّل كرسيه الصغير في الفيء، العمة آنيتا تخلع فردة صندلها اليمنى وتحكّ كاحلها الأيسر بإبهام قدمها اليمنى الكبير، الصبيان يتابعان مباراة كرة قدم على المذياع، ويولاليا تنهض وتدخل لتقول إن لديها صداعاً، أما الحقيقة، فهي أنها لم تسمع شيئاً من إلبيو طوال أسبوع. فيتأثّر الجميع من جديد، مرة أخرى. وأين كانت تجلس؟

– أكملي، ريبيكا. لا تتوقّفي.

– ماذا بوسعي أن أقول لك؟ لماذا تريدين أن تعرفي؟ كنتِ صغيرة جداً عندما عشتِ هناك، مجرد طفلة رضيعة. نامي.

– أخبريني. ماذا كنتم تأكلون؟

– كل يوم أحد، كنا نتناول الرافيولي. كانت العمة آنيتا تبدأ في وقت مبكر، مبكر للغاية، بعجن الباستا، هكذا، كما تعرفين، ثم تمدّها على طاولة المطبخ حتى ترقّ كالورق. كانت أختي يولاليا تحضّر التوكو.

كانت راغبة في حفلة كبيرة من أجل عيد ميلادها الخامس عشر، لكن بابا قال إن عليهم النظر في الموضوع، إذ ماذا عن خورخي الذي لا يعمل ولويس الذاهب إلى سالتا وإلبيو ذاك الذي لا يصلح لشيء تاركاً يولاليا هنا مع الولد. سمعته يولاليا. اكتفت بحمل لويسيتو من قيلولته، ثم أمسكت به، وكومة من الملابس المبلّلة ("يا للصبي، عمره ثماني سنوات ولا يزال يبول في فراشه")، على طريقها إلى

الحمّام. بدأت تصرخ ببابا، والصبي ملتصق بها مثل قرد رضيع، إذ كيف واتته الجرأة، كيف واتته؟ أطرقَ بابا ووضع يديه على أذنيه، ولكن يولاليا واصلتِ الصراخ. ألم يرَ أن إلبيو قد فعل هذا من أجلنا، من أجلنا جميعاً؟ هذا النغل العجوز، ألم يرَ؟ لم يرغب إلبيو في أن تكون نهايته مثل بابا رجلاً عجوزاً لا نفع يرتجى منه، خرقةً لأواني المطبخ، لاحسَ مؤخرات لعيناً لم يجرؤ قط على المطالبة بحقه. أين كان راتبه التقاعدي، أين تعويض فترة المرض، ماذا حدث للنقود التي وعدت الشركة بتوفيرها له؟ كانت يولاليا تريد معرفة ذلك. وقد لا يكون إلبيو هنا، ولكنها، يولاليا، كانت تعمل، وتهلك نفسها بالعمل حتى ينكسر ظهرها، إذا كان يريد أن يعرف، لأنه ما مِن أحد، ولا حتى أبوها، سيعيلها. تسع ساعات عند صندوق المحاسبة القميء ذاك، إذ لم تستطع العثور على أي عمل آخر. أما هو، فماذا كان، ماذا كان بابا يفعل؟ إنه يأخذ وقتاً طويلاً لكي يموت، هذا هو شاغله، وهو يسكنُ غرفةً وينفق النقود. ثم ركضت مع لويسيتو لتدخل الحمام وصفقت الباب. تهشّم بلّوره المغشّى. نادتها يولاليا باكية لتحضر المكنسة واللقّاطة.

- هل ستطبخين لنا الرافيولي، ريبيكا؟
- أبوك لا يحبّ الباستا.
- هل ستطبخينها، من أجلي، أرجوك؟
- ربما. الآن نامي.

عاد إلبيو في إحدى الليالي بعد وقت قصير من تلك الحادثة. سمعتْ يولاليا تنهض (كانت تنام مع لويسيتو في الغرفة المجاورة

لغرفة ريبيكا) وتجتاز المدخل متجّهة إلى الباب. سمعتْهُما يمارسان الحب تلك الليلة، صرير السرير الذي يضرب الحائط رغم المناشف التي وضعتها يولاليا على مقابض النحاس لتكتم الصوت، وصرخات يولاليا المخنوقة، وإلبيو ينادي باسمها، يولاليا، يولاليا، المرة تلو المرة، كأنه يحرّر الاسم، عصفوراً في قاعة من المرايا، بعدما لم يقله بصوتٍ عال طوال أيام كثيرة. بعيداً في مكان ما، كان بمستطاعها سماع الضوضاء الخفيضة لمذياع.

زعقت سيارة أمام البيت. أبوابٌ انصفقت. خبطات، خشبٌ يتشقّق، زجاجٌ يتكسّر. نهضت ريبيكا من السرير. جرّ بابا قدميه عبر المدخل منتعلاً صندله المنزليّ، رابطاً رداء نومه. وقبل أن يتمكن من بلوغ الباب المؤدي إلى الشارع، اقتحمه أربعة رجال بوجوه ملثَّمة وفي أيديهم بنادق آلية. دفعوا بابا إلى أحد الجدران ودخلوا راكضين كلٌّ إلى غرفة من الغرف حول المدخل. فتحت يولاليا بابها وراحت تصرخ. ريبيكا أرتجَتْ بابها. شجارات وصيحات، ومن ثم الصمت.

فتحت ريبيكا بابها مرة أخرى. كانت يولاليا على أرض المدخل. كان خورخي، الذي ظل نائماً على نحوٍ لا يُصدَّق طوال المداهمة، واقفاً قرب الأثاث المحطَّم، وهو يطرحُ الأسئلة. كان بابا قد انكبّ على يولاليا وهي تلهث بالعةً جرعاتٍ كبيرة من الهواء. "سمكة على اليابسة"، فكرت ريبيكا. في غرفة ريبيكا، كان هناك مصباح، مغطى بمنديل وردي صغير، يتأرجح فوق فوضى السرير. كان الضوء الوردي يشعّ فوق جسد لويسيتو في الزاوية، ثم يميل عنه.

وعند رجوع المصباح مرة أخرى رأتْ دماً على وجهه. ثم العتمة. لم تنظر في المرة الثالثة لتأرجح المصباح فوقه. ساعدت بابا على إنهاض يولاليا، وسارا بها عبر المدخل إلى المطبخ، وصاحت بخورخي لينزل إلى دكّان منديبتا ويهاتف المستشفى. عبر الباب الأمامي مشظّى الخشب، بدأ الجيران، بيبجاماتهم وأردية نومهم، يلتمّون في مجموعات صغيرة فضولية وهم يلقون الأسئلة. عندما دخل طبيب المستشفى إلى المطبخ ليخبرهم بأن لويسيتو قد مات، كانت ريبيكا تنتظر تقطُّر القهوة عبر مصفاة القماش البنية. بدأت يولاليا تطلق أصواتاً أشبه بحيوان صغير جريح، وانهارَ بابا على كرسيه باكياً. أخذت doña [السيدة] منديبتا القهوة المتقطّرة من يدي ريبيكا وأجلستها بين أبيها وأختها. فقط عندما رأت دونيا منديبتا تصبّ السائل الغامق الساخن وتصاعدت رائحته الاستوائية إلى أنفها، أجشهتْ بالبكاء.

***

ارتدت آنا ثيابها بأهدأ ما تستطيع. كان بمقدورها أن ترى، خلال الستائر المسدلة، ضباباً رقيقاً براقاً يمتد ببطء فوق الماء والرمل، وتلمح التماعاتٍ فضية في الصخرة، وبقعاً من الأصفر والأحمر والبرتقالي تلطّخ السماء المدلهمّة. أغلقت الباب الأمامي من دون صوت، ومشت مرة أخرى في Chemin de la Plage [طريق الشاطئ]. كانت تفكر في جوزي.

كانت المقبرة في مكان ما وراء التلال، حيث *limaces d'été* [بزّاقات الصيف] لمسيو كليف ستجد طريقها نحو أشجار أخرى، من الغصون إلى الجذور، من الجذور إلى التراب، من التراب إلى التابوت حيث يرقد جوزي. لو خُيِّرتْ، لآثَرَتِ البحر، حتى لو كانت تخشى أعماقه العصية على التفكير وأسماك قرشه الرمادية العمياء، الظلامَ والصمتَ الأصمّ. زمّت عينيها المغلقتين، ووضعت يديها بإحكام على أذنيها. تصاوير كاليدوسكوب برّاقة تماوجت أمامها، أشكال هندسية مسكوكة من الذهب والفضة. غرفٌ في قصر. مع مَن ستلعب الآن وقد رحل جوزي؟ وقفت مرة أخرى عند أسفل الصخرة.

كانت قوارب صيادين متناثرة تعلو وتهبط مترنّحة على البحر متلاطم الموج. استهلت الطيور صخبها وهي تحوم فوق رأسها وفوق جزيرة بونافنتور. هل بوسعها أن تحصي السرب، الأقربَ إلى الحشرات منه إلى الطيور، منقّطاً الأعالي؟ *Uno, dos, tres, cuatro* [واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة]. اشتاقت إلى جوزي. لم تكن تريده ميتاً. تهادى نحوها نورس رمادي ضخم وراح ينقر شيئاً لا يبعد عن مكان وقوفها أكثر من قدم واحدة، وقد أدار رأسه جانباً. انحنت ببطء والتقطت حجراً، قلّبته في يدها، ثم سدّدته بكامل قوتها على الطائر. أصابه الحجر في الظهر. سمعته يزعق ثم رأته يفرد جناحيه ويطير مبتعداً على طول الشاطئ. راقبتْهُ طويلاً. تراءى لها أنه قد فقد توازنه مرة واحدة أو اثنتين وهو يحلّق إلى الأمام ثم يعود باتجاه الماء. ثم اختفى. هل تهاوى؟ أحست آنا بعينيها تمتلآن دمعاً. أحسّت بغتة بخجل شديد، وبأنها وحيدة وتعيسة. استدارت لتعاود الصعود من جديد فرأت هيئة شخص صغير في البعيد،

يقف على قمة Chemin de la Plage [طريق الشاطئ]، وعيناه تتّقيان سطوعاً يبهِر النظر. مسيو كليف.

"تقطفين الورود؟" سأل عندما وصل إليها في منتصف الطريق.

لم تعرف ماذا ستقول لتجيبه. مدَّ مسيو كليف يده المنمَّشة لكنها تجاهلتها.

"كنت فقط قد خرجت لأتمشّى"، قالت. ثم أضافت: "كان الجميع سواي نائمين".

"الجميع باستثناء المخلص لك". نفض مسيو كليف بيده الرمل عن الطيّتين أسفل بنطلونه، وأضاف: "أنا دائماً أستيقظ باكراً". ثم بدا عليه التردّد: "أنا متأسف على صديقك الصغير".

استحوذ على آنا للحظةٍ شعورٌ يختلط فيه النفور والشفقة معاً: الامتنان لتأسُّفه وشيء أقرب إلى الغثيان عند التفكير في هذا المخلوق الشبيه بطائر حزيناً على موت جوزي. شخصت بعينيها لتنظر إليه. ابتسامته أبطلت السحر.

– وكم تبقّى الآن حتى تبدأ المدرسة؟

– سبتمبر.

– لا بد أنك تتطلعين إليها، آه؟ سترين رفاقك مجدّداً، تخبرينهم عن مغامراتك على المحيط...

توقف عند البوابة.

– أخبريني، هل أنت وريبيكا صديقتان قريبتان؟

– إنها كبيرة.

– أجل، أعرف. لكن الأطفال والكبار يصبحون أصدقاء أحياناً،

أليس كذلك؟ هل تحبين الاستماع لحديثها؟

– نعم. إنها تخبرني أشياء. عن بوينس آيرس.

– وهل تخبرك شيئاً عن نفسها؟ إذا كانت تحبّ بيرسِه؟

– أعتقد أنها تحبّها. لديها أصدقاء هنا.

– آه، نعم. أصدقاء. أي نوع من الأصدقاء؟

– لا أعرف. أصدقاء فقط.

– وعمّ تتحدّث مع أصدقائها؟

– لا أعرف. إنهم يتحدثون بالإسبانية.

– الإسبانية. تلك لغة رغبت دائماً في التحدث بها. *Viva España* [تحيا إسبانيا]. لكنك تعلمين، لا أحسن تعلُّم اللغات. أظن أنني محظوظ لأنني ولدت في بلد ناطق بالفرنسية. إذ لو كان عليّ تعلّمها... فلا أمل، لا أمل على الإطلاق. هل سمعتني أتحدث بالإنكليزية؟

أطلق مسيو كليف ضحكة صغيرة، وقال بنبرة المتفاصح:

– خيّاطي غنيّ[١]. خياطك فقير.

دفشت آنا البوابة وركضت باتجاه البيت.

***

كانت الساعة على الطاولة الصغيرة، بجانب سرير أنطوان بيرِنس،

١ My tailor is rich: شاع استخدام هذه الجملة في الكتب الفرنسية المخصصة لتعلم الإنكليزية من دون معلم، وهي مثال، عندما تُلفظ بلكنة فرنسية، عن سخرية القائل من جهله بالإنكليزية.

تشير إلى ٧:٣٠. إلى جواره، كانت ماريان تشخر بأنين ناعم في نومها. حاول الجلوس، ولكن ألماً حاداً طعن أسفل ظهره. حاول الاسترخاء، ولكن الألم اشتدّ ثانية، منعقداً حول مصرّة شرجه. أغمض عينيه، وحاول أن يتصوّر موضع الألم. قال لنفسه إنه لو استطاع أن يراه، لو استطاع حقاً أن يعطي للألم شكلاً، لتمكّن من استدراجه وتسكينه. إنه انتفاخ. ضربٌ من النمو. مدّ إصبعه بلطف على ظهره إلى شرجه. كان الألم قد تجلّط في عقدة مطاطية أصغر مما كان يحسبها، بارزة من الداخل كخطم أحد الزواحف. أرغم نفسه على الخروج من السرير وارتدى ملابسه بحذر. بعد الفطور سيزور الطبيب.

"الألم يغيّر كل شيء. لوحة مانتينيا[1] "المسيح الميت"، الجلد الشاحب جلدك، الجراح المفتوحة جراحك، البَخَرُ ذاته من الفم الجامد"، قال لنفسه. ارتجف وهو يمشي خارجاً من الغرفة. "الألم هنا، الآن، في الداخل. ربما ما من طريقة أخرى: تخلّصْ من دور المتفرّج، صِرْ في الداخل. إذن، هذا هو كلُّ ما في الأمر. لا المتعة، بل الألم".

كان يتناول القهوة في غرفة الطعام – واقفاً؛ ما كان ليتحمّل مذلة الوسادة – ويحدّق بشيء صغير في الصفحات الأخيرة من *LE DEVOIR*[2]، طفل أعرج ضُرب حتى الموت في مكان ما من المنطقة

١ أندريا مانتينيا (١٤٣١– ١٥٠٦): رسام إيطالي من عصر النهضة، عُرف بمقارباته النحتيّة في الرسم.

٢ جريدة تصدر باللغة الفرنسية، وتطبع في موريال [مونتريال]. تأسست سنة ١٩١٠، وهي الجريدة الوحيدة المستقلة في كيبيك.

الشرقية[1]. كان على وشك طيّ الجريدة عندما دخل مسيو كليف.

– أنطوان، أنطوان، أنطوان.

– صباح الخير. هل شربت القهوة؟

– مع العصافير. أنت تعرفني. لا أستطيع البقاء في السرير بعد السادسة. كما أني لم أنَمْ في وقت متأخر ليلة أمس.

– في سنّك، أنت بحاجة إلى الراحة.

– أنطوان، أنطوان. كلانا محتاجان إلى الراحة.

– هذا رأيك.

– أنطوان، كان بإمكانك أن تنبّهني.

– أنبّهك؟

– إلى خروجك لتناول العشاء.

– لا تكن سخيفاً.

– أحتاج إلى معرفة ماذا يجري. لا أستطيع التشاجر معك أيضاً. إذا كان لي أن أتقدم قليلاً في كل هذه المسألة، فأنا بحاجة إلى معونتك. أنت تعرف ناس بيرسِه، أنطوان. أنا لا أعرفهم. رفاقُ السلاح نحن، أنطوان. أنطوان، وعدتَ بأنني إذا احتجتُ إلى أي شيء...

كان هناك شيء مضحك جداً في رجاء مسيو كليف، ما أنسى بيرِنس انزعاجه للحظة. أحس بأن السخاء واجب عليه.

– سأخبرك، من الآن فصاعداً، بكلّ ما أفعله. فلنبدأ من هذه اللحظة. في الثامنة والنصف بالضبط أنا ذاهبٌ إلى عيادة الطبيب.

انفتح باب المطبخ ودخلت ريبيكا لتعدّ فطور ماريان. وضع

[1] تقع هذه المنطقة السياحية جنوب شرقي كيبيك.

بيرِنس فنجانه، أدّى تحية عسكرية لمسيو كليف، وغادر.

***

خاليةً كانت غرفةُ الانتظار الصغيرة للغاية في عيادة الجرّاح.

"هل هناك تصانيف للألم"، فكّر بيرِنس ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي تساوره فيها الفكرة. "قصدي، هل يختلف الألم الذي يشعر به طفل أحدب مقذوف على القضبان المعدنية لسريره عن ذاك الألم الذي شعر به ستيفنسن[١] مثلاً، الرئتان تتناهشهما نوبات السعال والعينان تنقلبان نحو الداخل باتجاه القروح السرية المفتوحة التي تنزّ دماً؟ أو ألمي أنا، ألمُ القادر على رؤية كليهما، القادر على فهم ما لا يستطيع الطفل استيعابه، وعلى اقتناء ما لم يتوانَ ستيفنسن عن ابتداعه؟ أي تصنيف لهذا الألم، إذن، جرذٌ يتقلّب داخلي، يكبرُ، يتورّم؟ ولماذا؟".

بدأت صورة بالتشكّل، نصفها ذكرى. غرفة بيضاء البلاطات. مصباح وحيد. أشخاص يتحركون في صمت. خرير الماء. كلّها ذكّرته على نحو مبهم بأحد الأديرة. "أين أنا؟"، توجّع بيرِنس. أغرق الصورة بحبر أسود، مستدركاً في الثانية الأخيرة.

انفتح الباب، وأخبرته الممرضة أن الطبيب سيراه الآن.

***

١ المقصود هو الكاتب الاسكتلندي روبرت لويس ستيفنسن.

طوال الصباح حاولت آنا أن تبقى وحدها، وطوال الصباح حام الناس حولها كالطيور. مسيو كليف، والرجل من دكّان الخردوات، وريبيكا ذات العينين المحمرَّتين تثرثر على الفطور. وحين تمشّت على Chemin de la Plage [طريق الشاطئ]، ابتسم لها خوان ذو اللحية السوداء الكثّة. أرغمت نفسها على مبادلته الابتسام، وواصلت المشي، لكنه أسرع للحاق بها ومجاراة خطوها، كأنها حيوان صغير نادر، حركاته في منتهى الخفة ولا يمكن التكهّن بها. انتهت الطريق عند أطراف كنيسة صغيرة ما عاد أحدٌ يرتادها. كانت النوافذ مسدودة بالألواح، باستثناء فتحة صغيرة أشبه بالكوّة، شظايا زرق وحمر من الزجاج المعشَّق فاغرة أفواهها فوق الباب المقبَّب. نصف الكنيسة تماماً تألّق ببياضه في ضياء الشمس، ونصفها قائم في الظلّ. جلست آنا على الجانب الظليل، ورفعت ركبتيها إلى صدرها. انحنى خوان إلى جانبها.

– أنا آسف لليلة أمس. أفزعناك. لم نتقصّد إفزاعك.

هزّت رأسها.

– ذلك الرجل، كليف، كلّمك. سألك أسئلة؟

هزّت رأسها أكثر.

– عن ريبيكا؟

كان هناك شيء ما يحرّك كتلة العشب الأصفر أمامها بالضبط. أمعنت النظر فيها ولكنها لم ترَ شيئاً. تخيّلتْ نفسها صغيرة بما فيه الكفاية لتختبئ داخل تلك الكتلة. في عالم الحشرات.

– آنا، سأخبرك شيئاً عن ريبيكا.

جناحان مضمومان تحت درع قاسٍ كقشرة كستناء محروقة، الأقدام تتراقص، كانت خنفساء تشقّ طريقها في رقعة من التراب الأحمر.

– حدث شيء لريبيكا منذ وقت بعيد.

– شيء مثل ماذا؟

– ولذلك السبب يجب أن نكون لطفاء جداً معها.

– ماذا حدث؟

– قُتلتْ عائلتها.

– كلّ عائلتها؟

– كلّها تقريباً.

– أين حدث ذلك؟

– في الأرجنتين.

– كنتُ هناك.

– أجل، أعرف.

– لا تبدو حزينة.

– الإنسان – كيف تقولونها؟ – يتعافى.

– كما الحال مع جوزي.

– نعم.

– فهمت.

– آنا. يجب عليك ألا تخبري الناس عن ريبيكا. أقول لك لأنك تحبينها. أنت تحبينها، أليس بلى؟

– نعم.

- بعض الناس لا يحبّونها.

تسلّقتِ الخنفساء تلعة صغيرة من التراب ولبثت هناك، وقرون استشعارها تهتزّ. ثم زحفت نحو الظلال واختفت.

- لا أعتقد أن مسيو كليف يحبّ ريبيكا.

- كلا، لا أعتقد أنه يحبها، آنا.

نهض خوان، لوّح لها، ومضى مبتعداً باتجاه البلدة.

***

- مدام لومير.

- مسيو بيرِنس. مسرورة برؤيتكم. أنا أنوب عن الدكتور بيترا؛ إنه في مدينة كيبيك.

أحسّ بيرِنس بضيقٍ رهيب. كان يعرف بيترا منذ سنوات عدة، وقد ناقش معه أوجاع الشيخوخة ومنغّصاتها، وسمع عن خطط الطبيب بافتتاح عيادة في مكان ما على الشاطئ، وقد دعاه إلى العشاء في نُزُل غارغانتوا وقارن المأكولات البحرية في شمال أفريقيا بالمخلوقات المصطادة في هذا المكان البارد شمال الأطلسي. والآن، سيتعيّن عليه أن يصير بغتةً حميماً مع امرأة ضخمة شائبة الشعر.

- هل تقلق أفكار الخلود نومَكم؟

ابتسم بيرِنس بأدب.

- كلا، إطلاقاً. شيء أخسُّ بكثير. البواسير.

- آه، آفة الشيخوخة المتحضّرة. دعونا نرى.

حين خلع ملابسه، حين فكّ حزامه وأنزل بنطلونه وسرواله الداخلي البوكسر، حين تملّى فخذيه البيضاوين تلطّخهما بقعٌ بلون الرمل، حين حاول أن يتذكر هاتين الفخذين نفسيهما سمراوين في الشمس، بغتة نزل عليه كالصاعقة الإحساسُ بأن هناك شخصاً يراقبه من مستقبل عصي على الإدراك. بدا أن هذه العجوز، هذه الساحرة[1] المفجوعة، جالسة وحدها في زمانٍ لا يمكنه الوصول إليه، في حاضر محسوس ولا مناصّ من حدوثه، أما بالنسبة إليه فهذا الحاضر لم يحدثْ بعد؛ وهو، متلكئاً في ماضٍ أبطأ إيقاعاً ومتناهٍ في الدقّة، لا يزال شاباً، لا يزال مفتقراً إلى التجربة، ولا يزال متلهفاً فضولياً حول الصفحات الأخيرة في الكتاب، بينما هي، هي وبقية العالم، كانت تنتظر منه اللحاق بنفسه التي شاخت عند منعطف انحلَّ فيه كل شيء وما عادت تُطرَح أي أسئلة. أراد التفكير أن هذا الجسد، على غرار مسيح مانتينيا، هو اللغز، أما تلك النفس الأخرى الغابرةُ الخفية الجميلة، فأشدّ غموضاً بسبب تعذّر الكلام عنها. *Mustes*[2]. رائيةٌ مغلقة الفم براقة العينين يدها على شفتيها.

١ Norn: واحدة من النسّاجات الثلاث، وأسماؤهن في الميثولوجيا النرويجية القروسطية هي الماضي والحاضر والمستقبل؛ كُنّ يُرْسَمن عادة كثلاث نساء جالسات بجانب ينبوع تحت شجرة العالم، وهنّ يغزلن المصائر المحتومة للبشر. آثرنا ترجمتها إلى "الساحرة"، استناداً إلى ما كتبه شكسبير في المشهد الأول من مكبث، حيث يظهرن كثلاث ساحرات يتنبأن للمحاربين بالمصير الذي ينتظرهم.

٢ المعنى الحرفي لهذه الكلمة اليونانية هو "مَن يبقي عينيه مغلقتين" أو "مَن يبقي فمه مغلقاً"، أي الشخص المتعامي أو الكتوم الذي لا يفشي سرّاً. للكلمة صلات واشتقاقات أخرى تفيد معاني الاحتفال السري والتمتمة والخرس وقِصر النظر.

صعد إلى سرير الفحص الفولاذي، وعلى الفراش الرقيق المغطّى بشرشف أبيض منشّى، متّبعاً تعليماتِ مدام لومير استدار على جانبه الأيمن، متكوّراً مثل مومياء من العصر النيوليثي[1]. بدأ المسّ الشرجي.

- سأحاول الرِّفق في الفحص. أخشى القول إنه أعجوبة. هذا هو نبع التأملات العظيمة، ألا توافقني؟ الألم في الأجزاء المتوارية من أنفسنا. أتساءل أحياناً إذا لم يكن ما أخفَتْه حوّاء عن الربّ هو مؤخرتها. المعرفة بالشرّ المطروح مع الفضلات. انتباجٌ ممضّ. لا بد أنه كان موجعاً كعذاب الجحيم.

سمعها تخلع القفاز عن يدِها التي جسَّتْ شرجه. أمامه، على الحائط، العديد من شهادات الدبلوم المؤطَّرة تصادق على مقدرات الدكتورة فِليسيتِه غودبو.

- أنا مدام لومير، على شرف زوجي، في الحفلات، أما في كل المناسبات الجدّية، فأنا الدكتورة غودبو، إن كنتم تتساءلون. هذا هو *nom de plume* [اسمي الأدبيّ المستعار]، إن أحببتُم. لا تتحرّكوا. علينا التعامل مع الموضوع بطريقة شديدة الصرامة. إلا إذا ارتأيتُم تركَها للمصادفة. أنا أؤيّد المشرط بالكامل.

هزّ رأسه، وأحس بغثيان يعتصر معدته.

- لن يؤلمكم هذا إلا قليلاً.

لم يرَها تملأ الحقنة، والآن فتح المعقّم دائرة باردة في انتفاخ بواسيره. ثم دخلت الإبرة. بدت كأنها تغوص، لاسعة كالجليد،

١ إشارة إلى الوضعية الجنينية لبعض المومياوات التي تعود إلى العصر الحجري الحديث.

مكملة نزولها إلى ساقه، ثاقبة عضلاته، وصولاً إلى قدميه. تقلُّص عنيف أصاب قوس قدمه اليمنى. تلوّى.

- لا تتحرّكوا، رجاء. الآن، مرة أخرى.

المرة تلو الأخرى نزلت به الإبرة، ولكن الألم كان يتخافت كل مرة. في النهاية، حلَّ الخدَر. أحسَّ بأن أفعال مدام لومير، أياً كان ما تفعله، تتمّ في عالم النعاس الضبابي. بغتة انتهى الأمر.

- حسناً، ها نحن ذا. كلُّه اختفى. اذهبْ إلى البيت الآن ونَمْ.

تلفّت حوله حذراً. كانت هناك على طبق من الفولاذ بضع أدوات كالمقصّات وقِطع من الشاش المنقوعة بالدم.

مدام لومير، الدكتورة غودبو، كانت تبتسم.

***

"لن تستطيعي تخويفه، كما تعلمين"، أجاب ماتيو.

كان يوم سبت، وكانا جالِسَين على السياج الخشبي خارج صالة ألعاب الفيديو. كانت الآلات وراءهما كطيور ميكانيكية تزقزق وتغرّد.

- تخويفَ من؟

كانت تحسد ماتيو أحياناً، فهو واحد من الأصدقاء القلائل الذين يعيشون فعلياً في بيرسِه طوال السنة.

"هو"، ونطق ماتيو الاسم بوضوح: "جوزي".

- جوزي مات.

- ذلك هو قصدي. إنهم يعودون. أرواح الغرقى.

لم ترغب آنا حتى في التفكير في الأمر. بدأت تبتعد بمشيها.

- انتظري. انظري، سوف أُريك.

على الطرف الشرقي من البلدة، كان الطريق يتشعّب إلى اثنين. أحد فرعيه يستمرّ بمحاذاة الشاطئ عالياً فوق الخلجان والشقق الصغيرة لعطلات نهاية الأسبوع. أما الآخر، فيشق مساره وسط التلال وينضمّ عندئذ إلى الطريق السريع الرئيسي جنوباً. وعلى مسافة ميل، عبر هذا الطريق الثاني، كانت تقع المقبرة القديمة. كانت آنا قد رأتها مرات عدة، عندما كان أبوها يمرّ أمامها بسيارته على طريقه إلى سانت تيريز، أو عندما كان يستقلُّ في بعض الأحيان ما كان يسمّيه "الطريق الرائع" إلى مدينة كيبيك. ذات يوم، كانت هناك كنيسة قائمة إلى جوارها، لكنها احترقت منذ شتاءات كثيرة خلت. كانت الأساسات الحجرية لا تزال مرئية مثل قشرة بيضة ضخمة متشقّقة، وقد تكسّرت حافاتها وتفحّمتْ. كانت القبور نفسها، المطوَّقة بسياج شبكيّ وحيد، موسومة بشواهد مطلية بالكلس. كانت معظم الأسماء على الأحجار قد امّحت.

استغرقهما الوصول إلى المقبرة حوالى نصف ساعة. أشار ماتيو إلى واحد من القبور.

- ذاك.

اجتازت آنا السياج الشبكي. كأن التراب كان قد قُلب منذ وقت قريب، والعشب الذي لا يزال ملتصقاً به يرقدُ مصْفَرّاً في الشمس.

- هناك دفنوا جان-لوك جينياك، منذ صيفين. انقلب القارب

واختفى. عندما عثروا عليه في مرسى بونافنتور، كانت النوارس قد نهشت وجهه بمناقيرها. جلبوه إلى هنا لأن والديه مدفونان هنا، وكان عليهم استصدار إذن خاصّ. كان هناك موكب جنازة، وحمل الأطفال من كنيسة Sacré-Cœur [القلب الأقدس] صلباناً من الأزهار وألقى الأب إيبير الكلمة على القبر. ولكن بعدئذ (هنا أخفض ماتيو صوته)، عندما كان أحدهم في زيارة إلى المقبرة بعد بضعة أيام، كان القبر منبوشاً والجثمان قد اختفى. قالت مدام هولمان فيما بعد إنها قد رأت وجه جينياك خارج نافذتها. وتُقْسِم أمي إنها سمعت جينياك يكلّمها ذات صباح باكر، في المطبخ.

نظرت آنا مرة أخرى إلى التراب المنبوش، ثم إلى النوارس المحلّقة في البعيد رواحاً ومجيئاً فوق جزيرة بونافنتور.

"كلا"، قالت.

– تقول أمي إن الغرقى لا يموتون. إنهم يصيرون أشباحاً. أشباحاً حقيقية. أشباحاً تستطيعين أن تريها.

– جوزي مات.

– جوزي غرق.

– هراءٌ ما تقوله أمّك.

فجأة، قفز ماتيو عن السياج واستدار ليواجه آنا.

– أمي على حقّ. أنتِ لستِ من هنا. أنتِ وأمك المجنونة وأبوك بأنفه المرفوع في الهواء. تظنين أنك تعرفين أكثر منا جميعاً. أنت لا تعرفين أي شيء.

حاولت آنا جاهدة كبح الدموع في عينيها.

عادا مشياً في صمت.

بدخولهما المدينة، حلّق طائر أطيش[1] واللطخة المغراء على رأسه تلتمع في الشعاعات الأخيرة للشمس، وحطّ على سياج حديدي. مرةً واثنتين رفرف بجناحيه المنتهيين بالسواد، ثم لبث جامداً ما عدا رأسه الذي التفت ليتابعهما وهما يعبران محدّقاً بعينين مستديرتين محفوفتين بالأزرق، بينما لاح الريش الداكن لجبهته كأنه يذوب ويسيل كالحبر في خطوط رقيقة حتى طرف منقاره.

***

لمّا فتحت آنا الباب، كانت ريبيكا عند طاولة المطبخ تقطّع السمك. من الخلف، كان شعرها الأسود الطويل يتمايل مع حركة ذراعها، فوقفت آنا، ناسيةً ماتيو، ساكنةً للحظات، مسمَّرة.

- أغلقي الباب. ستُدخلين البرغش.

جلست آنا على المقعد الطويل بجانب الطاولة. أخذت ريبيكا السمك وغمّسته بالطحين والأعشاب فتشرّبتْ من الفور نداوةَ اللحم الأبيض.

- ريبيكا.

- نعم.

- لم تخبريني أن عائلتك قد ماتت.

١ الأطيش الشمالي طائر بحري غطّاس يعيش شمال المحيط الأطلسي، وتقع أكبر مستعمراته في جزيرة بونافنتور.

كانت ريبيكا قد قطّعت الثومَ المعمّر[1] والبصلَ والثوم فنثرتها الآن فوق الزيت اللامع في المقلاة. تعالى النشيش بتساقطها. مسحت يديها بمنشفة صغيرة لتجفيف الأواني، وحرّكت المزيج بملعقة خشبية.

– هل حدث ذلك عندما كنتُ أعيش أيضاً في بوينس آيرس؟

الرائحة العريقة لقلي البصل ملأت المطبخ. ألقت ريبيكا السمك المغمَّس في المقلاة. حرّكته مرة أخرى، ثم جلست.

– من أخبركِ بذلك؟

– صديقك، صاحب اللحية الطويلة.

– ما كان عليه أن يخبرك.

– كيف ماتوا؟

– لقد قُتلوا.

– كلُّهم؟

– ابن أختي. أخواي. زوجة أخي. زوج أختي. أبي.

– وأمّك؟

– كلا. ماتت أمي عندما كنت صغيرة. منذ وقت بعيد.

– كم عمرك، ريبيكا؟

– إحدى وعشرون سنة.

سقطت الملعقة الخشبية على الأرض محدثة قرقعة. التقطتها آنا وناولتها ريبيكا. مسحتها ريبيكا بالمنشفة.

– مَن قتلهم؟

---

[1] نوع من الخضار الشبيهة بالبصل، يعود أول استخداماته في الطهو إلى الصين.

- البوليس.
- لماذا؟
- في بلادي، لا يحتاج البوليس إلى أسباب.
- وأنا كنتُ هناك؟
- كنتِ تعيشين هناك. نعم.
- ألهذا السبب أحضرك والداي إلى هنا؟
- نعم.
- هل تحبّين أمّي؟
- نعم. كثيراً.
- لأنك كنت تعرفينها عندما كانت مختلفة؟
- كنتُ أحبّها كثيراً في ذلك الوقت. وأحبّها كثيراً الآن. أمك طيبة جداً. لطيفة جداً. وذكية جداً، كذلك. حتى لو لم يكن[1] تتكلّم.

غمست ريبيكا الملعقة في المقلاة، وتذوّقت الطبخ بطرف لسانها. ملأت الرائحة منخرَي آنا.

- ريبيكا...
- ماذا؟
- هل سبق وأن غرق أحدٌ من عائلتك؟
- نعم.
- مَن؟
- أخي خورخي.

---

١ الخطأ مقصود.

- كيف غرق؟

انتظرتْ آنا.

- لقد أُغرِق.

- تقصدين أغرقه شخصٌ آخر؟

- نعم.

- من؟

- واحد من الرجال الذين كانوا يعملون لحساب البوليس.

- لماذا فعل ذلك؟

- لماذا أغرق خورخي؟ لأن خورخي لم يكن ليخبره شيئاً كان يرغب في معرفته. فأمسك رأسه وأبقاه في سطل ماء.

وضعت ريبيكا غطاء على المقلاة وجلست. بسطت جريدة أمامها. تناولت من سلة على الطاولة حبة بطاطا رمادية كبيرة وبدأت تقشيرها. وأثناء تساقط قشور البطاطا بأشكال حلزونية على الجريدة، تغيّر لون أصابع ريبيكا بعد تلطُّخها بالوحل.

- ريبيكا.

- نعم؟

- هل يعود خورخي أحياناً؟ هل ترينه؟

ازدادت حبات البطاطا بسرعة قياسية، وقد أمست جثامين صغيرة متّسخة على ورق الجريدة. كانت تدور بين أصابع ريبيكا، فتنحتُها السكين الحادة، هائمةً في رقصة وحشية صغيرة تعرّيها حتى يلوح لحمها.

- أحياناً. عندما أتذكّر.

- لا، قصدي واقعياً. هل يعود؟ هل صحيح أن الذين يغرقون لا يموتون؟

وقفت ريبيكا، لملمت حبات البطاطا بين ذراعيها واتجهت إلى المجلى لتغسلها. قالت وهي تضعها على النار لتغلي:

- لا تصدقي كل هذا الهراء يا طفلة. الموتى موتى، غرقى كانوا أم لا.

ثم أردفت:

- أما الذين لا ينعمون بالراحة، فهم أولئك الذين يقترفون الإغراق.

عندما أدارت آنا رأسها لتنظر من النافذة كانت الشمس قد غربت، وكان قمرٌ رمادي ضخم معلّقاً في السماء.

***

متكئاً إلى الوسائد في غرفة النوم الكبرى، كان بيرِنس يستمع، جرياً على عادته كل يوم سبت، إلى *Ein Deutsches Requiem* [قدّاس جنائزي ألماني] ليوهانس برامز. كانت ماريان تتنقل في صمت بين الغرف، تعيد ترتيب قطع من الأثاث، تصفّف الكتب والزينة، نافضة الغبار اللامرئي عن كلِّ سطحٍ تراه. كانت مثل وحش ضخم وأعمى يواصل بلطف حركاتهِ الروتينية التي نسي معناها وأفعالَهُ التي لم يبقَ لاستمرارها في الأعمِّ الأرجح أيُّ سبب. كانت تتحرك بخفّة، وللمفارقة كان جسدها الكبير يطفو في الفراغ وسط الأشياء بسهولة الأثير.

على مهل، انقادت الأوركسترا إلى الكلمات الأولى الناعمة المغنّاة ببطء: "طُوبى للمعذّبين". *Selig*. مبارَكٌ. مفعم حُزناً. *Leid*. عذابٌ،

ألم[١]. تعزّزَ اليقين. صدحت أصوات فردية بدت كأنها تسند الجوقة التي تعلو. تقدم الصوت الجهوري، الذي كان بعيداً في البداية، ترافقه في الخلفية الآلات الوتريّة. مرّ طيفُ لحن سعيد وتلاشى. اكتملتِ الجوقة بكلّ زخمها. فجأة حدث شيء ما، شيء لا حاجة إلى حدوثه في الموسيقا: اقتحامٌ، خلْق. تلوّنت الأصوات بهذه المعرفة الجديدة. آه، يا لجمالها، يا لجمالها! فكّر، فقط لو استطاع أن يرى، مثل برامز، إلى ذلك البعد، لما فاجأه أي شيء عندئذ. الخادرة. فالشرنقة. يا لسيرورة الأشياء! كل شيء سيصيرُ ما كان عليه من قبل.

ما عاد بيرِنس يتعذّب. اختفى الانتفاخ وارتاح من مضايقات الحركات المعوية. أنعسته المسكّنات، ولكنه بعد أسبوع من تناولها، بات يعرف كيف يستغلّ النعاس لمصلحته. فكر أنه سيستطيع أخيراً التغلب على أحلام يقظته.

والآن، الأوركسترا بكاملها هيّأت نفسها للحركة التالية. مهيمنةً سادتِ الفضاء الذي خلقته أصواتها، وراحت بصوتٍ صارم رخيم تعظُ حقيقتَها الساحقة. غنّت الجوقة عالياً أن الجسدَ كله عشبٌ، والجمال كلُّه كالزهور في العشب[٢]. "عشب سيذبل، وزهور سوف تموت. أي حنوّ في الرعب، أي وداعة"، فكّر بيرِنس ولم تكن تلك المرة الأولى التي تساوره فيها تلك الفكرة. آه، الجمال، الجمال! مَن قال إن برامز قد كتب "كأن الله يحبُّ الجمال"؟

---

١ الكاتب هنا يقلّب معاني أخرى محتملة للمفردتين الألمانيتين المذكورتين.

٢ العبارة تشير إلى ما ورد في الإصحاح الأربعين من سفر إشعياء، وفي رسالة بطرس الرسول الأولى: "كلّ جسدٍ كالعُشب، ومجدُ كلّ إنسان كزهر العشب".

من تحت جفنين نصف مطبقين، في غبش ورديّ، رأى ماريان، رأسها ملتفت باتجاهه. أحسّ أنه غوّاصٌ تحت الماء تراقبه عن بعد سمكةٌ فضية كبيرة. اقتربتْ منه. ربّتت يداها البضّتان الوسائد، سحبت الدثار الخفيف حتى ذقنه النابتة. كان قد تكاسل ليحلقها غداً. سيستحمّ - لا حمامات الملح الساخنة التي أوصَتْ بها مدام لومير- ويحلق ذقنه ويرتدي قميصاً أبيض. سيجلس في الحديقة تحت الشمس. ابتسم لماريان بامتنان. وما إن رأتْ ابتسامته، انسحبت.

استولى على بيرِنس شعورٌ بشيء يعرفه مسبقاً. راقبها تتحرك عارفاً بالضبط كيف ستتحرّك، كمَن يعيد قراءة صفحة انقطع عنها في كتاب مألوف.

كانت امرأة أخرى تتحرك كهذه، عيناها عليه، في غرفة معتمة، عنقها مرفوع نحو موسيقا أخرى.

كان بيرِنس شاباً، ضابطاً في أواخر عشريناته، يرافق مدام جورج بيدو، زوجة وزير الخارجية الفرنسي، خلال عملها الرسمي في إرشاد الشخصيات النسائية المهمة عبر باريس. كانوا قيد الانتظار في بهو فندق موريس، ومدام بيدو، مع كُرة من الفرو تزيّن حقيبتها، كانت قد طلبت من بيرِنس للتوّ أن يرى هل تلك الشخصية قادمة بالفعل، عندما انشقّ البابان المشبّكان للمصعد مثل ستائر مسرح وخرجت الشخصية في فستان أسود مرشوش بزهور حمراء قانية. كانت باهرة.

كان بيرِنس قد سمع عن مقارنة بيرون بموسوليني: كان يتوقّع

أن تكون له زوجة سليطة زريّة اللباس. أما إيفيتا، فكانت مثل دمية مقصوصة من مجلة للأزياء.

تلك الليلة، في مطعم آلكازار، جلست إيفيتا بثوبها البرّاق المذهَّب، الواسع وسعَ المائدة نفسها، مسيو ومدام بيدو إلى يسارها، السفير الأرجنتيني إلى يمينها. مع تأوّهات الـ *chanteuse* [المغنّية]، وبلغة فرنسية ذكّرت بيرِنس بالإسبانية في مسرح الفودفيل، كانت تتكلّم حول إرساليات هداياها إلى الفقراء على طول بلادها وعرضها.

قالت لمدام بيدو: "عاهرات الطبقة العليا في الأرجنتين لم يرغبن في أن أترأس مؤسساتهنّ الخيرية. قلن إنني لا أزال شابة صغيرة. أخبرتهنّ، حسناً، إذا لم يستطعن القبول بي، فعليهنّ تعيين أمّي".

ضحكت مدام بيدو بأدب.

المغنّية غادرت المنصّة وأعلن عريف الحفل فاصلاً كوميدياً. ظهر مهرّجان متنكّران كجَمل وهما يرقصان رقصاً إيقاعياً على نقرات بيانو. صفّقتْ إيفيتا. انتهت الرقصة فاتّجه الجَمل صوب الطاولة الرسمية مستخرجاً من قسمه الخلفي باقةَ أزهار قدّمها لضيفة الشرف.

وقفتْ إيفيتا، وأنهضتْ معها السفير ووزير الخارجية كليهما.

"أعتقد أن لديّ الآن فهمٌ أوضح للثقافة الفرنسية"، قالت بالإسبانية.

ترجمَ السفيرُ ما قالَتْه.

"يجب أن تفتخروا بإنجازاتكم"، أضافت مع انحناءة تقدير.

وأدارت عنقها بالضبط مثلما كانت ماريان تدير عنقها الآن. راقبها

بإعجاب، باحترام.

فكّر آنذاك أنه قد يحبُّ امرأة تشبهها.

كانت ماريان تتحرك صوب الباب.

عادت إليه الموسيقا.

كان الموضوع قد اتّسع. تحوّلت الوداعة إلى قوّة، غضب الحَمَل. سينقضي الزمان، ولن ينقضي النصر، لأن كل شيء زائل. خلود الذاكرة، القطرة التي تهدُّ الجبل. الزمان وهم.

الأوركسترا استدعت الطبول، ضجّت الغرفة بالوعيد. لقد انتهى المستقبل[1].

ثم، بغتة، الصمت.

– بالتأكيد، لا تصحّ هذه الموسيقا الصاخبة في غرف المرضى.

مسيو كليف أوقف المسجّلة. رفع بيرِنس نفسه عن الوسائد قليلاً.

غادرت ماريان الغرفة.

– كليف، أنت معتاد كثيراً إعطاء الأوامر.

– كيف إحساسنا؟

– كان إحساسنا رائعاً حتى ما قبل بضع ثوانٍ.

– أنا آسف.

استطلع مسيو كليف الغرفة.

---

١ في السطور الثلاثة الأخيرة تداعياتٌ وتأملات حول كلمات قدّاس برامز الجنائزي، وحول اقتباسات من رؤيا يوحنا (حين يستغيث الناس بالجبال والصخور: "اسقطي علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف، لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم"، وبالطبع الخروف أو الحمَل هنا هو المسيح، والنصر دلالة عليه، وبغضبه ينتهي المستقبل يوم القيامة)، إضافة إلى خلود الذاكرة ووهم الزمان لدى بورخيس.

- توفّر لك ماريان الراحةَ بكلِ تأكيد. إنها تبدو... على نحوٍ ما، أهدأ مما كانت عليه في مدينة كيبيك. أكثر سلاماً، أليس بلى؟ هواء الريف، على ما أعتقد.

لم يعلّق بيرِنس بأي جواب.

استمرّ مسيو كليف.

- أنطوان، اسمعني. ثمة أشياء يجب أن أفعلها. أحدها مصارحتك.

جلس مسيو كليف على السرير. بشيء من النفور، لاحظ بيرِنس أن هناك بقعة زيت في منتصف ربطة عنق مسيو كليف الحمراء بلون الصدأ. حاول ألا ينظر إليها.

- أنطوان، ينبغي أن نتحدّث.

"كلا، لا ينبغي أن نتحدّث. علينا إسدال الستائر لنكتم الأصوات البغيضة. علينا العيش في الحاضر. لا يمكنني فعل أي شيء من أجلك، يا كليف العجوز، يا كليف الوفيّ"، فكّر بيرِنس. ثم قال بصوتٍ عالٍ:

- ليس الآن. رجاء. أنا متعَب.

استمرّ الصوت اللحوح لمسيو كليف.

- ما كنتُ لأسألك لو لم أكن بحاجة إلى معونتك. لكن هذه مهمة صعبة، أنطوان، وعليّ النجاح فيها. وأنت أدرى بالمنطقة، وأدرى بأهلها. وترى ما هو خارج عن سياق المألوف. لديك الخبرة. عندما أخبرتك أنّهم قد أرسلوني إلى بيرسِه طلبت مني وألححتَ على بقائي معك. وفكّرتُ، مهمتي تخصّ سياسة أميركا اللاتينية، وأنطوان سيساعدني. كم أنا محظوظ بمعرفتي أنطوان، وبأنني صديقه!

أغمض بيرِنس عينيه، لتعتم الغرفة أمام هذا الانتهاك، وأسرَّ لنفسه:

"لن أسترجع الماضي، ولا حتى كرمى للصداقة. كليف العزيز، لا أستطيع مساعدتك. أنطوانك العليم غارق في بحرٍ أسود كالحبر؛ رميتُ به هناك ليجد بعض السكينة. شغلك اللعين شأنك أنت. أنا انزويتُ. لا أتذكر شيئاً. اتركني في سلام".

لا بد أنه قد قال الكلمات القليلة الأخيرة بصوتٍ مسموع، لأن صوت مسيو كليف بدا على نحو مضحك مشارفاً على البكاء.

– أنطوان، إن لم تكن ترغب فيّ هنا، فبمقدوري الإقامة في النزل.

– أنت على الرحب والسعة هنا بالطبع. سنتكلّم. خلال بضعة أيام.

أمسك مسيو كليف بيد بيرِنس اليمنى الطويلة الرقيقة في يده، اعتصرها ونهض. قبل المغادرة، أعاد تشغيل المسجّلة من جديد. والآن، بيقين تامّ، كانت الجوقة تصرّ مرة أخرى على أن الجسد كلّه عشب.

***

الثلاثاء، يوم عطلتها، اقترحت ريبيكا على آنا نزهة إلى بونافنتور. وأضافت: "لكن اسألي أمك".

كانت ماريان جالسة على مقعد الحديقة، ولا تفعل شيئاً، على ما بدا لآنا. ولما سألتْها آنا عن النزهة، هزّت ماريان رأسها وابتسمت، ثم فعلت شيئاً غير معهود. مدّت ذراعها البضة وذات الطيّات لتبلغ يد آنا. تركتها آنا تأخذ يدها، وللحظة لبثت الأمُّ والابنة ساكنتين،

إحداهما جالسة، والأخرى واقفة.

"انتبهي إلى نفسك"، قالت ماريان، متريّثةً في نطق الكلمات.

أفزع الصوت آنا ولبثت للحظات قبل أن تجيب.

"سأنتبه، ماما"، ثم انحنت عليها وعانقتها.

تهادى القارب الصغير متأرجحاً باتجاه بونافنتور وآنا تتابع طيران الطيور التي تحلّق فوقهم. "هناك، وسط النوارس، تلك التي فقأت عيني جينياك"، فكّرت.

طاف القارب في دائرة واسعة حول الجزيرة ثم رسا على جانبها الشمالي. كانت الشاخصات ترشد السيّاح إلى الطرق المناسبة، ولكن ريبيكا تجاهلتها ومشت لتسلك الطريق الذي يحيط بجزيرة بونافنتور شرقاً. بلغتا واحداً من أكواخ الصيادين المهجورة القائمة وسط العشب العالي، وتوقفتا لتنظرا داخله. كان الخشب مهترئاً ورمادياً، ونصف السقف قد انهار في الغرفة الخلفية التي كانت على الأغلب مخصّصة للنوم. ولما خرجتا، كان خوان واقفاً في الخارج.

"أليس هذا حلواً؟"، سألتها ريبيكا. "قرّر خوان القدوم أيضاً. *¿Qué suerte?* [أيّ حظّ]، آه؟"

"لا أصدّقك"، قالت آنا بفظاظة.

– ماذا تقصدين؟

– كنتِ تعرفين أنه سيكون هنا. لذلك أردتِ أن تأتي.

التفتت ريبيكا إلى خوان وقالت شيئاً بالإسبانية على عجل.

– حسناً. هناك في الخلف. سنجلس ونتكلّم.

كانت هناك شجرة قد سقطت على مبعدة بضعة أقدام من البيت، فغطّتها الطحالب بتطاريز بالغة النعومة. جلسا إلى جوارها، وقرفص خوان محدودباً.

– آنا، أخبرتك عن ريبيكا. تذكرين؟

– نعم.

– الشيء نفسه معنا.

– ماذا تقصد؟

– نحن جميعاً فقدنا أهلَنا في الأرجنتين. أنا وتوليو. وآخرون كثيرون ما التقيتهم.

– ألذلك أنتم معاً؟

– نعم.

– لكن لماذا لا تريدون لأحد أن يعرف؟

– لأن أصدقاءَ أولئك الذين قتلوا أهلَنا يريدون إيقافنا.

– هنا؟

– نعم.

قالت ريبيكا شيئاً بالإسبانية، فأجابها خوان، ثم قال لآنا:

– أخبرتْكِ ريبيكا أن رجلاً قد أغرق أخاها. صحيح؟

– نعم.

– كان ذلك الرجل مسؤولاً عن أشياء كثيرة. أشياء حدثت لشقيق توليو. ولأصدقاء لي. ولِيَ أنا.

مدّت ريبيكا يدها كأنما لإيقاف حركة خوان. غاضباً ردَّ عليها بالإسبانية. ثم رفع كمَّ قميصه الأزرق. وأثناء طيّه طرفَ الكمّ، رأت

آنا خطّاً أفعوانياً يتعرّج على ذراعه، أرجوانياً وطرفاه منقّطان كثقوب السُّيور. كانت تعرف أنه ليس وريداً، فأقسامه ترتسمُ بوضوحٍ بالغ، وتتقطّع بدقة متناهية في زوايا متساوية.

- تريد العثور على الرجل.

أنزل خوان كمَّه.

- تفهمين الآن. أليس بلى؟

هزّت آنا رأسها.

لاحظتْ أن رتلاً طويلاً من النمل كان يتسلّق الآن واحداً من غصون الشجرة، ويسير على مهل في ثنايا الطحالب وانحناءاتها الباروكية المعقَّدة منذراً بالاقتراب الوشيك من مقبض سلة الطعام إلى جوار ريبيكا.

- لو وجدناه، أنا وتوليو وريبيكا، فسوف نرى عقوبته. ثم سننصرف. مع ذلك، يجب ألا تقولي أي شيء.

- هل ستغادر ريبيكا حينئذ؟

- نعم.

التفتت آنا إلى ريبيكا:

- سأشتاق إليك.

- سأشتاق إليك أيضاً. هل لا تزالين غاضبة؟

- كلّا.

- إذن دعونا نتغدّى.

مدت ريبيكا يدها جانبياً، وضعت السلّة أمامها وفتحت الغطاء.

- آنا، هل توافقين أن ينضمّ خوان إلينا؟

– نعم.
لم تكن هناك نملة واحدة قد تسلّلت إلى السلّة.

***

نقر أنطوان بيرِنس بشوكته على السكين التي كان مسيو كليف ممسكاً بها:

– يدك. لم تتعلمْ بعدُ آدابَ المائدة في أميركا الشمالية. لا تزال بربرياً من بلاد الغال، تتأهب للانقضاض على ما في صحنك كأنه شيء للقتل. تمسك بالسكين في يد، وبالشوكة في الأخرى، منتظراً الهجوم. تعلَّمْ من الأرض التي تعيش فيها. هنا، في العالم الجديد، بينما يدك اليمنى تنقر بلطف على الطعام، فإن يدك اليسرى، بالطريقة المسيحية الحقة، تبقى في حِجرك، خافيةً عن العالم. عندما تؤدّي غايتها، تتخلى عن سلاحها وتتقاعد عن الكفاح. راقبْ، عزيزي كليف، وتعلّم. ثمة درسٌ.

– هل تقصد أن عليّ التقاعد أيضاً، والاستسلام؟

– ليس لأحد غيرك أن يحكم بذلك.

– أنت لا تصدّقُ ما كنتُ أقوله لك.

بينهما، على غطاء المائدة الأبيض في مطعم غارغانتوا، إناء متطاول ملآن بمحارات وردية صغيرة، *les bigorneaux*، كلٌ منها محزّزة بخطوط بنفسجية بديعة كبصمات الأصابع. على حافة الإناء، اتّكأ دبوسان لامعان. وضع بيرِنس شوكته، أزاح جانباً فطيرة

الكُنيل *quenelle* نصف المأكولة في صحنه، أخذ أحد الدبوسين في يده اليمنى و*bigorneau* [محارة] في يسراه، وبدأ باستخراج الحيوان من قوقعته الرقيقة. تململ على كرسيه، إذ كان لا يزال يشعر بقليل من الانزعاج إثر العملية.

– تقول لي إن مجموعة من الأرجنتينيين قد وصلت إلى كيبيك بحثاً عن رجل. تعتقد أن الرجل الذي يبحثون عنه موجود في بيرسِه. تعتقد أن ريبيكا، التي استقدمناها إلى هنا من بوينس آيرس، متورّطة في أنشطتهم. تعتقد أنهم عما قريب سيقدمون على شيء ما بحقِّ شخصٍ ما. هل أصبتُ؟

– نعم.

مسرعاً في تدوير الدبوس، انتزع الجسد الضئيل ووضعه في فمه. "هل كنا سنأكلها لو علمنا أنها ستشعر بالألم؟"، تساءل في سرّه، ساهماً. *Miserere nobis*[1].

"كليف، كليف"، قال وهو يمسحُ زاوية فمه بمنديله، "هل الـ Sûreté [الأمن] حقاً عديم الكفاءة إلى هذا الحد، وتنقصه المعلومات إلى هذا الحد؟ لقد عشتُ في الأرجنتين، كليف. كان العسكر ثلّة من الجهلة الخُرق، ولكنّ المقاتلين ضدهم في حرب العصابات كانوا مثلهم. مجنَّدون من المدارس الثانوية، يا كليف، يحاربون ضد فلاحين يعتنقون مُثُل الطبقة العليا. جيوش صغيرة من الأشبال ضد حمقى قرويين بلباس عسكري موحَّد. هؤلاء ليسوا FLN[2]،

١ تعني هذه العبارة اللاتينية "ارحمنا"، وترد في الترتيلة الكنسية: "يا حَمَل الله".

٢ Front de Libération Nationale: "جبهة التحرير الوطني" الجزائرية، وهي

وأولئك ليسوا OAS[1]. "طريدتك" آمنة، كليف. guerrilleros [رجال العصابات] هؤلاء قادرون على القتل، صحيح، ولكن الأصحّ أنهم سيفجّرون رؤوسهم قبل أن ينجحوا في انتقام على هذه الدرجة من التعقيد. وبالتأكيد ليست ريبيكا واحدة منهم. لك أن تُطمئن خاصّتك بيل لكيلا يقلق".

– بيل؟

– أليس هو مَن كنتَ تفكر أنه المستهدَف؟ استفاضت مدام ميشو في شرح "خبرته الأرجنتينية".

– ربما. لا ندري.

رفعت النادلة أطباق الـ bigorneaux [المحار] وفطائر الكُنيل، ووضعت بينهما صينية ضخمة من أرجل السلطعونات.

"ما كانت خضراء الأوراق، بل دكناء بلون الغروب"، اقتبس بيرِنس من الذاكرة. كانت محفورةُ غوستاف دُوريه للحلقة السابعة من "الجحيم"، القتَلة متحوِّلين إلى غابة مظلمة، "ملتفّة الأغصان عَقْداء الفروع، لا فاكهة فيها وإنما شوكٌ بالسمِّ امتلأ"، ووسطها

حزب اشتراكي مثّل الجناح السياسي لـ"جيش التحرير الوطني" خلال الثورة الجزائرية (١٩٥٤– ١٩٦٢).

١ L'Organisation de l'Armée Secrète: "منظمة الجيش السري"، وهي منظمة إرهابية فرنسية تأسست رسمياً في مدريد في شباط/ فبراير ١٩٦١ بعد دعوة الجنرال شارل ديغول "جبهةَ التحرير الوطني" إلى التفاوض على استقلال الجزائر. كان شعار هذه المنظمة هو "الجزائر فرنسية وستبقى فرنسية"، وقد سعت إلى الإطاحة بنظام ديغول، وارتكبت الكثير من جرائم القتل، وحاولت اغتيال ديغول وجان بول سارتر وآخرين، إضافة إلى تنفيذ العديد من التفجيرات وأعمال الترهيب والتخريب في فرنسا والجزائر.

يتراكض المنتحرون تطاردهم كلاب سود. هل كانت أفرُعُ السلطعون هذه ستنزف لو كسرها؟ "مِن الغصون المقطوعة تنبجسُ الكلماتُ والدمُ معاً". قصف غصناً. هَل كانت هذه العظام ستتكلم؟ بزغت من حجرتها المحصَّنة شوكةٌ طويلة وردية رفيعة[1].

لم يكن مسيو كليف يأكل.

– بيل يذكّرني بلونوار، هل تتذكّره؟ نحيل ولكنه متين العضل، أصيب بالتهاب الكبد من إبرة وشم. أليس كذلك؟

– لقد طلبتُ ملفَّه.

– لقد كبُرتَ يا كليف، كبُرتَ، كبرت. المزاج الوحيد المتبقّي في حديثك هو فعل الأمر. وما عدتَ تأكل إلا القليل.

تناول بيرِنس عدداً من أرجل السلطعونات وكوّمها على صحن مسيو كليف.

– كليف، كليف! في الجزائر ما كانت ليلة تمرّ إلا وكانت الموائد قد فرغت قبل أن ننهي الحديث. أين هو كليف الذي كنتُ أعرفه آنذاك؟ ذات مرة شرحتَ لي مرور الزمن، وقلتَ لي إنك لا تؤمن بوجود الحاضر. نحن لا نرى إلا ما كان، نور نجوم انطفأتْ منذ وقت بعيد؛ قلتَ إننا لا نتمكّن أبداً من اللحاق باليوم. ثم قلتَ، لن نعرف بحدوث الموت عندما نموت. كنتَ فيلسوفاً، كليف.

---

١ هذه الفقرة مستلهمة من **الكوميديا الإلهية**. في الأنشودة الثالثة عشرة من "الجحيم"، يصف دانتي الحلقة السابعة من الدائرة الثانية في الجحيم الذي تخيّله، وفيها المنتحرون ممسوخون إلى أشجار ناطقة تنوح في غابة من الشجر اليابس القاسي؛ حين ينتزع دانتي غصناً صغيراً ليعرف السرّ، يصرخ جذع الشجرة ويسيل من الغصن المقطوع الدم والكلمات معاً. المبذّرون هنا هم الذين تمزّقهم إناثُ الكلاب.

مزّق مسيو كليف قطعة خبز ووضعها في فمه. ألقى نظرة خاطفة على أرجل السلطعونات الميتة.

- هل تسخر مني؟

- أسخر؟

- ألم تتغيّر أيضاً؟

سكب بيرِنس لمسيو كليف مزيداً من النبيذ. الدم الثرثار العزيز.

- لم أتغيّر، كليف. لقد استقررت.

- تقول ذلك كأنما لتستبعدني.

- كليف، أنت مرحَّبٌ بك للبقاء في بيتي قدْر ما تحبّ. لكنني متقاعد. فليعكفْ كلٌّ منا على القرارات التي اتّخذها. لقد طُلبَتْ منك المطاردة. أنا اخترتُ القراءة، الاستماعَ إلى الموسيقا، شربَ النبيذ مع أصدقائي. أفنيتُ بالقراءة حياتي، كما قال أحدهم. لن أطلب منك الجلوس مع كتاب في البيت.

بابتسامةٍ صغيرة غضّنتْ زوايا فمه وعينيه، رفع بيرِنس كأسه إلى شفتيه.

"جميل"، ردّ كليف مبتسماً بدوره. "لكلٍّ شأنُه. لن أزعجك مرة أخرى. سأواصل مطاردتي، ولك أن تدفن نفسك في مكتبتك".

ووقف مسيو كليف، وبيديه الرقيقتين المنمَّشتين، رفع صحنه بما فيه من أرجل سلطعونات لم تُمَسّ وقذف بها في حضن بيرِنس.

فوجئ جُلساء عديدون فالتفتوا ليتفرّجوا على شجار بين رجلين محترمين مسنَّين.

- فإذن، لن آخذ أي شيء لك، أنطوان. انسَ الوقت الذي

تقاسمناه. انسَ الصداقة التي كانت بيننا. وثقتُ بك. كنتُ فخوراً بماضينا. ولكنك مثل فظٍّ[1] عجوزٍ أعمى، تُوتِّرُ وكرَك وتسحقُ كلَّ شيء في طريقك!

بغتة أدرك مسيو كليف أنه يصيح، وأن مدير المطعم يُهرع نحوهما.

جلس.

"أنا آسف. أرجوك سامحني. ربما شربتُ الكثير من النبيذ"، قال.

نظَّف بيرِنس حضنه من الطعام بحرص كيلا يتقطّر السائل داخل أرجل السلطعونات على بنطلونه، ومدّ يده فوق الطاولة ليربّت ذراع مسيو كليف.

"الأمور على ما يرام"، قال لمدير المطعم.

ومن ثم، قال لمسيو كليف:

- نحن صديقان. طبعاً نحن صديقان. إلى أبد الآبدين. أولئك الذين يطبقون العنف على الآخرين، مثل رجال البوليس، وأولئك الذين يطبقون العنف على أنفسهم، الرجال الذين يدفنون أنفسهم أحياء بين الكتب، مثلي أنا، يتقاسمون الحلقة نفسها في الجحيم، هل كنتَ تعرف ذلك؟ ستتحوّل إلى شجرة عَقْداء، تنوحُ وتلفظ دماً، وأنا ستطاردني كلبات دِرْواس[2] سوداء فوق جذورِكَ الموجوعة. سنكون معاً يا صديقي.

---

١ المقصود به حيوان الفظّ الضخم، وهو من الثدييات البحرية ويعيش في المحيط المتجمد الشمالي.

٢ نوع من كلاب الحراسة الضخمة.

تنحنح مدير مطعم غارغانتوا وجلس، ثم سألهما بلكنة نورماندية ثقيلة هل استمتعا بالوجبة، وهو يستخرج قلم رصاص ودفتراً ليجهّز فاتورتهما، كأن شيئاً لم يحدث.

***

أمطرت خلال الأيام القليلة التالية. لازمت آنا غرفتها تلعب وحدها. بدا الكبار أهدأ على نحوٍ ما، وكانت آنا تستيقظ كل صباح على إحساس مطمئن من الصمت والدفء، وكانت تنام كل ليلة على صوت المطر.

وذات صباح، في وقت مبكر جداً، كانت قد نزلت لتتفرّج على المطر من نوافذ غرفة الطعام، فرأت أباها واقفاً بالبيجامة ينظر إلى البحر.

ناداها إليه، ولبعض الوقت وقفا معاً متفرجين على الألوان الرمادية يضرّجها الضوء ويمزّقها، فتلوح السماء وراءها عبر تلك الثغرات.

"أمُّ ريبيكا قالت لها إن لدى الله ثلاثة مفاتيح: مفتاح الحياة ومفتاح الموت ومفتاح المطر"، قالت آنا.

"إن كنتِ تؤمنين بالله"، قال بيرِنس.

"هل تؤمن به؟" سألت آنا.

– ذات مرة، تملّكتْ فكرةُ الله شخصاً أعرفه حتى أفْنَتْهُ نارُها. أحرقته، بالكامل، حتى لم يبقَ منه شيء إلا الرماد.

– هل رأيتَ ذلك يحدث؟

– رأيتُ الرماد. آخرون كانوا يعرفونه قالوا إن هذه المعجزة كانت دليلاً على قداسته. ولكنني لا أعتقد ذلك. لستِ بحاجة إلى برهنة وجود الله لكي تحبّيه. إذا كان هذا المنظر في الخارج حلماً، فهل سيقلُّ حبُّك له؟

تأملتْ آنا هذه الفكرة للحظات.

"ربما، إذا عرفتُ أنه حلم"، أجابت.

***

قبل أسبوع من بداية المدرسة ورحلة الرجوع المرهِقة إلى مدينة كيبيك، طلبت آنا من ريبيكا أن تعلّمها صلاة الرب بالإسبانية. وفي يوم الأحد، كانت آنا قد حفظتها وكانت مستعدّة لترديدها في الكنيسة.

قرّر بيرِنس أنهم سيذهبون إلى سانت آن مشياً. كان يتوقّع أن جرحه قد شُفي الآن، ومع ذلك كان إحساس بالنخز أو الشدّ يذكّره بحضور المرض أحياناً. قال لنفسه إن الراحة لن تُعينَه. عليه بالرياضة. ذهب ليُحضِر وشاح ماريان، ألقى معطفه المطريّ على كتفيه، وأمسك بيد آنا. تمسّكت ماريان بذراع ريبيكا، وساروا ببطء، في وقار مضحك، على الطريق الصاعد نحو الكنيسة الصغيرة.

فكّر بيرِنس: "ها نحن ذا، إبهاجاً لأبناء الرعيّة، في واحدة من الصور النموذجية للحضارة. العائلة، على طريقها إلى الكنيسة. Art

pompier [الفن المبهرج[1]]. ضعوا حولنا إطاراً مذهّباً".

ولما جلسوا على مقاعدهم، لحظت آنا السيدة دانكلماير وراءهم ببضعة صفوف. أمالت السيدة دانكلماير رأسها قليلاً وابتسمت. أغضَتْ آنا.

"لا يمكن أن تكون قد نسيتْ، هل تستطيع النسيان؟ كيف تجرؤ على الابتسام؟"، سألت آنا نفسها.

لو نظرت إلى الوراء عالياً فوق المدخل، لاستطاعت أن ترى لوحة كبيرة للقديسة آن، الأمّ، تقود ابن العذراء إلى المعبد. "تكرّس طفلها لله، تعيد الطفل الذي حبلت به بلا دنس إلى بارئه"، كما أخبرهم أستاذها. "في كل ولادة، تقف القديسة آن حارسة"، قال أستاذها. إنها شفيعتها، حارسة البدايات.

ولما نهض الأب كينان ليقرأ الموعظة، لاحظ بيرِنس أن الأب إيبير واقف عند المذبح. لكز ماريان وأومأ برأسه. نظرت إليه وتبعت إيماءته، ثم نظرت إليه ثانية، مستفسرة.

– الأب إيبير، هل تذكرين؟

هزّت رأسها.

بدأ الأب كينان نصّه.

– **إنجيل متّى**، الإصحاح ١٨، الآيتان ٢١ و٢٢. هذه هي كلمة الرب. "حينئذ تقدّم إليه بطرس، وقال: يا ربّ، كم مرة يخطئ إليّ

١ أطلقت هذه التسمية الفرنسية الساخرة على الفن الأكاديمي نهاية القرن التاسع عشر، ولاسيما اللوحات التي عالجت أحداثاً تاريخية كبرى وأساطير. تعود التسمية إلى الخوذ التي كان رجال الإطفاء الفرنسيون يرتدونها آنذاك، وكانت على شبه شديد بالخوذ المرسومة لفرسان نابليون.

أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبعَ مرات"[١]. هذه هي كلمة الرب. آمين.

ردّد المصلون "آمين".

واصل الأب كينان.

– سبعين مرة سبعَ مرات. أربع مئة وتسعين مرة علينا بالصفح عن أخينا، أختنا، جارنا، الرجل الذي يرفع سبّابته في وجهنا، المرأة التي تتكلم بالسوء عنا. أربع مئة وتسعين مرة، يقول المسيح ربُّنا. ولكن ماذا عن المرة الحادية والتسعين بعد الأربعمئة؟ ماذا عن المرّة عند بلوغ القدر المطلوب من الغفران؟ متى يبدو لنا أن المسيح نفسه قد كفّ عن القول لنا بالصفح عن الخطيئة المقترفة ضدنا؟ ماذا بعدئذ؟

توقّف الأب كينان وأطال وقفته.

– هل يجوز لنا عندئذ الأخذ بثأرنا؟ هل يجوز لنا عندئذ انعدام الرأفة؟

وقفةٌ أخرى.

– كما نعامل الآخرين يعاملنا الربّ. مقابل كلّ ذرة رمل نضعها في الميزان سيرمي بحجرٍ إلى الكفّة الأخرى. مقابل كل ذبابة سيطالب بابن أو ابنة. مقابل كل مرة نغلق فيها الباب في وجه جارنا سيرفع أمامنا غابة من نار ويشقّ نهراً من جليد. لأنه – وهنا خفت صوت

١ اعتمدنا هنا ترجمة البستاني- فان دايك العربية للكتاب المقدس بعيداً عن الملاحظات المحتملة حول الركاكة المقصودة في صياغتها.

الأب كينان حتى أوشك يهمس - هو وحده، وليس نحن، مَن بيده الانتقام. لنصلِّ.

تأهّبتِ الجوقة للترنيمة، سعل من منشديها واحدٌ أو اثنان، أطلق الأورغن أولى نغماته.

***

بعد الغداء، ذهب بيرِنس إلى مكتبته، وجلس والقطة البرتقالية في حضنه. ما كان ليذهب ويغفو في قيلولته قبل الساعة الثانية حتى لو كان يشعر بالنعاس. كان يستمتع بفكرة الحفاظ على روتين معين. كانت السيدة دانكلماير التي تلكأت في مشيها البطيء لتحيّيهم فصافحت بيرِنس وقبّلت ماريان على خدّيها، قد أخبرتهم بأنها قد رأت ريبيكا تغادر قبل بضع دقائق من انتهاء القدّاس. طلب بيرِنس بتهذيب من السيدة دانكلماير أن تزورهم، فأجابت: "لعلّ وعسى، ولكنني أكره فرض نفسي عليكم"، وعندئذ وضعت ماريان يدها على ذراعه اليسرى، وأمسكت آنا بذراعه اليمنى، ومرة أخرى أصبحت عائلة بيرِنس لوحة حيّة محطّ إعجاب الجميع.

والآن، في غرفته، كان بيرِنس يشعر بنعاس شديد إلى حد منعه من القراءة، ويشعر بكسل كبير منعه من تشغيل المسجّلة. كان خيّاله *Ritter*، متجمّداً في خطوه بين الشيطان والموت، قد استحوذ على نظره للحظة مديدة. "هذه هي الصورة التي أرغب في رؤيتها عندما أموت"، فكّر. أحس بجفنيه يثقلان أكثر فأكثر. وأخيراً، وضع القطّة

على الأرض وصعد إلى غرفة النوم.

كانت ماريان مستلقية على السرير وعيناها مغمضتان. كانت قد خلعت حذاءها فحسب. كانت قدماها الكبيرتان في جوربيهما تستلقيان كحيوانين أجردين على اللحاف الأزرق المحشوّ بريش العيدر[1]. كان صدرها يعلو ويتنهّد وتندُّ عن فمها، المفتوحِ قليلاً، همهماتٌ وأنّاتٌ صغيرة. كانت قد تركت شعرها محلولاً خارج غطائه الشبكيّ فتناثر على الوسادة.

استلقى بجانبها. تذكّر كم أحبَّ - منذ سنين كثيرة خلت - انحناءةَ عنقها، الغمازةَ الخفيفة وراء أذنها، غزارة شعرها. انقلب على جانبه، باتجاهها.

لفّ ذراعه حول صدرها، وترك أصابعه تتسلّق الجانب البعيد من وجهها وصولاً إلى شحمة أذنها. كشّرت ماريان في نومها. اتكأ على مرفقه وانحنى ليقبّلها، بنعومة بالغة.

فتحتْ عينيها.

كان فستانها مصنوعاً من قطنٍ فاتحِ الزرقة وكان مزرَّراً من الأمام بصف طويل من الأزرار. راح يحلّها، بادئاً بالأعلى. وعند بلوغه الزرَّ الأسفل، سقط الثوب فاتحُ الزرقة متراخياً على جانبي جسدها.

تحسّس ما تحتها، بين الفستان وجلد ظهرها، ليحلَّ إبزيم حمّالة صدرها. باذلاً جهده لكيلا يوجعها، تمكّن من دسّ يده تحتها وبلوغ الإبزيم. انفكّ. رفع الحمّالة فتدلّى ثدياها على الجانبين.

على ركبتيه، راح يحبو حتى قدميها، ونزع جوربيها الواحد بعد

---

١ صنف من البط المهدَّد بالانقراض يعيش بالقرب من مياه البحار شمالي الأرض.

الآخر. لاحظ الأوردةَ الطويلة التي تتعرّج في فخذيها كعروقِ الرخام. صعدت يده إلى سروالها الداخلي وشدّ خصره المطاطي. ولما انتهى من خلعه، كان مبهور الأنفاس. أحسَّ بألم صغير تحت ضلوعه. توقّف.

تذكّرها حينذاك، وفكّر أن ماريان الآن أجمل. رقّق العمرُ تقاطيعها، أرخى عضلاتِ ذراعيها، مخدِّداً الجلدَ حول خصرها، مغطّياً ساقيها ببقع داكنة مثل مجرّات كامدة. كان شعرها لا يزال أسود ما عدا بضع لطخاتٍ بيضاء على صدغيها، لكن الوجه الذي يؤطّره هذا الشعر قد انتفخ وشحب مثل شيء تُرك في الماء طويلاً. "أذواه الطقس"، فكّر. وقبّلها مرة أخرى.

ندّت عنها همهمةٌ صغيرة وأدارت رأسها. لكن جسدها ظلّ على ظهره، الفستان مثل عباءة مفتوحة لا تمسك بها إلا ذراعاها وكتفاها.

نزل من السرير وخلع ملابسه، مراقباً إياها. ثم صعد مرة أخرى، بجانبها، يمرّر يده فوقها بانتباه كبير بحيث لا يلامس بشرتها إلا بسطح أصابعه. تقرّت يده تضاريسها، صعوداً، نزولاً، جانبياً، وتذكّر أكثر. وفي النهاية، بهدوء شديد، محاولاً ضبط الوزيز في رئتيه، رفع نفسه فوقها، ليلجها بألطف ما يمكن، دافناً وجهه في شعرها، راهزاً، محاولاً ألا ينيخ عليها بكامل ثقله، حتى ما عاد قادراً على إمساك نفسه عن الإنزال.

عندما رفع بيرِنس نظره من جديد، كانت عينا زوجته لا تزالان تراقبانه، ولكنها لم تقل شيئاً. فكّر أنها مستلقية هناك، وكأن ممارسة

الحب قد حدثت لشخص آخر، في مملكة بعيدة، منذ وقت طويل مضى.

***

"إذا كان عدد الألواح على طول الأرضية زوجياً، فسوف تعود ريبيكا. سأستيقظ صباح غد وستكون هناك، تعدُّ الفطور في المطبخ، تفوح منها رائحة المعقّمات"، قالت آنا لنفسها. "سأناديها فتجيب، وسأطلب منها أن تعدّ كاتو إسفنجياً مع مربى الحليب. ولكنْ"، قالت آنا لنفسها، "إذا كان العدد فردياً، فلن أراها أبداً مرة أخرى. ستكون قد اختفت كما أخبرها خوان، أو ستكون قد ماتت في حادث مروّع. ستُدفَن في مكان بعيد، ولن يعرف أحد أبداً ماذا حدث لها. إذا كان الرقم زوجياً"، استمرّت آنا، "فسوف يبتعد خوان، وسوف يبتعد مسيو كليف، ونحن جميعنا، ماما وبابا وريبيكا وأنا، سنركب السيارة لنعود إلى مدينة كيبيك وسأعيد ترتيب غرفتي، وسأخبر ماتيو أنه أحمق، وستكون معلمتي هي مدام آرنو، وسأحصل على كمبيوتر في عيد الميلاد، وستخبز ماما كعكة عيد ميلادي، وسيكون عمري أحد عشر عاماً وسيكون بمقدوري السهر حتى أي وقت أريده. ولكنْ"، بدأتْ آنا بالعدّ، "إذا كان العدد فردياً، فسوف أموت".

توقّفت آنا قبل نهاية الألواح بالضبط. أغمضت عينيها. لم ترغبْ في معرفة العدد.

***

كان موريس كليف، الرقيب الأول في الـSûreté [الأمن] الكيبيكي، يتحدث إلى العريف هوراس ترِمبلي في مركز قوات البوليس في بيرسه. كانا جالسين في مكتب صغير قميء مطليّ بدهان ورديّ. كان هناك على الحائط تقويم من المغسلة الصينية مع فتاة مشرقية تتخفى وراء مروحة. "تشبه هذه الغرفة داخل صالة للتدليك"، كان العريف ترِمبلي يفكّر. كان ركامٌ عالٍ من الملفات الفوضوية يفصل بين الرجلين.

كان كلٌّ منهما راغباً في التميّز عن الآخر وإبهاره. كان مسيو كليف راغباً في أن يُرى بصفته المسؤول، وكان يستخدم لغته الفرنسية بلكنة فرنسا ليترك أكبر الأثر. أما العريف ترِمبلي، لكي يَظهر الأدرى في هذا التباري، فشدّد على لهجته الغاسبية[1]، مادّاً ودامجاً الحروفَ الصوتية وفاصلاً بين كل كلمتين بحرف "t".

رفع مسيو كليف الملف الأعلى في الركام.

– كان بيل بِرنستاين في الأرجنتين من سنة ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧. يقول جواز سفره إنه مولود في بالتيمور. عمره ثمانية وأربعون عاماً. إنه في إدارة هاركورت للآلات الموسيقية، ويفترض أنه قد حاز درجة جامعية معينة من هارفرد. في إدارة الأعمال.

– أية علاقات مع الحكومة الأرجنتينية؟

– لا توجد هناك أي علاقة يمكننا اقتفاء أثرها. ولكن من الصعوبة بمكان ألا يكون رجلُ أعمال أميركي، أقام في الأرجنتين خلال السبعينيات، قد عقد علاقاتٍ مع الحكومة.

---

١ نسبة إلى شبه جزيرة غاسبِه في كيبيك.

– أتفق معكم.
– الآن، من المؤكد أن الثلاثة الآخرين ينتسبون إلى هذه المجموعة التي تحملُ اسمَه. تمّ التحقق من ذلك. رسمياً.
استلّ العريف ترِمبلي قلماً وراح يخربش على ملفّ برنستاين.
– ولكن ماذا تعتقدون أنهم فاعلون بالضبط؟ سيطلقون عليه النار؟ سيفخّخون سيارته؟ سيدفعون به من فوق سفحٍ عالٍ؟ لا يبدون أبطالاً. هل رأيتُموهم؟
– مرتين أو ثلاثاً. تبدو الفتاة مكتئبة، ويبدو أحد الرجلين مذعوراً.
– ماذا لدينا من معلومات أيضاً؟
– ليس كثيراً. يفترض أن الطريدة التي يلاحقونها كانت مستشاراً عسكرياً، واحداً من صنف مدرّبي التعذيب المحترفين. أي تجربة تعذيب في قسمك؟
توقف العريف ترِمبلي عن الخربشة وحدّق في عيني مسيو كليف. كان قد رسم طائرين متشابكين رقبتاهما تنبثقان من جسد مشترك يبدو بدوره مقسّماً إلى أزواج عدة من الأرجُل.
– تعذيب؟
– لا، بالطبع. أنتم الـ*Québécois* [الكيبيكيون]، أصحابَ الأيدي النظيفة، محظوظون بأنه ليس لديكم جزائرُ ولا هند صينية. أنتم هنا مثل قوات حفظ سلام لعينة. أو الصليب الأحمر.
لم يقل العريف ترِمبلي شيئاً.
– كلُّ فاعلي الخير في باريس يشيرون بأصابعهم إلينا. "نظّفوا

الجزائر، ولكن لا توسّخوا أيديكم". "ديمقراطية من دون تعذيب"، وكنا بالطبع نعلم بحدوث التعذيب. كنا جميعاً نعلم بحدوثه. بعض أفضل طرقه ابتُكرت خلال تلك السنوات.

أطلق العريف ترِمبلي زفرة.

– ولأخبركم أننا ما كنّا وحدنا المبتكرين. في إحدى المرات رأيتُ صبياً ألقى الفدائيون القبض عليه حياً. هل تعرف كيف تبدو حزمة من الأعصاب الحسّاسة عند انتزاعها من تحت عضلة؟

قال العريف ترِمبلي إنه لا يعرف. وضع قلمه جانباً.

– ليس الجميع قادرين على التخيّل بالطبع. كان في قسمنا بعض الوحوش الضخام العنيدين، وأعتقد أن واحداً أو اثنين منهم لم يكن لطيفاً البتّة عند الوصول إلى التحقيق وطرح الأسئلة. في إحدى الليالي، عزم الكولونيل على إعداد قائمة بأساليب التعذيب الممكنة. وبحلول الفجر ما كان قد انتهى. لستُم بحاجة إلى مخيلة واسعة، كما تعلمون.

قام العريف ترِمبلي بمحاولة للنهوض من كرسيه.

– ذلك هو ما يبحثون عنه، وهذا هو ما نبحث عنه. ولم تُقيَّد المعلومات حول نشاطات التعذيب المزعومة لمستر بيل برنستاين لتتوافر في سيرته.

جلس العريف ترِمبلي مرة ثانية.

– إذن، ببساطة سوف نبقي عيوننا على اللاتينيين الثلاثة. بمَن يلتقون، ومتى يلتقون، وماذا يفعلون. وإذا بدا أي شيء غريباً، اعتقلناهم. ولكن ما من شيء آخر قبل حيازتنا دليلاً.

التقط العريف ترِمبلي قلمه وأحاط الطائرين بقفص معقَّد الزخارف.

"إذن، ستكون مهمتنا هي الحيلولة دون قتل جلاد"، قال.

وقف مسيو كليف وأبعد الملف عن قلم العريف ترِمبلي.

– كلا، مهمتنا هي حفظ السلام.

ثم أضاف:

– سأذهب إلى النزل حيث يقيم الرجلان، وأستجوبهما ببضعة أسئلة. لقد طال انتظارنا بما فيه الكفاية. تستطيعون أن تُطلعوا مسيو بيرِنس على ملف برنستاين. أحضروه إلى هنا. انظروا إن كان يتذكر مصادفته في أي منصب رسمي.

من دون النهوض عن كرسيه، راقب العريف ترِمبلي مسيو كليف يرتّب ركام الملفّات على الطاولة بحيث تتوازى بدقة مع حافة سطح الطاولة الفرميكا، ثم اتجه إلى الباب. وفي تلك الأثناء، علق كمّ مسيو كليف بأعلى ملفّ على قمة الأضابير فتطاير وابلٌ من الأوراق في أرجاء الغرفة، مغطياً الأرضية. انتظر العريف ترِمبلي دقيقة كاملة قبل مساعدة مسيو كليف في لملمة الملفات. وأثناء التقاطه الأوراق، لم يستطع منع نفسه من التفكير بمدى بغضائه ليدَي رئيسه المنمَّشتين.

***

منذ صباه، كان العريف ترِمبلي ينظر بشيء من الحسد إلى المنزل ذي الأسطحة الزرق. لم يكن أزرق السطح على الدوام، ففي إحدى

المرات دهنه بالأحمر رجلٌ من كونيكتيكت، كما دُهن بالأسود في مرة أخرى، وهو اللون الأثير لدى سيدة فرنسية عُرفت في البلدة باسم مدام La Duchesse [الدوقة]، حين كان للعريف ثمانية أعوام أو تسعة. أتت بها إلى بيرسه عصابة من موريال، واحتجزتها في المنزل الكبير المطلّ على البحر مع مرافقين شخصيين لحراستها، وكانت قد أجبرتهم على ارتداء ملابس وباروكات من القرن الثامن عشر. واسترجع العريف ترِمبلي مشهد موكبٍ في فرساي - الحرّاس ذوي الثياب البروكار والشعور البيض المستعارة، والدوقة تتبع خطاهم - يهبط الطريق من المنزل إلى البلدة، ذات شتاء، تحت سماء رمادية. ماتت الدوقة، وبِيعَ المنزل، والمالكون الجدد أعادوا إلى السقف لونه الأزرق. لو أنعِم على العريف ترِمبلي بتحقق أمنية واحدة، لكانت امتلاك المنزل على هذا السفح الصخري المحاذي للبحر.

ومن بين سائر قاطنيه الذين عرفهم، فضّل العريف ترِمبلي مسيو بيرِنس. كان يبتهج بأسلوب الرجل العجوز، ويحبُّ الانسجام الذي يعكسُ به هذا الأسلوب طبيعة المنزل. "مسيو بيرِنس والمنزل يضفيان المعنى أحدهما على الآخر. كلٌّ منهما مناسبٌ للآخر"، فكّر العريف ترِمبلي.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف بقليل. كان يقود السيارة ليوصل مسيو بيرِنس إلى المنزل ذي الأسطح الزرق. "هذه مؤامرة لأتأخر عن قيلولتي"، مازحه الرجل العجوز. كانا قد أمضيا ساعة في مركز البوليس يناقشان نشاطات بيل برنستاين. ولكن، كما نبّهه مسيو بيرِنس بنفسه، لم يكن بحوزة الرجل العجوز إلا القليل

من المعلومات المفيدة حول شخص التقاه على نحو عابر فحسب. نعم، قد تساعده خبرته في أميركا الجنوبية على فهم بعض نشاطات برنستاين، ولكن كيفِ سيفضي ذلك بالعريف ترِمبلي إلى تحديد ما سمّاه مسيو كليف "الطريدة"؟

بسط العريف ترِمبلي صوراً لبرنستاين في الأرجنتين: صوراً لبرنستاين وهو يصافح رجالاً ببدلات عسكرية، صوراً لبرنستاين واقفاً في جموع صغيرة، صوراً لبرنستاين وحده. ميّز مسيو بيرِنس وجوهاً وأبنية معينة. ولكنه لم يرَ برنستاين قطّ أثناء إقامته هناك، قال.

بأدبٍ، ألحَّ العريف ترِمبلي:

"مسيو بيرِنس، أنا آسف. ولكن لا بد من أنكم قد رأيتموه في بعض الأحيان. أنتم تقولون إنكم كنتم في هذا العشاء، كان برنستاين هناك أيضاً، على سبيل المثال".

لكن مسيو بيرِنس ربّت العريف ترِمبلي على كتفه وابتسم وهزّ رأسه.

عادا بالسيارة في صمت. كان التعب بادياً على مسيو بيرِنس. فبعد بضعة أيام ستنتقل العائلة عائدةً إلى مدينة كيبيك، وستذوي الأشجار ويبرد الهواء وتفرغ بيرسِه مرة أخرى.

فكّر العريف ترِمبلي في الشتاء.

ولما كانا يسلكان المنعطف الأخير قبل طريق الصعود، حيث لاح المنزل بأسطحه الزُّرق أمامهما ثم اختفى وراء الأسيجة ذات النباتات الكثيفة، سمعا انفجاراً.

في وقت لاحق، باسترجاعه ما قد حدث، أدرك العريف ترِمبلي أنه

حسب الانفجار لبضع ثوانٍ صوتاً من أصوات البحر، موجة مدوّية تتكسّر على الصخور، أو رعداً يتردّد هزيمه في الماء. استغرقه الأمر لحظة كي يرى، عندما انعطفا إلى طريق البيت، أن المنزل قد تغيّر. كان الجَمَلون في الجناح الأيمن قد اختفى، والدخان يتصاعد من ثغرة سوداء في السطح، وكان هناك نارٌ تحت الدخان.

قفز مسيو بيرنس من السيارة وهرع داخلاً إلى البيت وارتقى الأدراج. أدركه العريف ترِمبلي قبل وصوله إلى غرفة النوم الكبرى. كان الطابق العلوي مليئاً بالدخان، وما كادا يستطيعان رؤية باب غرفة النوم. تقدّم العريف ترِمبلي ليوقف مسيو بيرِنس، ولكن العجوز كان قد دخل للتوّ إلى الغرفة. أدمعتْ نوبةُ سعالٍ عينيّ العريف، وفي تلك الغشاوة، رأى مسيو بيرِنس يجرّ جسداً من وسط الدخان.

– أرجوكم ساعدوني. لا أستطيع أن أرفعها.

أمسك العريف ترِمبلي الجسد من ساقيه، فيما أمسك به بيرِنس من تحت الذراعين. حملاه بمشقّة على الدرج لأن الساقين أوشكتا تنزلقان من قبضة العريف ترِمبلي كأنهما سمكتان، ثم خرجا به إلى الحديقة. مدّداها على العشب.

بدا الجسد الضخم للمرأة حياً باستثناء الوجه. لم تكد توجد أي بقع دم أو رماد في أي موضع من ذراعيها وساقيها وفستانها إلا نثارٌ متفحّم مما بدا أشبه بصور فوتوغرافية ممزَّقة. ولكن وجهها كان مطموس الملامح، وكأن مخلباً وحشياً قد مزّقه؛ لا شيء سوى خواء فاغر أشداقه.

راقب العريف ترِمبلي مسيو بيرِنس أثناء محاولة الرجل العجوز

معانقة جسد المرأة، بشكل من الأشكال، وإخفاقه، كأن الوجه الغائب قد أخذ معه معنى جسدها، وحوّله إلى شيء ليس بجسد، بوصلةٍ لا شمالَ لها ما انفكَّ العجوز يقلّبها بين يديه، عاجزاً عن العثور على بدايةٍ أو نهاية. بالنسبة إلى العريف ترِمبلي، بدا مسيو بيرِنس مثل رجل أصابه العمى بغتة.

خلع العريف ترِمبلي سترته وغطّى الجرح المهول، فدكن القماش الأزرق. ثم أمسك بذراع مسيو بيرِنس.

– أرجوكم، تعالوا.

سمعا أصوات صفارات. كانت سيارة الإطفاء الصغيرة في بيرسه وإسعاف البلدة تسيران في الطريق الضيق بين أسيجة المنازل، يتبعهما مسيو كليف في سيارة بوليس. صفقت الأبواب، تراكض الرجال إلى داخل البيت صارخين. فتح ممرضان الباب الخلفي لسيارة الإسعاف وسحبا نقّالة. راقبهما بيرِنس وهما يرفعان جسد ماريان.

كان مسيو كليف بجانبه.

– أنطوان، أيها العجوز، سنمسك بهم. لن يذهبوا بعيداً. السَّفَلة.

ومن ثم، واضعاً يده المنمّشة على وجه بيرِنس، قال:

– أنا متأسف. أنا متأسف حقاً.

أمسك بيرِنس بيد مسيو كليف وأبعدها عن خدّه.

أضاف مسيو كليف، ليسمعه عريفه:

– لقد سرقوا سيارة صاحب النزل. سنوقفهم قبل وصولهم إلى سانت تيريز.

صرخة جعلت بيرِنس يلتفت. كانت آنا قد ظهرت للتوّ عند مدخل

الحديقة، وكانت تحدّق بالجسد على النقّالة. رفعت عينيها ورأته، وركضت إليه لاهثة. أحاطها بذراعه الكبيرة.

طنين خفيض سدّ أذني بيرِنس فأحس بتشوّش بصره، كأن زكاماً ثقيلاً قد نزل عليه فجأة. رأى على نحو مبهم الممرّضَين يرفعان النقّالة إلى سيارة الإسعاف ويغلقان الأبواب.

انطلق الإسعاف. وصلت سيارتا بوليس أخريان، وتساءل بيرِنس كيف تمكّنتا من المناورة في الطريق الضيق مع سيارة الإسعاف التي تسير بجانبهما. وضع يده على رأس آنا.

انتبه بيرِنس إلى أن مسيو كليف يكلّمه. لم يلتقط إلا الكلمات الأخيرة:

– اذهب واجلس على المقعد أيها العجوز. سأطلب من الطبيب أن يعطيك شيئاً.

بعينين ترفّان لتزول غشاوة بصره، راقب بيرِنس مسيو كليف يدخل إلى المنزل الذي يتصاعد منه الدخان. ثم أشاح بعينيه.

توافد الناس إلى الطريق الضيق بين الأسيجة وكانوا يحاولون الدخول إلى الحديقة. وكان شرطيان أو ثلاثة يحاولون ثنيهم عن ذلك من دون كبير جدوى. قال بيرِنس لنفسه إنه لو كان في مكانهم، لتعامل مع الموضوع بطريقة مختلفة. أخفض عينيه نحو آنا ومسح خدّيها بيده.

"هل ماتت ماما؟"، سألت آنا.

هزّ بيرِنس رأسه. كان يتنفّس بصعوبة.

"لا يمكن أن تكون قد ماتت"، قالت آنا، ثم بصوت متهدّج:

"ماذا سنفعل الآن؟".

لم يستطع بيرِنس أن يتكلم. أمسك يدها ومشيا أمام رجال الشرطة والناس. نادى العريف ترِمبلي باسمه ولكنه لم يتوقف. سارا معاً عبر الحديقة إلى حيث كانت سيارته مركونة.

تمكّن من القول: "لا تخافي".

دخل السيارة وفتح لها الباب. صعدت عابسة وهي تشهق. لمس وجهها مرة واحدة، وأشغل المحرّك. وأثناء خروجهما من طريق البيت استدار نحوها، وقال: "سأحاول أن أشرح لك".

ثم أضاف بلطف جمّ: "تأكّدي من أن الباب مغلق جيداً. واربطي حزام الأمان".

قاد بيرِنس السيارة عبر بيرسه منتبهاً إلى عدم تجاوز السرعة المحدّدة، ثم أسرع على الطريق الساحلي.

هناك

الجزائر

ذات يوم أحد – لا بد أنه كان في أكتوبر لأن الأمطار كانت قد بدأت الهطول – على التلة وراء المنزل، بالقرب من إسطبلات الخيول في عين طاية الحمّامات، أُضرِمت النارُ في صبي عمره ثلاثة عشر عاماً على يد أصدقائه. كان الصبي فرنسياً، ابن بنّاء قرميد محلّي، وكان أصدقاؤه فتياناً جزائريين. كانوا يعرفون بعضهم بعضاً منذ سنين، ودرجوا على اصطياد الحمام على تلك التلة نفسها طوال الخريف. وفي إفادته للبوليس، وضّح أحد مضرمي النار أن الفرنسيين قد قتلوا عرباً كثيرين، ومن ثم إن واجبه قتل الفرنسيين في المقابل. وهكذا، اقترح الصبيَّ الفرنسي ضحية لهم، لأن عمر هذا الفتى نفسه كان ثلاثة عشر عاماً فقط، وما كان ليستطيع أن يهاجم "واحداً من الكبار". ولمّا سُئل الصبيّ الجزائري ألم يكن الصبيُّ الفرنسي صديقاً أيضاً، قال بلى، إذ وحده الصديق كان سيثق بمصاحبتهم إلى أعلى التلة حيث وقعت الجريمة. وعندما سئل هل كان يعرف ما يعنيه الموت، أجاب الصبيّ الجزائري نعم، كان يعرف ما يعنيه الموت. كان معناه أن شيئاً ما قد انتهى.

لم أسمع بالخبر حتى صباح اليوم التالي، على الفطور، عندما رفع بابا عينيه عن الجريدة وقرأ لنا التقرير الصحفيّ.

"ماريان، ما عاد العالم مكاناً جميلاً"، قال لي.

لم أنسَ الحرْقَ قطّ، لا بسبب فظاعته (فهو بحد ذاته لم يكن أكثرَ ولا أقلَّ فظاعة من الأحداث الأخرى التي وقعت خلال تلك السنوات)، وإنما لأنني حلمتُ به في الليلة الفائتة، قبل أن أعرف بحدوثه. رأيتُ في حلمي الأشخاص الصغار يصعدون التلة بعد العاصفة الرعدية الأخيرة؛ رأيتُهم تحت سماء بنّية يتقدمون صاعدين إلى قمة التلة؛ رأيتهم يتجمّعون حول واحد منهم (لم يكن هناك شيء يميّز الضحية عن جلّاديه)؛ رأيتُهم يسكبون سائلاً من قنينة ويشعلون عود ثقاب. ثم رأيتُ ألسنة اللهيب: ما عادوا جَمعاً من البشر، بل تفجّراً مدوّخاً من الضوء الأحمر والأزرق يلقي بظلاله على الجهات كافة. حدث كلُّ هذا بصمت، كأنني أتفرّج على فيلم بعد كتم الصوت. لم أكن مذعورة في حلمي. بدت النار طبيعية بشكلٍ من الأشكال، شأنها شأن الغياب المفاجئ للمطر.

والآن أعرف كم كان غريباً ألا أستطيع إخبار أحد، ولكنني لم أشعر حينذاك بأن ذلك العجز كان غريباً. لم أستطع، لأنني لم أجد أحداً أخبره، لم يكن بمستطاعي التحدث إلى أحد دون الشعور بأنني كنتُ أتسلّق أسيجة ممنوعة، وأدخلُ من دون إذنٍ حدائقَ أبقاها أصحابها حكراً لتأملاتهم واعتكافهم. يا للخطورة التي انطوت عليها أيضاً كلُّ تلك المواربات الدمثة، كلِّ تلك اللطافات. ما يمكنُ قوله، وما لا يمكن قولُه. ترويضُ اللغة. أحابيلُ اللسان.

في وقت سابق على ذلك بكثير، سنة حمّالة صدري الأولى - التي اختارتها لي ماما، بشيء من الحرَج، لدى محلّ Au Bonheur des Dames [سعادة السيّدات] - قالت مونيك، ذات ليلة جمعة في مقهى الميلك بار: "لا تقولي لي كلَّ شيء. ليس هذا مؤدباً". لم أنسَ تنبيهها قطّ.

أولاً الفروق. ذلك ما أشار إليه بابا عندما عرّف إحدانا إلى الأخرى، وعمرُ كلٍّ منا سبع سنوات، أنا في فستان رمادي يحكّني، ومونيك في صدارها الأبيض. لقد وُلدتْ مونيك هنا، على الجبين العالي للجزائر، انبثقت من حاجب المدينة[1]. "أما أنتِ، يا عزيزتي"، (هذا الكلام موجَّه إليّ، أنا الغريبةَ من مدينة ليون)، "فسوف تبقين أجنبية على الدوام". مونيك علّمت الأجنبيةَ القواعدَ الضرورية. ما يُسمَح به وما لا يُسْمَح. مفردات القاموس.

***

عندما تخطّت كلتانا عمر الثانية عشرة، انتقلت عائلة مونيك من الأبيار[2] إلى الحي الأوروبي، إلى بناية كبيرة وبشعة كان يشغلها ذات يوم صانعُ فُرُشٍ إيطالي. كان لغرفة مونيك أباجورات بلون الليمون الأخضر مغلقةً على الدوام، ولكن كان بمقدورك السماع، ليلاً نهاراً،

١ إشارة إلى ميلاد أثينا. ففي الميثولوجيا اليونانية، وُلدت الإلهة أثينا من جبهة زيوس، بعدما فُلق رأسُه بفأس، فانبثقت من جهة حاجبيه بكامل عتادها، إلهة للحكمة، وحامية للمدينة التي تحمل اسمها.

٢ حيٌّ في الجزائر العاصمة، وفيه قنصليات دول عدة.

ضوضاء الشارع تحت، وكنا نناقشُ ما كنتُ قد تعلّمته، بينما نحن مستلقيتان على بلاطات أرض غرفتها: بلاطات بلونين أبيض وأخضر نعناعي، وعند النظر إليها من أعلى كان تصميمها إكليلاً معقّداً من الأوراق والسويقات، أما إذا شوهدت عن قرب، والوجه منكبٌّ على برودتها المعدنية، فكانت تتحوّل إلى نموذج بسيط من المثلثات المتقاطعة.

– إذا أمسك صبيٌّ بيدك هكذا، بأصابع مثل أرجل عنكبوت: ماذا ستفعلين؟

– سأسحبها.

– وإذا أمسكها بقوة أكبر.

– سأغضب.

– إذا وضع ذراعيه على كتفيك. نظر في عينيك مليّاً. ترك إحدى يديه تزحف ببطء نازلة نحو نهديك. دسّ إصبعين تحت حزام فستانك.

وكانت مونيك تتقلّب وتستلقي فوقي ثقيلة إلا حيث تداعب يداها حلمتيَّ، حتى تتراءى كأنها قد كبرت، وفاضت عن جانبيّ، وما عاد بمقدوري أن أتحمّل وزنها الثقيل، كنتُ أنفضها عني ونضحك ممدّدتين على البلاط. كانت يدا مونيك أيضاً ستدخلان أحلامي، وإن كان ذلك متوقَّعاً سلفاً.

سواء أكان متوقعاً أم لا، كنتُ أحلم دائماً وفي نفسي غاية أو مَهرب. كانت لدي المقدرة على صياغة أحلامي في أشكال مقصودة، على المزج بين الذاكرة والاختلاق، وكنتُ قادرة على تلوين الماضي في

نومي. أحياناً، وليس دائماً. كنتُ أرغب في تذكر الأشياء كما ينبغي لها أن تكون. كما أردتُها أن تكون.

بعد وقت قصير من الانتقال إلى البيت الجديد، دعانا الدكتور فانسين، والد مونيك، إلى منزل فارهٍ كانوا قد استأجروه قرب البحر لقضاء عطل نهايات الأسبوع، في عين طاية الحمامات. لليالٍ عدة، قبل موعد المغادرة، جهدتُ لأحلمَ بالبيت، حلمتُ بتصميم حجراته الباردة الكبيرة حيث خادمات محجَّبات يعددن شاياً بالنعناع، والرمل الأحمر يتكوّم قدّام الأبواب. ولكن لم يكن الأمر هكذا. لم يكن الأمر هكذا على الإطلاق عندما وصلنا عبر الطريق المعبَّد، وعلى جانبيه القاذورات وأسراب من القطط الشرسة التي تتصيّد طعامها غضبى وسط القمامة وراء فندق تاماري. كان المنزل فيلّا حمراء تجاور منزلَ مَن بناها بالقرميد، مع نوافذ صغيرة وشرفة خشبية، ونخلة وحيدة في الزاوية القصوى تثني جذعها للريح، ووراء ذلك كله: البحرُ. كان سعال ماما واضحاً عند خروجها ووقوفها حائرة قليلاً عند السيارة، ولكنها قبلت بيد الدكتور فانسين ليقودها باتجاه الممشى الإسمنتي. بابا حمل الأمتعة متحدثاً بلكنة عربية، متظاهراً بأنه خادم الدكتور فانسين، مثرثراً مع مدام فانسين، وأضحكنا. كانت الفقرة الوحيدة الناجحة في حلمي هي لطافة البرودة. البرودة المنعشة، وعبق الشاي بالنعناع.

قيل لنا أن ماما ومدام فانسين ستأخذاننا في اليوم التالي لنرى الآثار الرومانية الصغيرة، لأن الدكتور فانسين كان يرتقب قدوم بعض الأصدقاء. "مشاغل الرجال. بعض العرب"، وضّح لماما

معتذراً. وصلت سيارة ونحن على أهبة المغادرة. وقبل انطلاقنا، رأيتُ ثلاثة رجال يرتدون جلابيب ناصعة البياض يترجّلون ويحيّون بابا والدكتور فانسين. التفت أحدهم نحونا وأومأ برأسه.

بعد حوالى خمسة عشر عاماً، عندما كانت مونيك متزوجة وتعيش مع زوجها (الذي كانت تشير إليه بلقب "حارس القلعة" فقط) وبناتهما الثلاث في دلّس[١]، وأنا كنتُ أقود سيارة السيتروين القديمة على الطريق الساحلي الشرقي ذاهبةً لأراها، مررتُ من جديد عبر عين طاية، ورأيتُ الواجهة البيضاء لفندق تاماري. فكرتُ حينذاك، مثلما أفكّر الآن، كم أن كلَّ شيء كنتُ أتذكّره، ومن ثم كلّ شيء كنتُ أعرفه، كان مقطَّعاً إلى لقطات صغيرة ساكنة. بمرور السنين، تغيّرت الصور التي كنتَ سآخذها لاحقاً، وقد أغثَتِ التجربةُ نفسي. ولكن لقطات الذاكرة هذه لا تتبدّل ولا تشيخ، عديمة الحركة في المكان والزمان. بعد خمسة عشر عاماً، كانت عين طاية لا تزال هي المنازل الحزينة القليلة إلى جوار البحر، أما الفندق، المزدان بزخارف خشبية بيضاء ومصابيح زرق يطنّ حولها الذباب في الليالي البحرية المنعشة البرودة، فلم تزدد طوابقه طابقاً بعد طابق لاستيعاب رجال الأعمال المسافرين، ولا انهارَ في الرمل جداراً بعد جدار، وإنما حافظ على شيخوخته كمثل شيء لُعِن بالخلود. دائماً كان عمر مونيك ثلاثة عشر عاماً أو ما يقاربها؛ بابا وماما في خمسينياتهما، ثياب كليهما بيضاء، مرئيان دائماً من الأسفل، من الأعماق العظيمة لطفلة عمرها سبعة أعوام؛ كانت جزائري معششة، مثل حشرة في حجر كهرمان،

١ مدينة جزائرية على ساحل المتوسط، تقع بين بجاية والجزائر العاصمة.

في صباح باكر من مايو، وهواء الليل لم يسخن بعد، نوراً وردياً على جذوعِ الشجر وعلى بياضِ الحيطان المطلية بالكلس، والصوت العالي للمؤذّن يدعو المؤمنين إلى الصلاة. أما أنا، صاحبةُ وجهي، المخلوق المحبوس في إطار صورة، فكنتُ - ولا أزال اليوم - غير واثقة من شيء. لعل وجهي باقٍ على ما كان عليه في ذلك الوقت - هل كان عمري أربعة عشر أم خمسة عشر عاماً؟ -عندما لمح الدكتور بن شريف عينيَّ في المرآة، هذا لو كانت مثل تلك اللحظة قد حدثت ذات مرة، هذا لو لم تكن خليطاً من اللحظات التي جرت في الأوقات والأمكنة شتّى، بعضها في اليقظة وبعضٌ في الأحلام.

***

كان الدكتور بن شريف هو والد فاطمة، ولكن هذه المعلومات سرية. كنا، أنا ومونيك، نلعب مع فاطمة في المدرسة مثلما كنا نلعب مع الفتيات العربيات الكثيرات ذوات الفساتين القطنية البيضاء والشعر الأسود المضفور، وعلى أصابعهن علاماتٌ غامضة. كنا نغنّي بالعربية أغنيات القفز على الحبل، نلعب وأعيننا معصوبة بوشاح، ونثرثر مع بعضنا بعضاً في الباحة المرصوفة برملٍ قرميدي اللون، ونرمي المعلّمين بالشتائم. ولكننا كنّا، وظللنا، فرنسيَّتين. كان كلُّ تعارف بيننا وبينهنّ يتوقف بعد انتهاء دوام المدرسة. لو رأينا فاطمة أو إحدى صديقاتها في الشارع، في متجر، كنا نهزّ رؤوسنا، نبتسم تحت العينين القلقتين لماما أو مدام فانسين، ونواصل المشي.

في أحلامي، عندما كان الدكتور بن شريف يتكلم - كان وجههُ الملوَّح يتغضّن عند الابتسام، الشارب الأسود يخفي الشفة العليا، اللسان يتحرك ببطء وراء الأسنان - لم تكن الكلمات وحدها تخرج من فمه. كانت هناك أصوات أخرى تتسرب إلى الفضاء وراء عيني: صوت الريح، أو عواء حيوانات مضروبة. لاحقاً، أثناء المظاهرات في شوارع الجزائر، كان الهواء يمتلئ بغتة بذلك النوع نفسه من الضجيج عندما تنخرط النساء، المنقَّبات الوجوه، وعلى رؤوسهن مناديل سود، في عويل مولول طويل كان بمقدوره، على ما يُقال، الدفع بالجنود إلى الجنون. سمعتُ هذا العويل للمرة الأولى في عين طاية الحمامات.

ذلك المساء، عند رجوعنا من الرحلة بين الآثار الرومانية - ماما مع صداع الشقيقة، ومدام فانسين بالتواءٍ في الكاحل - اقترحت مونيك أن نمشي إلى الفندق ونتفرّج على الناس وهم يستعدّون للعشاء. وفق مونيك، كان الندلة الشبّان يخلعون ملابسهم في غرفة كبيرة خلف الفندق، وكان بمقدورنا أن نرى من الباحة ما يدور خلف نافذتهم. بهذه الطريقة كنتُ أستقي معلوماتي حول أجساد الرجال من دون سلوك قليل الأدب، قالت مونيك.

تسللنا إلى القسم الخلفي من الفندق، عبر أكوام من التراب المنكوش والحجارة المكسورة. لاحقنا كلبٌ أصفر مريضٌ. رمته مونيك بقطعة قرميد، ولكنه لم يهرب؛ رفع ناظريه ثم أقعى لاهثاً وسط حطام الأحجار. أرشدتني مونيك. في الداخل، كانت الأوركسترا قد بدأت بعزف لحن فالس. كانت السماء سوداء ما عدا شريط برتقالي

أمامنا، وكان الضوء البرتقالي نفسه يتوهّج في كل نافذة من النوافذ المستطيلة للغرف الخلفية في الفندق. في غرفةٍ أخفض، كان الفتيان يخلعون ملابسهم، كما قالت مونيك. كانوا يتضاحكون ويصيحون ويلبسون سترات بيضاء منشاة فوق صدورهم السمراء النحيلة. ثم رأينا فاطمة.

كانت جالسة على مرمى حجر منا لا أكثر، على واحدة من أكوام الحجارة المحطّمة. لم نلحظها في الظلام؛ عندما التفتت فقط، أنارَ شعاعُ ضوء من إحدى الغرف أطرافَ فستانها الأبيض وتلألأت أسنانها. نادَتْنا. وضعت مونيك يدها على فمي، آمرةً بالصمت. "العرب لا يعرفون الجنس، بل إنجاب الأطفال فقط. إنهم يتكاثرون كالأرانب"، أخبرتني مونيك. كانت فاطمة ستسيئ فهم اهتمامنا بالفتيان.

كانت فاطمة تنتظر أباها. لم تأبه بالجلوس على ركام الحجارة. كان قد أخبرها بأن زيارته ستكون طويلة؛ كانت قد أمضت سحابة يومها على الشاطئ ومتجوّلةً في أرجاء الفندق. انقلب مزاج مونيك بطريقة غير مفهومة بعدما رأت فاطمة. ألحّت على أنها جائعة؛ جادلتني حول وجوب رجوعنا من أجل العشاء. الالتقاء بفاطمة أخلى النزهة من مرحها؛ والآن غضبت مونيك. قلتُ إنني سأبقى. أنا وفاطمة مشينا وابتعدنا نحو الشاطئ.

ما كانت الليالي في الجزائر صامتةً قطّ. في غبَشِ الظلام، كانت الكلاب تنبح والأطفال يصيحون، والأشجار تتمايل، والبحر يرتطم بالقمامة على الساحل، فتتفجّر أصوات عصية على التحديد وسط

الأصوات المعتادة، أصواتٌ غريبة مثل مقتطفات من موسيقا الأورغن، قرع طبول، تقصُّف أغصان، دمدمة أصوات مجنونة، تنهّدات. ولما كنا، أنا وفاطمة، واقفتين على حافة الجرف، بدأت الولولة.

بعد خمسة عشر عاماً، متكئة إلى وسائد الحرير العالية في غرفة المعيشة في منزلها بدِلّس، بينما أصواتُ بناتها تأتي من الحديقة، وحارسُ القلعة بوجهه المدوَّر يرمقنا بحزم من داخل الإطار الفضي لصورته، ذكّرتني مونيك بتلك الليلة في فندق تاماري. كانت واجمةً طوال الطريق عند الرجوع، رفضت الإجابة عن أسئلة مدام فانسين، ذهبت إلى سريرها مباشرة، متمنية أن يخرجوا ويعثروا عليّ ويوسعوني ضرباً. في الصباح التالي، استرقتُ السمع إلى مدام فانسين - التي ما أحبّتني أبداً - تقول لها إنها لن تسمح لها برؤيتي بعد الآن، وطوال رحلة العودة إلى الجزائر لم يتكلّم أحد، باستثناء الدكتور فانسين الذي بدا غافلاً عن وجود أي خلل، ولم ينقطع عن التنويه بجمال المناظر.

كانت هناك كوكبة من الأكواخ على مسافة قصيرة من أضواء فندق تاماري وموسيقاه، أبعد قليلاً على امتداد الشاطئ الصخريّ، وكانت هي مصدر العويل. رفضت فاطمة أن تأتي، فتركتُها على إحدى الصخور فوق المنحدر، ومشيتُ وحدي باتجاه الأكواخ التي بدت، بشكل من الأشكال، في منتهى الصغر قياساً إلى سكنى البشر. كانت هناك خرقة قماش معلقة فوق ما بدا أنه المدخل: رفعتُها ونظرتُ إلى الداخل.

كانت هناك مجموعة من النساء العربيات، منقَّبات الوجوه،

جالسات على الأرض في دائرة، يتمايلن إلى الأمام والخلف على إيقاع عويلهنّ. وراءهن، كان هناك شخص يرتدي دثاراً أسود ويوقد ناراً للطبخ. وفي مركز الغرفة، مستلقية على بطانية، كانت هناك امرأة. فستانها مشمَّر حتى أعلى بطنها. فخذاها متباعدتان. كان رجل محدودباً بينهما. صرختِ المرأة، تعالى العويل. رفع الرجل شيئاً لامعاً ورمى به في طشت. كانت يداه، جلبابه، البطانية، فخذا المرأة، مضرَّجة بالدم. ثم التفتَ ونظر إليّ. تركتُ الخرقة الساترة تسقط وركضت عائدة أتسلق المنحدر.

في الظلام، أثناء رجوعنا مشياً إلى الفندق، أخبرتني فاطمة عن أبيها. كان الدكتور بن شريف "مطهِّراً"، "مُصلِحاً للجسد". كانت فخورة بلقبه. كانت مهنته تقتصر على اقتلاع أطفال الزنى من أجساد الجزائريات اللواتي أحبلهنّ جنودٌ فرنسيون. قالت فاطمة: "ما كان الولد لينال أيَّ اسم بيننا. كان سيبقى شبحاً. بلا اسم، بلا نسَب، بلا ظلّ. لا فرنسياً، ولا جزائرياً". قالت إن أباها كان يرمي بأولاد الزنى للكلاب.

استدرتُ لأنظر فرأيتُ الدكتور بن شريف واقفاً في مثلث من الضوء خارج الأكواخ يغسل يديه. كان عويل النادبات قد توقّف.

ثم تذكرتُ حلماً: كنت أسبحُ ليلاً في عرض البحر. كان هناك صوت يهمهم حولي - شديد الشبه بعويل النساء، ولكنه أخْفَت - ولأتجنبه غطستُ برأسي تحت الماء. ولما فعلتُ ذلك أدركتُ رغم الظلام أن البحرَ بحرٌ من الدم.

***

أتذكر هذا: شارع ضيق مرصوف بالحجارة، شرفات مطلة عليه، جدران تميل متكئة بعضها على بعض. الرائحة الحلوة لفاكهة متعفنة. أشخاص بأردية بيض تهفهف يروحون ويجيئون. أصوات كثيرة تتكلم في الوقتٍ نفسه، ومكبرات الصوت مخفيّة. أنا في الرابعة عشر من عمري. نحن نحتفل بالسلام، اليوم الأول للسلام. في الوطن، في "فرنسا الطيبة"، كما كان بابا يدعوها، انتهت الحرب. الألمان استسلموا، أولئك الألمان الذين تساقطت قنابلهم أحياناً على ناصية شارع ليتحول إلى الأبد مكان ذكرى معينة، البيت حيث عاشت *Signora* كولومبياني، الدكان حيث كان بابا يشتري تبغه. بابا وماما ومدام فانسين خرجوا إلى الشوارع ليلوّحوا بالمناديل. مشيتُ مبتعدة. الأعلام ذوات الألوان الثلاثة معلّقة إلى نوافذ الجادّات العريضة، ومن هنا، عبر المنفذ الضيق عند نهاية الشارع، بمستطاعنا أن نراها خفّاقةً في الريح. ثمة أيضاً أعلام أخرى متفرّقة: علم أزرق مع خطوط حمر تتشعَّع من مركزه، علمٌ آخر أحمر وأبيض يعجُّ بالنجوم، وثالث أحمر مع صليب قصير الأذرع. تعبر فرقة موسيقية عسكرية مدوية بموسيقا احتفالية. عجوز ذات شعر مصبوغ برتقالي تتقدم نحوي وتعقد بدبوس وردةً بيضاء إلى شريط فستاني، بيضاء من أجل السلام. أقف أمام فرن الخبّاز، خزانة مفتوحة مصفوفة الألواح. رجلٌ هرِم، معصوب الرأس بعمامة بيضاء، يحرس لوحاً من الأرغفة الرقيقة الطويلة. في وقت لاحق، عند ظهور تلك الأرغفة الرقيقة نفسها على مائدة فطوري في باريس، كانت تبدو لي أجنبيةً مثلي في فرنسا.

ينفجر شيء وراء أذنيّ. إطلاقُ نار على أحدهم. ألتفتُ وأركض.

ثم أرى الدكتور بن شريف، واقفاً عند ناصية أحد الشوارع، مصحوباً ببضعة رجال آخرين. يسألني بالعربية أين والداي ولماذا لا أحتفل معهما. وإذ أجيبه - ليست لغتي العربية عالية المستوى، لساني يستعجل الكلمات، ويتلعثم لشدة ذهولي - أغضي ناظرةً إلى قدميه الكبيرتين المحفوفتين بالسواد والحاشية الغبراء لجلبابه، ثم أرفع ناظريّ إلى وجهه. أقف على مقربة منه متظاهرة بأنني مذعورة. أتذكر يديه في الكوخ على شاطئ البحر. أرغب في تحسس جسده تحت لباسه، فأتخيله كالرمل تحت الماء.

يقول الدكتور بن شريف للرجال إنه يفضّل إرجاعي إلى البيت. وعندما نبتعد، أسأله هل نستطيع التوقف للحظة عند عيادته الجراحية التي أعرف أنها تقع عند الناصية. كانت فاطمة قد دلّتنا على المكان مراراً. أفكر في فاطمة بشعرها الأسود الطويل المضفور، وأمّ فاطمة المحجَّبة دائماً في حضور رجالٍ غير زوجها. أفكر في أصابع فاطمة، مصبوغة بلون القرفة، متشبثة بذراع الدكتور بن شريف، مثلما أفعل الآن متكلّمة إليه.

أعرف أن الدكتور بن شريف، مثل بابا، مثل أصدقاء بابا، مثل الدكتور فانسين، لن يستمعَ إلي في الواقع. إنهم، في منزل والديّ، ينصتون عندما يتكلّم بابا أو أحد الرجال الآخرين. تارة يقاطعون المتكلّم، وتارةً أخرى لا يدعونه يكمل كلامه، ولكنهم قد سمعوه، وهم يقاطعونه لأنهم قد سمعوه. عندما نجازف، أنا أو مونيك أو ماما، بقول شيء ما، فإن الجميع يواصلون الحديث، وهم لا ينقطعون عما كانوا يفعلونه مسبَقاً أياً كان هذا الفعل، كأن صوتي لا وجودَ

له، كأنه شبحُ صوت، شيءٌ ليس بمقدور الأحياء، الرجالِ، الإحساسُ به. "حدس النساء"، كثيراً ما تقترحه ماما تبريراً لأعجوبة الرجال في المناسبات النادرة التي ينتبهون فيها إلى أننا كنا نقول شيئاً. فيعلن بابا حينئذ: "حدس النساء يجعلهنّ الجنس الأقوى". وأنا أقول: حدس النساء ببساطة هو الإصغاء.

عندما أقرأ كتاباً فإنه يتحول إلى كتاب مختلف عن ذاك الذي كان بابا قد قرأه. إنه يسمّي قراءتي "تسلية"، ويقول إنني محظوظة بعدم اضطراري إلى إقلاق نفسي بالمعاني الأعمق. "إنها تقرأ كتاب بلزاك كأنه مغامرة رومانسية"، سمعتُه يوضّح لجارٍ رآني متكوّرة على عتبة الدرج ومعي *Les Illusions Perdues* [الأوهام الضائعة]. "لا ضرر في ذلك". لم يعبأ بقراءاتي يوماً ما عدا مرة واحدة، عندما أمسك بي وأنا أقرأ كوليت في أحد الأيام بعد المدرسة. أبعد الكتاب - كان *Chèri*[1]، على ما أعتقد - وقال إن المكان الوحيد المناسب له هو الزبالة. وأضاف بنبرة ألطف: "ستفهمين لاحقاً".

أنا مصممة على جعل الدكتور بن شريف يصغي إلى صوتي، إلى الأصوات التي أصدرها، إلى الكلمات التي تبنيها تلك الأصوات، إلى الأفكار السوداء والمرعبة التي تكوّنها تلك الكلمات. لو أصغى،

---

١ شيري هو اسم الشاب الشخصية الرئيسية في رواية كوليت التي عنونت بالاسم نفسه، وتعريبه الممكن عن المحكية هو "حبيبي". كانت سيدوني غابريل كوليت (١٩٥٤- ١٨٧٣)، الكاتبة الفرنسية المعروفة باسم كوليت، غزيرة الإنتاج وأثارت الكثير من الجدل والتساؤلات في عصرها، فقد عملت راقصة في ملهى ليلي وصحافية وممثلة مسرح وممرّضة، وارتدت البنطلون ورقصت عارية، واعتبرت آراؤها الجريئة حول حرية المرأة استفزازية في ذلك العصر. استلهمت جورج صاند واتهمت بتخريب المجتمع.

لو أدرك أي وحوش مذهِلة قد خلقها عقلي من أجله، فسوف يرضخ ويستسلم ويفهم. نحن عند بابه. أسأله هل بوسعي الصعود.

لا يكترث الأطفال الذين يخرجون من عتمة الصالون البارد راكضين، لا تكترث النساء المقنَّعات في فساتين مزينة بالزهور وهنّ يقشّرن البازلاء، وبالتأكيد لا تكترث القططُ الدائمةُ الحضور، والمهتاجةُ جوعاً، وهي تلعق للمرة المئة العلبة الفارغة التي قلبتها في كومة القمامة. أتبع الدكتور بن شريف في صعود الأدراج التي تفوح برائحة البول والهيل، فتمتزجُ الروائحُ بعطري، عطر باكرٌ ودافئ كأنه منبعث من شراشف نام تحتها عاشقان، به أستدفئ في خلوتي، وعليه أستيقظُ كلَّ صباح. ما كنتُ راغبة في أي شيء قدر رغبتي في أن يتنشّق عطري.

عيادته الجراحية مكتب صغير يغصّ برفوفٍ أثقلتها الكتب والأوراق. عُلّق بِساطٌ إلى النافذة الوحيدة. على فوضى الطاولة تنتصب يدان رخاميتان، أكبر من الحجم الطبيعي لليد، مرفوعتان، يمسكهما معاً نتوء حجريّ. يسوقني نحو كرسيه الخشبي ويقدّم إلي الماء.

أحاول أن أدفعه إلى الجلوس والكلام، ولكنه يصغي إلى شيء آخر في الخارج، أسفل الدرج. لا إلى صوتي.

على هذا النحو، أتذكّره: الدكتور بن شريف واقف عند النافذة، مزيحاً البساط ليستطلع الشارع. الأشكال في تصميم البساط تتماهى مع الخطوط المطرَّزة على جلبابه والمرتسمة على وجهه. بمستطاعه قراءة الأحداث التي تصبح فصولاً في كتب التاريخ. سيكون بمقدوره التيقُّن، لو كان حياً الآن، لماذا كان ذلك التاريخ مهماً، ولماذا حظيتْ

أحداثٌ معينة بعناوين عريضة على الصفحات الأولى للجرائد. إنه لا يرى صبياً يركض في الشارع، مجموعة من الرجال يدخلون المنزل الثالث بعد الناصية، امرأة تحمل سلّة وتمشي بالاتجاه المعاكس. إنه يرى، كما لو كانت مطبوعة على صفحات واحد من كتب التاريخ تلك، البياناتِ الموقَّعة والمذيَّلة بالتواريخ، مكاناً في الصحراء يُدعى سطيف، أسماء تتسلسل مثل دليلٍ لأسماء الشوارع: أحمد بن بلّة، علي محساس، مصطفى بن بولعيد، كريم بِلقاسم، أعمر أوعمران، لخضر بن طوبال، محمد بوضياف، محمد خيضر، حسين آيت أحمد[1]. إنه يميّز الأشكال؛ بمستطاعه أن يرى بكاملِ التعقيدات فسيفساءَ البساط الذي تهلهل وحالَتْ ألوانه.

أما أنا، فلا أستطيع. لكل لحظة ألوانٌ وروائح وأصوات كثيرة لا تتيح لها أن تكون جزءاً من أي كلّ. كل لحظة هي الأبدية. أحاول إخباره. ولكن ثمة جدارِ منيع بيننا، مثل لوح كبير من الأبنوس أو الحجر المثقوب، أشكال معقدة متداخلة محفوفة برخام ملّون، وهو على ذلك الجانب، وأنا على هذا الجانب. بمقدوري سماعه، رؤيته ينتفض قليلاً في ضياء الشمس المغبرّ، لأن الشمس مسلَّطة عليه، الهواء يحمل صوتَهُ، حركاته؛ إنه لا يستطيع أن يراني أو يسمعني، أعرف، ما لم أفتح - ثيابي، ذراعيّ، ساقيّ - كلَّ شيء ما عدا فمي. وعندما ألفت نظره قليلاً، فإنه يفهم حركاتي مثلما أفهم حركاتِ كلب. لا صوتَ الكلب، ولا صوتي. تتهشّم الصورة. يسألني مرة

١ أسماء شخصيات معروفة في الثورة الجزائرية، كانوا سياسيين وثواراً في "جبهة التحرير الوطني"، وتولى بعضهم رئاسة جمهورية الجزائر بعد الاستقلال، مثل أحمد بن بلة، ومحمد بوضياف الذي اغتيل سنة ١٩٩٢.

أخرى هل أريد ماء.

يوم اعتقاله – أخبرنا به بابا كأنه خبرٌ مشين، وكأن الدكتور بن شريف قد أهانه – أوشكتُ ألتمس السماح بزيارة السجن. مرّت عشر سنين. أردتُ تذكير الدكتور بن شريف بعصر ذلك اليوم في عيادته الجراحية، كيف زمجر في وجهي لأرتدي ملابسي عندما أذن للرجال بالدخول، ولم يلتفتْ حين غادرتُ. أردتُ أن أعرف ما الذي قاله لهم: هل كانت الغلبة، بتعبيره، له أم لي؟ هل وضّح، وهو يضيف المقاطع إلى فصل التاريخ الخاص بذلك الأسبوع، كيف أتت البنت الفرنسية إلى غرفته؟ أم تراه استخدم صيغة المبني للمجهول: هل جُلِبتُ ونوِّمتُ واستُدرِجتُ واعتبر سكوتي علامة رضى؟

هذا هو ما حدث.

إلى جوار السرير، الذي كان مغطى ببسُطٍ داكنة ومخدات مربّعة خشنة، كانت هناك مرآة صغيرة إطارها من قصدير. متّكئةً إلى الوسائد حدّقتُ بها، فرأيتُ الدكتور بن شريف ينظرُ إلي، في عينيّ، في المرآة. أخيراً رأيتُ ما رأى، فحرّكتُ وجهي بحيث يكون بالضبط كما أردتُ له أن يراه.

لم أخلع ثيابي؛ لم يسمح لي بخلعها. ولكنني دللتُ يديه، وضعتُ شفتيّ على عنقه، جلستُ على السرير، تكلّمتُ فيما هو يستسلم ليستلقي إلى جواري. أردتُ أن أستكشفه، وأستدرجه إلى الحديث؛ أردتُ منه أن يخبرني هل يأكل السمك فحسب، هل يشرب النبيذ أحياناً، هل اختار زوجتَه أم أنها اختيرت له. لكنه حينذاك تحرّك ورفع يده، يده اليسرى، يدَ النجاسة، المستخدمة في غسل الموتى

وإطعام الكلاب، المنبوذة بين أعضاء الجسد، يد المرحاض في بيت الله، رفعها إلى شفتيّ ليضمن الصمت. نزفْتُ.

جرى كل شيء كأنني لم أكن هناك. عندما دخل الرجال، كان الموضوع قد انتهى، وحيّاهم الدكتور بن شريف عند النافذة. قالوا إن هناك شخصاً قد أُطلقت عليه النار. ابن أخ، ابن عم، شرحوا للدكتور بن شريف. متى تمَّ إطلاق النار؟ أمس. أثناء المظاهرة؟ الله كريم! جماعة تحمل لافتات. أي لافتات؟ لافتات بالفرنسية، لا بالعربية. من أجلهم، لكي يقرؤوها. نعم. يجب أن نخبرهم. إنهم لا يسمعون، ولن يسمعوا أبداً. أَرُوهُم. أرغِموهم. افقؤوا عيونهم. امسحُوا عيونهم باللافتات. علّموهم أن يروا. مَن أوقفكم؟ هل كانوا كثيرين؟ كم عددهم؟ (السرير، زاويةُ الغرفة حيث انتظرتُ، والدمُ الذي لن يستغربه أحدٌ على الشراشف، كانت كلُّها غير مرئية).

كان الرجلُ الأسنُّ بينهم يروي القصة للدكتور بن شريف. قال، كانت كما يلي. طلب رئيس البلدية من المتظاهرين أن يتوقّفوا عن المسير. لم يتوقّفوا. طلب منهم رئيس البلدية إنزالَ اللافتات. لم يُنزلوها. ترقرقت الدموع في عيني رئيس البلدية، ووجهه محمرّ كوجه عجل، وله شوارب شقراء كثّة كلحية عرنوس ذرة. ثم أمر بالهجوم. جندي عجوز مغطى بالأوسمة، وهو قبائلي من جميلة[١]،

١ تقع مدينة جميلة (وهي نفسها مدينة كويكول الرومانية الأثرية) ضمن المنطقة القبائلية التي تتكلّم الأمازيغية وتقع شمال شرق الجزائر، وتشمل ولايتي بجاية وتيزي وأجزاء من ولايتي البويرة وسطيف التي تتبع لها مدينة جميلة إدارياً. كلمة "قبائلي" مشتقة من اسم "قبائل" الذي كان العثمانيون يطلقونه قديماً على المناطق الجبلية شرق الجزائر.

رفع عكازه وحاول تمزيق إحدى اللافتات. خائن. كلب. مشوا فوقه. داسوه حتى الموت. بعد ذلك، تهافتَ الأطفالُ على الأوسمة في الرمل.

***

كان بابا يعرف رقيباً في الجيش قُتل خلال إحدى المناوشات في الأيام الأولى عندما كانت الجرائد تتحدث عن "الجزائر التي تنعم بالسلام". عشية كل عيد ميلاد، على مائدة العشاء، كان أبي يرفع كأسه من النبيذ الجزائري (كان في تلك الأيام يفتخر بواقع أنه لا يقدّم إلا نبيذاً جزائرياً) ويشرب في ذكرى "آرسُنو العجوز الطيب، الذي مات في سبيل القضية، وضُرب ككلب على يد البرابرة"، ويذكر الوسام الوحيد لآرسُنو الذي تقلّده خلال خدمته كجندي من القوات الخاصة أثناء معركة فَردار[1]. كان يقول النعمة – فتصغي ماما بانتباه، مطأطأة الرأس، وتراقبني بزاوية عينها – ويشكر ربّنا لأنه ينعم علينا بالبركات التي حُرِمها إخوتنا في الوطن. كان يومئ باتجاه ماما فتقرأ لنا بصوتٍ عالٍ، يوم وصول البريد، رسائل من إحدى قريبتينا في لِيون: "تخيّلوا، لا خبز أبيض، الأعزاء المساكين يصنعون الخبز من البطاطا، عشاؤهم لفتٌ، غداؤهم كرنب، تخيّلوا". وأمامنا، على غطاء المائدة الأبيض

١ وقعت معركة فردار في أيلول/ سبتمبر ١٩١٨، خلال الحرب العالمية الأولى، حين هاجمت قوات مشتركة فرنسية وصربية ويونانية المناطق الواقعة تحت سيطرة البلغار في مملكة صربيا، وأنهت بانتصارها المرحلة الأخيرة في حملة البلقان.

المطرز الذي اشتراه والداي من بروكسل في شهر عسلهما، يضع الخدم أواني صغيرة من حساء الخيار البارد، سُوفليه لحم الخنزير منفوشاً في أكواب فخّار بنية، وأضلاع خروف قبائلي على طبق أبيض كبير من ليموج[١] كأنها أمّ أربع وأربعين عملاقة، الأطراف العظمية تنتأ نحو الأسفل كأنها أرجلٌ كثيرة تسعى، عروق بقدونس مرشوشة حولها في بركةٍ من المرَق، مع عناقيد من الكروكيت المقليّة بلون الرمل كُوِّمت على طرفَي الطبق. بين مراحل العشاء، كان بابا وماما بحرصٍ يتناولان بملعقتين مقداراً صغيراً من مشروب كوانترو الذي كان يُسمح لي بتذوقه، بعد الكثير من التوسّل، وبعد السلَطة الخضراء ("الأغنى طَعماً، بالطبع، مما هي عليه في فرنسا؛ إنها تستقي المعادن من التراب"، كان بابا يوضّح) جذع عيد الميلاد، الكعك الإسفنجي الطويل المغطّى بالشوكولاته المحشوّ بمطبوخ الكستناء والمزيَّن بالكرز الذي كانت إحدى قريبتينا في ليون، خلال السنوات الأولى للحرب، ترسله إلينا في مرطبانات خضراء طويلة. كان معارف بابا يُدْعَون أحياناً، فانضمّت إلينا عائلة فانسين مرة أو مرتين، ولكن سواء احتفلنا بليلة عيد الميلاد وحدنا أم بصحبة آخرين، فإن بابا كان يرفع كأسه دائماً نخبَ شبح صديقه آرسُنو. درجتُ على التساؤل فيما إذا، عند سقوطه، كان هناك مَن التقط الوسام الوحيد. غنائم حرب.

رغم العنف العشوائي هنا وهناك، لم يساورني أيُّ شعور حقيقي بوجودي في بلد يشهدُ حرباً. أولاً قنابل الألمان، ثم قنابل الآخرين،

١ مدينة صغيرة وسط فرنسا عرفت، ولا تزال، بصناعة البورسلين الفاخر.

fellagha[1] أو، على ما كان البعض يقول وإن لم نكن نصدّقهم قط، قنابلُ رجالنا، كانت جزءاً مما يحدث كلَّ أسبوع، كلَّ يوم. ولربما عندما أزفت النهاية، قبل الخروج الكبير - عندما سمعنا الأنباء من الخارج، أنباء تتعلّق بنا، وتلوّنت المستعمرة بالأسود والقرمزي - كان هناك إحساس بشيء غير مألوف؛ سوى ذلك، لم يبدُ أي شيء مختلفاً. كانت الحال إياها على الدوام. كانت هناك أشياء من الخطورة فعلها، وأماكن من الخطورة زيارتها. كان هناك عرب جيدون وعرب سيئون. كان الناس يموتون أحياناً، ونادراً ما مات شخصٌ كنا نعرفه. أعياد الميلاد والعطلات والأمطار أتت وراحت.

ذلك كلُّ ما في الأمر.

***

بضع مرات بعد عصر ذلك اليوم المنكود، عند زيارة منزل مونيك، كان الدكتور بن شريف موجوداً هناك فيبتسم لي بطريقة مهذّبة كنت أجدها عصية على الفهم. ذات مرة، بعد نهاية الحرب في أوروبا، رأيتُه في منزلنا يكلّم بابا في المكتب، وهناك أيضاً أومأ لي، وواصل حديثه مع بابا.

كانت مونيك على حق: لم أستطع إخبارها بكل شيء. قد تتحول الحقيقة إلى خداع، وقد تنكّل بالغير. ما أخبرتها إياه، بعد بضعة

[1] الفلّاقة اسم التحقير المستخدم في اللغة الفرنسية للدلالة على ثوّار تونس والجزائر، ومعناه المرجَّح قطاع الطرق الذين يفلقون الرؤوس.

أسابيع من ذلك اليوم في عيادة الدكتور بن شريف، هو قراري أنني لن أتزوّج أبداً.

قالت مونيك إنني مجنونة. إذا لم تتزوّجي (كانت تعرف هذا كحقيقة علمية)، فسوف تجفّ أحشاؤك ويرقُّ دمُك أكثر فأكثر، ريثما تتحولين إلى غبار مثل قشرة خنفساء ميتة. كانت تعرف خالة عانساً لاقت هذا المصير: ذات صباح وجدوها على كرسيها متيبّسة كورقة، وعندما فتحوا النافذة بعثر النسيم بقاياها في الرياح.

بعد خمسة عشر عاماً، تذكَّرتْ اعترافي بعدما ظننتُ أنها قد نسَتْه منذ وقت طويل، وضحكتُ معها حين تذكّرتْه. أدركتُ أن ذلك الاعتراف كان كل شيء بالنسبة إلى مونيك، الخلاصة الكاملة لتجربتي. ولأنني لم أخبرها بالمزيد، ولأنني لم أتطرّقْ إلى الخلوات السرية بعد الظهر مع ابن معلّم الرياضيات، عطلات نهاية الأسبوع في وهران مع الرقيب الكورسيكيّ، المغامرة الوحيدة المجهولة بعد Bal du Printemps [حفل الربيع الراقص] مع سائق شاحنة تونسيّ يتضوّعُ برائحة النعناع، فقد اعتقدتْ مونيك أن عالمي قد انتهى هناك، عند طرف الأفق، ومن بعده لا وجود لأي شيء. سمحتُ لها بذلك الاعتقاد.

كانت مونيك قد دعت إلى القهوة بعد الغداء عدداً من الأصدقاء أرادت مني أن ألتقيهم. "ليسوا أصدقاء حقاً"، قالت معتذرة. "زواجك برجل في الجيش، كزواجك برئيس البلدية، متطلَّباتُه كثيرة".

في وقت لاحق من ذلك المساء، جالسين في الحديقة خارج

منزلها، تحت أشجار الصنوبر، أخبرتني أن أمَّ حارس القلعة قبائلية ووالده جنديٌّ فرنسي، أو هذا ما قالته المرأة القبائلية للمسؤول العسكري الذي تركتِ الطفل لديه. "عنده شيء من عنف العرب عند ممارستنا الحبّ"، قالت هامسة مفتخرة، "لكنه يزاول مهنته بحَميّة رجلٍ فرنسي".

"ها نحن ذا، السيد وعقيلته"، قال حارس القلعة دون أن يفلح في الإمساك بمونيك عند عبورها أمامه مسرعةً على الطريق إلى المطبخ. "أغبط منطقتنا. مسافة لا يستهان بها من العاصمة، ولكن يا لها من جنة مأوى، عزيزتي. لا أدري إن كنا قادرين على مواصلة العيش من دونها".

بدأتُ أشعر بضيق حذاء الحفلة على قدميّ. أخذتُ فنجان قهوة من صينيةِ أحد الخدم وجلستُ إلى جواره. سألتُ هل ستطول إجازته.

– إنها ليست طويلة بما فيه الكفاية وطويلة على الدوام في آنٍ معاً، إن كنتِ تدرين ما أعنيه.

"لن تفهمك، سابوريه، لن تفهمك"، استدار رجل عسكري آخر وربّت حارسَ القلعة على ركبته، وأضاف: "النساء يعتقدن دائماً أن وقتنا مُلكنا نتصرّف فيه كما نشاء. يعتقدن أن العمل شيء نفعله للهرب من البيت".

تدخلتْ زوجة الرجل، بابتسامة تكشف أسناناً أمامية علوية كبيرة.

– أنت مخطئ في ذلك، برتران. ليس لدى صديقة مونيك أي خبرة في التعامل مع الرجال أياً كان شكلها. وكما فهمت، فإنها تتمرّن لتترهبن.

سارعتْ مونيك، الداخلة بعد خادمٍ يحمل صينية من البتيفور، للدفاع عني.

قاطعتْها المرأة ذات الأسنان الكبيرة.

- أوه، على مهلك مونيك. لا أسرار بيننا هنا، ولا رسميّات. يجب أن تعرف صديقتك ما قلته لنا عنها! أنتما بالتأكيد صديقتان منذ وقت طويل جداً، وأنا أستغرب انزعاجكما بقليلٍ من البذاءة.

انحنى رجل ضخم، ما كنتُ قد رأيتُه في العتمة تحت أشجار الصنوبر، وهزَّ سبابته دون أن يخصَّ أحداً بعينه.

- كلّكم مخطئون. أنتم تُدينون الفضيلة، وتمدحون الرذيلة. أنتم تضحكون، ولكنكم تنسون أن علينا تقديم مثالٍ يُحْتَذى إذا كنا راغبين في أن تكون الصحراء قابلة للحياة ذات يوم. ما أبعد الجزائر عن فرساي.

"كلام، يا رونار، كلام!"، صاح حارس القلعة وأصحابه.

ظللت لا أقدر على رؤية وجه الرجل الضخم.

واصل كلامه:

- أنتم عبثيّون. كلُّكم. تعتقدون أنكم ترون الأشياء بألوانها وتدرّجاتها كافة لأنكم عسكرٌ ميدانيّون. تعتقدون أنكم تغيّرون الأشياء، ترسّخون الأشياء. لا شيء يتغيّر. لا شيء يرسخ أبداً. ذلك هو التناقض الأساسي لحياتنا. نستطيع أن نرقّع الأشياء، نستطيع أن نرتاح، ولكن ذلك كله خداعٌ في النهاية. لا تكمن مأساة الجزائر في رفضنا تقديم الحلول، ولا حتى في تقديمنا الحلول غير الصحيحة. المأساة هي فقدان أي حلّ. نحن هنا، *colons* [المستوطِنون] هنا،

العربُ هنا، مثلما الوحلُ والرمل موجودان هنا. وحتى لو توجّب علينا الرحيل، فلن يتغير شيء. سيتقدم آخرون بروايات أخرى للواقع. وسيبقى هناك أطفال بعمر ثماني سنوات ينبشون القمامة مع القطط.

"إنه يتلقّى كلماته من الرجل العجوز عينِه. واستُدعي رونار إلى الربّ ديغول فوهبَ الربُّ ألواحَ القانون لرونار. رونار، هبنا وصاياه العشر"، قال حارس القلعة وغصّ بالضحك.

– على رسلك، رونار، نحن هنا لنتعلّم.

انحنى الرجل المدعو رونار واحتفن كمشةً من إبر الصنوبر اليابسة.

"ليتكم تتعلّمون"، قال ونهض ودخل إلى البيت.

"ميؤوس منك! أنت دائماً تسيء إلى رونار"، قالت مونيك لحارس القلعة.

"وهو لا ينقطع عن الرجوع طلباً للمزيد"، أجابها ضارباً بكفّه على فخذها.

نظرتُ بانتباه إلى حارس القلعة. في ضوء القمر، كان وجهه فضياً. بدا أنفه المعقوف الكبير مصنوعاً من الزجاج، متّزناً بدقّة على شاربٍ كذيل الثعلب يُخفي شفتيه. التمعت عيناه. زجاج وحديد، معدنٌ خردة تغاضى عنه الدكتور بن شريف. تساءلتُ هل رؤيته حول الحرب مخططة مثل تصوُّري عن نفسي. أياً كان ما رآه، أياً كان النموذجُ الذي تشكّل في ذهنه، مصنوعاً من الأسماء والتواريخ، من الأسباب والنتائج، أما كان شيئاً لا وجود له شأنه شأن الفتاة العذراء ضخمة الجسد التي توهّم عذريتها أمامه، العاقلة والبدينة، مسرَّحة

الشعر، خفِرة العينين، ذات الجوارب التي انزلقت فوق حذاء الجلد القديم الملمَّع، والبشرة التي ما مسّتها إلا يداها؟

***

أتساءل أحياناً لماذا الحرفيون المجهولون الذين نحتوا القديساتِ في الحجر ورسموهنّ على الزجاج أسبغوا على أجسادهن المحصَّنة غواياتِ الجسد. لماذا فسّروا النماذج المثالية لنكران الشهوات برسم اكتنازاتِ الجسد تحت طيات الملابس مع بشرة مشمشية اللون، وشعور وعيون برّاقة؟ هذا الاستفزاز يرمي إلى المَنع. والشَّجْبُ بحد ذاته يستدعي الغواية؛ طيفٌ مذهل يتجّلى، ثم يُكسَر على دولاب، دولاب السحق[1]. الفتاة الشابة تخترقها دوّامةٌ من أشكال قضيبية تتوالى حادة الرؤوس. أتصوّر أن القديسة كاترين[2] تشبهني كثيراً: ترتدي فستاناً قصيراً ضيقاً، شعرها معقود على شكل وردة، من دون

١ تعرف هذه الأداة للتعذيب باسم "عجلة كاترين". اخترعت في اليونان القديمة وقد ظلت قيد الاستخدام في أوروبا حتى القرن التاسع عشر. كانت الضحية تربط إلى حافة العجلة ثم تكسّر أوصالها بالمطارق، أو تلقى من حافة سفح جبلي، أو توقَد تحتها النار لتشوى، أو تفلَت عليها كلاب مجوَّعة ضارية.

٢ ولدت القديسة كاترين في الإسكندرية لأبوين مسيحيين في مطلع القرن الرابع. جادلت الإمبراطور الروماني مكسنتيوس دفاعاً عن المسيحية وتفنيداً لعبادة الأصنام. حاول الإمبراطور استمالتها ليتزوجها وهي شابة صغيرة جميلة في الثامنة عشر من عمرها، فأجابت بأنها زوجة المسيح الذي حفظت له عذريتها، ولما لم تتراجع عما اعتنقته، جُلدت وعُذِّبت ثم انكسر دولاب التعذيب عندما لمسته، فأمر الإمبراطور بقطع رأسها.

مكياج. إنها صاحبةُ القرار في مَن سيلمس أيَّ جزء من جسدها. العروس المزيَّنة للمسيح. أذلك هو ما يراه فيَّ حارس القلعة؟

كاترين، ذات الوجه الغجري، واليدين الممسكتين بزنبقة، وفي الخلفية الدولابُ السيئ الصيت ومدينةٌ هي الإسكندرية على الأرجح مقسَّمةً على بلاطات ملوَّنة في واحدة من المحاريب السوداء في "السيدة الأفريقية"[1]. ليست واحدة من القديسات الشعبيات. أمُّ الله، فوق الجميع، تحظى بالنصيب الأكبر من الشموع والجدران مغطاة بتقدمات النذور التي تشكر أمَّ الله الأفريقية لتلبيتها الصلوات. الجميع هنا يصلّون من أجل سيّدتنا.

واحدة من أولى صُوَري عن الجزائر، وآخرها أيضاً، هي "السيدة الأفريقية". كنا نركب السيارة من باب الواد، فنجتاز حي سانت أوجين، ونعبر أمام المقبرة الإسرائيلية، أنا ذات الأعوام السبعة أو الثمانية، بابا وراء المقود، ماما تعتمر قبعة قش ملونة، هواء لافح محمَّل بالرمل يهبّ خلال النوافذ المفتوحة، متحولاً ليعبق بالرائحة الشافية لأشجار الأوكاليبتوس التي تنقّط سفوحَ الجبل. لسيدتنا لونُ الدرّاق: وقعت أعيننا عليها في ضوء الغروب، راهبات منمنمات في أردية زرق يدخلن ويخرجن من أبوابها. "لن تكون لي ما لم أصبح أفريقية"، فكرتُ. لا أفريقيا الزرافات والأسود المصوَّرة في البطاقات البريدية – كنتُ أعرف أفريقيا تلك جيداً من قبل – وإنما تلك الحميمة ذاتُ الرمل، الريح الجافة، المنازل ذوات الأرضيات

---

[1] كاتدرائية "سيدتنا الأفريقية" Notre Dame d'Afrique في الجزائر العاصمة، وقد بنيت في سبعينيات القرن التاسع عشر كمقابل لكاتدرائية "سيدتنا الحارسة" التي شيدت في مرسيليا خلال الفترة نفسها.

المبلَّطة، الخنافس الزرق البرّاقة التي تُسرع لتتوارى تحت الأحجار في الظلّ. عندما غادرنا، على متن السفينة المتجهة نحو أوروبا، استدرتُ لأنظر إلى التلال المنقّطة بالأبيض وكنيسة سيدتنا تتلألأ فوقها، متوهجة في الشمس، فأدركتُ إدراكاً مؤلماً إنها، في نهاية المطاف، قد آلتْ إليّ.

البابا لاون الثالث عشر الذي خصَّ البشرَ كلَّهم بقلب يسوع الأقدس سنة ١٩٠٠ منح الذين شاركوا في صلوات الأحد في كنيستنا هذه غفراناً تاماً من أجل أرواح الغرقى. فهمتْ ماما أن هذا الإعفاء سيشمل الأحياء أيضاً وليس الأموات فحسب، وانتابها، منذ أول يوم أحد، شعور غريب بأنها مبارَكة، لمجرد واقعة بسيطة هي أنها وطأت الأحجار القديمة للكنيسة، ووقفت تحت قبة الزجاج المعشَّق الحزين، في حضرة أم الله نفسها المتعالية المطلّة على أوقيانوس من أحجار الأسطحة الزرق، قدّام هذا الدُّعاء: "سيدتنا سيدة أفريقيا، صلّي من أجلنا ومن أجل المسلمين".

يوم أحدٍ تلو يوم أحد، راكعة عند نافذة الاعتراف المشبَّكة، كنتُ أردّد خطاياي لأذنٍ ضخمة لحيمة أصبحتْ، في نثار الضوء الشحيح، فَماً يطالب بصلواتِ الكفّارة، عيناً تراقب ذاكرتي المذنبة. "*Une parole peut sortir du puits farouche*"[1] [قد تخرج كلمةٌ واحدة من هذه البئر الضارية]. كلمة واحدة.

قبل القدوم إلى أفريقيا، حلمتُ وأنا طفلة صغيرة جداً، داخل غرفة

---

١ بيت من قصيدة "دولور" في ديوان **التأملات** (١٨٥٦) لفيكتور هوغو. في قسم من قصائد هذا الديوان، رثا هوغو ابنته ليوبولدين التي غرقت في نهر السين.

في باريس أو ليون من غير بد، حلمتُ بحيوان، أملط كدودة، كانت حلقاتُ جسمه تتباعد لتكشف فتحة وحيدة - عيناً أو منخراً أو فماً أو شرجاً - وقد أرعبني حضوره أكثر من أي شيء آخر بمستطاعي تذكُّره. وخلال ذلك الحلم، وأحلام أخرى ربما، أو أحلام أرغمتُ فيها نفسي على استحضار هذا الحلْم تحديداً، كنتُ أجلسُ، ساعةً بعد ساعة، أراقبُه، عاجزةً عن الحراك، بينما هو يفتح شدقه الأدرد ويغلقه، غامزاً لي بلغة بذيئة وصامتة. عندما صادفتُ للمرة الأولى أذنَ الكاهن في ركن الاعتراف، عاودني الذعر من دودتي المتحوّلة الأشكال وأدركتُ أنها راغبةٌ عن الكلام، وتريد مني التكلم إليها وتلقّي كلماتي كأنها قوتٌ لها.

رحتُ أعترفُ بكل متعة من المتع، بكل لحظة من اللحظات التي أستطيع تذكرها في الأسبوع الذي انقضى وتلذّذ فيه جسدي أو عقلي باكتشاف ما، أو تواصلٍ مع أحد. وبعد كل اعتراف، ولأن التوبة مطلوبة، كنتُ أحرص على رفض المصدر الذي تأتي منه كلُّ متعة، فأغلق النافذة التي يهبُّ عبرها الهواء الدافئ رافعاً ثوبَ نومي؛ ولا أقرب مربى السفرجل التي تذهب بالطعم الخفيف الغثّ لخبز القربان؛ وأخبئ وسط أكياسٍ من الخزامى الـ *chemisier* [القميص] الناعم المطرَّز بدانتيل بروكسيل الذي أرسلته إليّ إحدى قريبتينا في ليون، حتّى اكتشفته ماما وأخرجته واشتكت من أن مقاسه قد ضاق عليّ كثيراً.

ثم، في عيد ميلادي الخامس عشر، على حين غرّة، واتاني إدراك أنني، أمام سائر الناس، ما كنتُ بحاجة إلا لأكون الشخص الذي

أختار بنفسي التصريح عنه. كان بمقدوري تأليف حشودٍ من نفسي في كلمات، أو كان بمقدوري محو نفسي محواً تاماً بالتزام الصمت. كان اللسان أداتي، مثل مقلاة أو إزميل. قررتُ أن أكون شجاعة. اخترتُ تجويعَ الوحش خارج النافذة. وهكذا، في صباح ذلك الأحد، قطعتُ وعداً على نفسي أنني لن أطعمَ ذلك الوحش الرهيب مرة أخرى أبداً. أتذكر الجلوس في السرير ورفع عينيّ إلى الصليب الصغير الذي وضعتْ ماما سنبلتي قمح خلفه في عيد فصح بعيد، والشعور بأنني مستيقظة ومنتعشة أكثر من أي وقت مضى، شعور ما انتابني منذ وقت طويلٍ طويل. ذلك اليوم، ومذّاك فصاعداً، كانت اعترافاتي معتدلة ومألوفة. لم يُذْكَر الدكتور بن شريف قط، وتوارتِ الدودةُ في الظلام.

***

ولكنني، مراراً وتكراراً، عدتُ إلى سيدتنا الأفريقية. لعل السبب أنها لم تتغيرْ أبداً، لأن لونها ورائحتها لم تنَلْ منهما التحولات طوال أعوام الترعرع والفقدان والتجربة، عدتُ إليها، كأن حياتي قد تفتّحتْ في كنف ذلك الجبل ودارتْ حول كنيسته، مركز عالمي، مركز ما آمنتُ بأنه عالمي.

كنتُ هناك، ذات صباح، بعد وقت وجيز من عيد ميلادي الثلاثين، عندما رأيتُه مرة أخرى، الرجل الذي كان تحت صنوبرات مونيك. بالطبع، لم أتعرّف إليه، لم أميّزه من الفور. الفضاء الداخلي لأي كنيسة

يطمس الملامح. سمعتُ كاهناً يقول، منذ وقت ليس بالبعيد، إنّ كلَّ إنسان مجهولٌ تحت نظرة ربنا الذي يُحتضر. كنتُ قد عدتُ لأبدّد يوم الأحد وأهرب من الحَرّ. كان الجو ألطف تحت أشجار الأوكاليبتوس وتراءى منظر الخليج الكبير المجلل ببخار خفيف، بعيداً عند طرف المدينة، مخففاً وطأة النهار. داخل كنيسة سيّدتنا استغرقت عيناي لحظات لتتأقلما مع عتمة الظلال.

عرف من الفور مَن أنا. كان وجهه مغضّناً بالابتسام، وأشار إلي لآتي إلى مقعده. باستثناء متجوّل وحيد، كنا وحدنا في الكنيسة.

– هل أنتِ بخير؟

بدا سؤاله اهتماماً جاداً من جانبه، لا مجرد مجاملة. قلتُ إنني على ما يرام، وعندئذ فقط تذكرتُ اسمَه. رونار. قال إنه عائد للتو من بِسْكرة. كانت "السيدة الأفريقية" محطته الأولى على الدوام، بعد تقديم تقريره إلى القيادة العامة. الخطوة التالية: نزهة وراء القَصْبة[1]. فهل سأرافقه؟ انطلقنا في سيارته ميركوري المتهالكة إلى المباني المقنطرة المتقشّرة الطلاء ذوات الحوانيت الصغيرة والمقاهي التي كُسيَتْ جدرانها بسيراميك أخضر.

ركنّا السيارة في موقف وتمشّينا. كان لرونار الحصة الكبرى من الكلام. أثناء عبورنا تحت إحدى القناطر أشار إلى نافذة مغلقة المصاريع.

قال إنه قد تلقّى دروساً هناك منذ بضع سنين، بصحبة صديق له

١ القَصْبة هي الحيُّ العربي حيث المدينة القديمة بمبانيها العتيقة وأزقتها، مقابل الحي الأوروبي بجاداته الواسعة ومبانيه الحديثة على الطراز الفرنسي.

كان قد وصل للتوّ إلى أفريقيا. كان أستاذهما فرنسياً عجوزاً من بواتييه اعتنق الإسلام، وتبنّى اسم عبد الحليم واحد، وتزوّج الابنة الكبرى لشيخ مصريّ، لكنّها تُوفّيت بعد وقت قصير من زواجهما دون أن تنجب له أطفالاً. تتلمذَ عليه رونار وصديقُه سنوات عدة.

سألتُ رونار هل اعتنق الإسلام أيضاً. قال لا، لاً هو ولا صديقه قد أحسّا أن لديهما الوقت الكافي والحماسة الكافية ليتلقّنا تعاليم الإسلام.

أما أستاذهما، ففرّغَ حياته بأكملها للإيمان. لقد درس الكتب المقدسة أعواماً كثاراً – باللغة العربية، طبعاً – وكان يقال في المسجد أن روح الملاك جبريل تتوقّد في سريرته. كثيراً ما كان ينهض، في عزّ النقاش، فيشرع بالتمايل إلى الأمام والخلف، منشداً لنفسه كلمات مبْهَمة، حتى نبدأ فهمها شيئاً فشيئاً، فيعلو صوته، ويزداد اهتزازهُ عنفاً. كان يتلو "الذِّكر"، الترديد المتكرّر لاسم الله، قال رونار.

ذات ليلة كان صديقه يمرُّ أمام هذا المبنى نفسه عندما رأى ضوءاً أحمر يتراقص وراء دُرَف النافذة. كانا في ذلك الوقت قد توقّفا عن الدراسة مع أستاذهما، ولكنهما لم ينقطعا عن زيارته من حينٍ إلى آخر، جالبين إليه بعض الفواكه أو علبةَ حلويات. قرّر صديق رونار أن يتفقد أستاذه، ويرى هل أحواله على ما يرام. صعد الأدراج، طرقَ الباب، لكنه لم يلقَ جواباً. ثم سمع صوت الأستاذ، عالياً وواضحاً: "*En-nafs jalas!*[1] [النفْس خلص!]" الصديق دفش الباب وفتحه. لم

١ شاعت هذه العبارة العامّية، المنطوقة بالإسبانية، في أوساط الأجانب الذين ارتادوا الحلقات الصوفية في المغرب العربي، إشارة إلى "طلوع الروح وخلاص النفس.

يكن هناك أحد في الشقة المؤلفة من غرفة واحدة. كانت هناك على السجّادة دائرةٌ من رملٍ أحمر، مثل صدأ مطحون. كان ذلك كل ما في الأمر.

قلتُ إنني أشكّك في قصة صديقه.

قال رونار، نعم، ربما عليه أيضاً التشكيك فيها. لولا أن صديقه لم يكن يبدو من طينة الذين يكذبون بخصوص شيء مستحيل كهذا.

– وعلى الخصوص، كما تعلمين، لأنني لا أظنّه مؤمناً بوجود إله. إنه ليس شخصاً حالماً، وبالتأكيد ليس صحافياً. إنه رجل عسكريّ، رجلٌ طيب يحسب أن العالم برمّته سينبطح أمام قدميه. لأنه المركز، تفهمينني. مقياسُ الأشياء. نسمّيه القبطان. كما في قصيدة بودلير[١].

ثم استكمل رونار حديثه.

– تعلمين أن هذه القصة دارجة في شمال أفريقيا. الرجل المخمور بالله الذي يُفنيه، بالمعنى الحرفي للكلمة، هواهُ المقدَّس. تنتصرُ الروح، فتلتهمُ الجسد. ثم تغادر. *En-nafs jalas*. خلاص النفس. برهانٌ على أن جسدنا سرابٌ حقاً.

سألتُه هل صدّق ذلك.

---

١ يتلاعب الكاتب بهذا اللقب في سياق الرواية، لأن "captain" تعني رتبة "النقيب" العسكرية أيضاً، كما يستعير في مواضع أخرى بعض مجازات قصيدة بودلير المشار إليها، وهي قصيدة "الرحلة" التي يقول مقطعها السابع: "أيُّها الموت، أيها القُبطان العجوز، آن الأوان! فلتَرْفع المرساة!/هذه البلاد تُضجرنا، أيها الموت! فلتُبحرْ!/ فإذا ما كان المساء والبحَر أَسودين كالحبر، فقلوبنا التي تعرفُها ملأى بالأَشعّة!/ فلتسكبْ لنا سُمَّكَ ليُنعشنا!/ فنحن نريدُ، وهذه النارُ تحرقُ عقولنا،/ أن نغوصَ في قاع الهاوية، أو الجحيم، أو السماء، ما الفرق؟/ في قاع المجهول لنعثُرَ على الجديد!".

كانت الشمس مبهرة السطوع فكسَت كلّ شيء بغلالةٍ حليبية اللون. كان الرجال -إذْ لم يكن ثمة نساء في الشوارع - يمرّون أمامنا، وأحدهم يشبك ذراعه بذراع الآخر، يتبادلون الأحاديث، ثم يتسمّرون فجأة ويحدّقون بعيداً في البحر المترامي. كان التعب بادياً في عيني رونار تحت الشمس. بدا وجهه المتغضن ناعماً. وودتُ لو مددتُ يدي لألمسه.

اقترح رونار أن يعيدني بالسيارة إلى بيتي. قلتُ إنني لستُ عائدة إلى البيت. اعتذر موضّحاً أن لديه عملاً عليه فعله. هل كنتُ متأكدة أنني لست بحاجة إلى مَن يُقلّني؟ تردّدتُ، ثم ركبتُ سيّارته.

تساءلتُ، مَن سواي سيحبّ هذا الرجل العجوز، العجوز؟ مَن ستتفرّج عليه، يداه على المقود، مستردّاً شبابه بعد الظهر، متألقاً، مغتبطاً؟ تخيلتُ غرفته في الثكنات، خيمته على الرمال، عطلته في فرنسا، ربما في بروتاني، مجتازاً البحرَ عند بزوغ الفجر. مددتُ يدي ووضعتُها على قُذاله. بأدبٍ جمّ، مدّ يده إلى الخلف، وأمسك بيدي وأعادها إلى حضني. فعل ذلك بلطف بالغ كراشدٍ يراعي طفلة.

توقفتْ الميركوري وراء اختناق مروري. كان هناك رجلان عربيّان قد ترجّلا من سيارتيهما وهما يلوّحان بأيديهما بحركات مجنونة. وضعتُ يدي على مقبض الباب، أخبرتُ رونار أنني قد تذكرتُ شيئاً فجأة، شكرتُه وفتحتُ الباب.

***

من هنا، يبدأ الحلم: أنا ساخطة. أحلّ وردةَ تسريحتي المربوطة بشبكة لا تُرى، أنكش شعري بيدي اليمنى. وجهي كالأحجار التي تؤلف قسماتِ القديسة كاترين. أغذّ السير بعيداً عن الماء باتجاه الشوارع الصغيرة التي ترتقي المرتفعات. في المقاهي المفتوحة رجال يلعبون النرد. عندما يُرمى النرد تبقى اليدُ مرفوعة، الراحة مفرودة الأصابع كأنها تجمّدت لتلفت الانتباه. وجوهٌ أوروبية، حليقة الذقون والشوارب، أنوفٌ تعتليها نظّاراتٌ إطاراتها مصنوعة من قرون الحيوانات، ذقون متكئة إلى مقابض المظلّات، رؤوس صلعاء مخفية تحت قبعات هومبورغ أو طاقيات قماشها ذو مربّعات. وجوه عربية واقفة لا تحرك ساكناً، في بيجامات مقلّمة، أو جلابيب رمادية، أو بدلات سوداء برّاقة. وعندما أركض صاعدةً الشوارعَ، تلتفتُ الرؤوس، باستثناء شخص واحد أو اثنين. أخافُ أمثالهما.

في الأزقة الضيقة، أمام الدكاكين المزيَّنة بشرائط من القطن الملوَّن، تحت الشرفات الصغيرة المغطاة بالشراشف والبطانيات، ناقمةً أتعثّرُ. أترك القصْبة ورائي، المدينة تترقرق في الضباب، الميناء يحمرّ كأن ناراً قد أضرِمتْ في الماء. في الأعالي، ألتقط أنفاسي.

هناك، في ساحة صغيرة مشجَّرة بأشجار مغبرّة، بضعة رجال يلعبون *pétanque*[١]. أجلس على مقعد حجري وأتفرّج. أحدهم، أيفعهم سنّاً، يركّز على لعبته. له شعر جعدٌ أسود، وفي محاولة الفوز،

١ البيتانك لعبة بالكرات تُلعب على التراب أو الحصباء، يسدّد فيها اللاعب كرة من فولاذ، رمياً أو دحرجةً، لتصير أقرب ما يمكن من كرة خشبية صغيرة هي الهدف، بينما يبقي قدميه ثابتتين داخل دائرة عند الرمية. النموذج الحالي لهذه اللعبة في العالم آتٍ من البروفانس جنوب فرنسا.

ينعقد حاجباه الأسودان، فيضفي عليه ذلك سحنة كسحنة القطط.
أضحك بصوتٍ عالٍ وأفسد رميته.

يصيح بي بالعربية: "يا حمقاء! ابتعدي وخُذِي جنونك معك!".

أجيبه أنني لستُ حمقاء. إنما جماله هو ما جعلني مجنونة.

أصدقاؤه يضحكون. الارتباك بادٍ عليه. لم يتوقّع مني التحدث بلغته. لقد أحرَجْتُه.

أنهض وأبتعد، مسترقة النظر خلفي بين فينة وأخرى. أراه يجادل أصدقاءه. ثم يلحق بي.

يخيّم الظلام بغتة. الضوء الوحيد آتٍ من السماء السوداء الصقيلة ومن نافذتين صفراوين. لا دكاكين هنا؛ بل بيوت فحسب، وراء حيطان خفيضة طويلة. في غرفة مخفيّة، يصدح صوت بَربارا المبحوح مغنّياً: "نانت"[1].

يلحق بي عند إحدى النواصي. المدينة مُضاءة تحتنا، أما هنا، فأجد صعوبة في تبيُّن ملامحه.

يسألني إلى أين أنا ذاهبة، وماذا أفعل.

لستُ واثقة كيف يتجلّى هذا القسمُ من حلمي. أجزاء منه مؤلَّفة من أحاسيس على جِلدي، أو ذكرياتِ أحاسيس على جلدي. أجزاء أخرى هي روائح، نفحاتٌ من الزعفران، من الشوربْة. أو أصواتٌ، التنفس القلق للفتى، الكلمات شبه المسموعة لبربارا عن محطات القطار والمطر، "*Madame, soyez au rendez-vous*" ["مدام، كونوا

١ إحدى أشهر أغنيات المغنية الفرنسية بَربارا، كتبتها لأبيها بعد وفاته في مدينة نانت.

على الموعد"]. كونوا هناك. كونوا هناك. أهتدي إلى يديه وأرفعهما إلى نهديّ.

ثم يغدو كل شيء واضحاً. تشتعل الأنوار. من الحائط وراءنا صيحاتٌ تأتي. بُعنفٍ تُفْتَح مصاريعُ النوافذ.

رجل يصرخ، بالفرنسية: "عاهرة! في هذا البيت، على مائدتي، أمام ناري! الطعام الذي طبختِه علقمٌ! قطُّ لم يكُنْ لي شيءٌ منك! عاهرة! عاهرة!".

تركض امرأة إلى الشارع، في منتصف حزمةٍ من الضوء. دوراناً مجنوناً يدورُ ظلُّها.

"عاهرة! عاهرة! سأعمي نفسي لكيلا أراك! سأسلخ جلدَ يديّ حيث لمستكِ أصابعي! سأحرق كلَّ ما وقعتْ عيناك عليه في بيتي! أبداً لم يكن لك وجودٌ هنا، أبداً لم يُنادَ باسمكِ هنا. عاهرة! اسمُكِ الآن عاهرة!"

يهتزّ شعرها الطويل كأنها ترقص. الرجل يرتدي قميصاً بلا أكمام يفصل عنقه عن ذراعيه، وذراعيه عن بقية جسمه.

لا يتوقّف الفتى عن ملامستي. تنزلق يداه من نهديّ إلى الخلف، رافعاً سروالي الداخلي، فوق ردفيّ، ثم إلى الأمام مرة أخرى، بأصابعه العشر يجوسُ شَعر عانتي. أتراجع إلى الوراء. يخلع بنطلونه. يتأوّه في الظلام.

"في البستان الحجري، الرحلة الأخيرة، الشاطئ الأقصى"، تغنّي بَربارا.

الرجل على الأرض الآن، عند قدمي المرأة، وما عادت ذراعاها

تتطوّحان في الضوء. إنهما تتدليان إلى جانبيها منهكَتين.

"لا تفعلي، لا تفعلي، لا تفعلي"، يطالبها. ما الذي يريد منها ألا تفعله؟ هل يريد ألا تذهب، ألا تحبّ شخصاً آخر غيره، ألا تستمعَ إليه، ألا تقف هناك وهي تنتظر؟ فتاي يسعى إلى نهديّ مرة أخرى. أدفَع يده عني.

أرى عينيه تنظران إليّ. يريد مني أن ألمسه، ولكني لا أفعل. أسمح له بالانتظار هناك، مداعباً نفسه، ولكنني سأبتعد قبل أن ينتهي. أمامنا، المرأة واقفة والرجل عند قدميها، لا يتحرّكان.

ههنا أختار إنهاء الحلم: أغادر عبر الطريق الذي جئتُ منه. هذه المرة، لا يلاحقني الفتى.

***

ثمة أفعال شخصية سرّية سنخجل منها على الدوام. إنها صغيرة، كالقمل، ولا أحد يعلم بوجودها سوانا. اعترفتُ ببعضها، لأتطهّر منها، في "السيدة الأفريقية"، ولم أبُحْ ببعضها الآخر أبداً لأنّ إفشاءها بدا مستحيلاً، فقد كانت في منتهى الوضاعة والفظاعة. إحداها هو الفتى الذي لا أستطيع تذكر وجهه واقفاً في الظلام. فعلةٌ أخرى: كعكة التفاح التي حفظتها أمي من أجل أبي وأنا، في الخفاء، أكلتُها بعد ظهر أحد الأيام. فعلةٌ ثالثة: شيءٌ قلتُه لمونيك على الشاطئ، حين لم تفعل ما أردتُه. التفاصيل تتلاشى. وثمة فعلةٌ رابعة، عصر اليوم الذي التقيتُ فيه القبطان.

عندما رأيتُ القبطان للمرة الأولى، فكرتُ: "يا لها من بشرة ملساء". كما لو كان اللحمُ قد فُرِّغ من تحت الجلد فلم يبقَ شيء هناك بين البشرة والجمجمة. كان واقفاً خارج باب شقّتنا، واستغرقتُ لحظة مديدة قبل أن أسأله الدخول، كنتُ مأخوذة تماماً بانطباع الخواء هذا.

أخبره رونار أن يتصل بي، ففعل. كان يأمل أن قدومه لم يكن مزعجاً. اقترح نزهة إلى الميناء. كان عليه أن يلتقي بشخصٍ ما في أحد المقاهي، ولكن لن يطول لقاءهما. فهل سآتي؟ من باب الفضول الخفيف وفراغ الوقت، قلتُ: نعم.

أثناء جلوسنا هناك، نرتشف الشاي، لم أعِرْ انتباهاً إلى زميله. كانت الشمس تغيب، وقد بدأت جمهرة صغيرة من الناس التجمعَ على الرصيف البحري غير بعيد عن المكان الذي رستْ فيه قوارب الصيد. بدا الجَمع مُسْتَثاراً: كانت الأصابع تشير إلى البعيد. نادى بضعة رجال على أصدقائهم في المقاهي الأخرى تحت القنطرة. أخبرتُ القبطان أنني سأعود بعد لحظات، واجتزتُ الشارع لأنضمّ إلى المتجمهرين.

"لقد أمسكوا به. إنهم يُحضِرونه، هناك، فوق، هناك"، هتف أحدهم.

أمعنتُ النظر من فوق سياج الرصيف. واقفين على حافات قواربهم كان الصيادون يرفعون شيئاً من الماء بحبالهم، شيئاً طويلاً وكبيراً ومكسوَّاً بأعشاب البحر. كانت أسماك القرش قد نهشت خاصرتيه، وكانت هناك في لحمه الرمادي لطخاتٌ صفراء وزهرية.

كانت زعنفةٌ ظهرية مذهلة قد ظلت سليمة، ناجية من الفتك الذي تكبّده هذا الشيء، أياً كانت طبيعته. أشار إليه العرب وضحكوا.

لم أستطع يوماً تعيين البدايات على وجه الدقة، والإقرار بها على حقيقتها. لم أخبر القبطان قطّ عن وحش البحر الميت. عندما عدتُ إلى الطاولة، كان زميله على وشك المغادرة. معتذراً طلب مني القبطان تناول الغداء في واحد من مطاعم الصيادين الصغيرة المتراصفة في الزقاق الغائر بين الجامع الكبير والميناء.

كان قليل الكلام أثناء الغداء، استمع إليّ فخفّ شعوري بالضيق. وجدتُ نفسي أخبره عن الجزائر وأنا أختلق من أجله نماذج صغيرة، عيّناتٍ من الصور التي لم يخطر لي تجميعها من قبل. تعريف الأشياء يدمّرها. لم يسبق لي قط فرز وتصنيف ذكرياتي وتجاربي ووقائع حياتي التي لملمتُها في وطني الأفريقي، وعند فعلي ذلك أحسستُ أنني أخسر حرية لم أكُنْ أعيها أبداً. كنتُ مخطئة.

أتذكّر أنه سألني هل أعتقد أن الجزائريين الـ*indépendantistes* [المطالبين بالاستقلال] على حقّ.

منذ عامين، تكلّم ديغول هنا، في "الجزائر البيضاء"، وزمجر كممثّلِ متواضعِ الإمكانيات زُجَّ به في إحدى مآسي كُورناي: "لقد فهمتُكُم". أرادَ القبطان أن يعرف هل فهمتُ أنا أيضاً المطالبَ الجزائرية بالانفصال.

لقد عشتُ هنا قرابة ثلاثين عاماً، تكاد تكون حياتي بأكملها، وقد سمعتُ كلَّ الأقاصيص التي كنا - نحن الأوروبيين - نتداولها عن العرب. كنا في أحاديث غرفة الضيوف، في أماسي شرب القهوة في

الحديقة، على أبواب المحلات في شارع ميشليه، نختلق التفاسير لغرابة سحناتهم الواجمة التي لا تبعث على الارتياح، لحركاتهم المنفّرة، لحميمياتهم السرّية. "آه، حسناً، أنتم تعرفون"، ثم تتبعها بنبرة اعتذار ملاحظةٌ تتعلّق بغياب الاستيعاب التامّ لهذه السمة المشينة أو تلك. "آه، حسناً، أنتم تعرفون، ليس لديهم إحساس بالملكية، باستثناء ملكياتهم هم". "آه، حسناً، أنتم تعرفون، إنهم أكسل شعب على وجه الأرض، إنهم جديرون بالبرّية". "آه، حسناً، أنتم تعرفون، إنهم وثنيون". لقد كانوا في المخيلة الفرنسية بمنزلة التنانين أو الأقزام، مجموعة بعيدة عن الواقع ودائمة الحضور وليس لأفرادها وجوه. أما العرب الذين يخصّون المرء، فكانوا بالطبع استثناءات، "إنهم مختلفون تماماً عن الآخرين": محمد الذي يهتمّ بالحديقة، أو محمد الذي يلعب الدومينو في المقهى، أو محمد الذي يحرس المنزل على الشاطئ في موسم الأمطار. إلى أن يحدث شيء ما - النكث بوعدٍ ما، نسيانُ واجبٍ ما، هجومٌ على مزرعة شخص يعرفونه - عندئذٍ تدورُ الأسطوانة نفسها مرة أخرى: "آه، حسناً، أنتم تعرفون...".

أراد القبطان أن يعرف هل لي أصدقاء عرب. لا بد أنني قد عقدتُ صداقات في المدرسة؟ دافعُها الفضول، الانبهار؟ المجازفة بالإقدام على شيء ممنوع في البيت؟ لا شيء من كل ذلك؟ لا أحد؟ لقد ظلّتِ الأجنبيّةُ أجنبية.

كان حديث القبطان طوال الغداء يدور حول "*ces arabes*" [هؤلاء العرب]. كانت له ذاكرة لا تُضاهى في الاحتفاظ بالأسماء، وكان يسلسل الأنساب الطويلة للأصدقاء العرب الذين اجتمع بهم في

غضون خمس سنين، فقط لا غير، من إقامته في أفريقيا. كان يستمتع على ما يبدو بتجميع الوقائع عن الناس، وقد قال لي هذا بطريقة تكاد تكون غير واعية، كأنه كان يحدّث رجلاً عربياً لا فتاةً أوروبية.

بعدما وضع صاحب المطعم زجاجة من النبيذ الأحمر أمامنا، تغيّر صوت القبطان وصار أكثر نعومة. شرع بالإيضاحات، حواشي اقتباساته ومراجعه الدقيقة للعادات القبليّة. وعندما حان وقت رفع الطبق الأول وتقديم الشوربة، كان قد نحّى كل التحفظات جانباً وانغمس بالكامل في حكايات الخصومات العائلية، والمآثر البطولية وقصص الأشباح والمعجزات، وكانت له في جميعها مساهمةٌ لم ينتبهْ إليها أحد، وقد عرف بالمحصلة المزيد عن الناس الذين كان يسمّيهم إخوته. آلمه التمرُّد، لا بوصفه جندياً وإنما بوصفه عاشقاً لهذه البلاد: كان يشعر أن الفدائيين لم يكونوا مجرمين بقدر ما كانوا مفتقدين إلى الإخلاص. كان يشير إليهم بوصفهم "*égarés*"، أي "ضالّين".

كان منكباه العريضان يحدودبان وهو يتكلّم. التجاعيد تخدّدُ وجهه العريض، ما أضفى عليه مسحة مشرقية طفيفة، لم تكن صينية، بل ربما ماليزية أو فيليبينية. كان صوته ناعماً، حتى عندما تتملّكه الحماسة، وكنتُ أحياناً أضيّع مجرى ما كان يقوله، إذ كان صوته يهدهدني وتشتّتني أذناه الكبيرتان بشكلهما الغريب الذي أسبغ عليه مظهراً حكيماً وحيوانياً في الوقت نفسه.

كان يبدو أكبر من عمره. بدا وهو في منتصف أربعيناته بعمر أبي، ولكنني لم أجمع بينهما أبداً في فكرة واحدة من الأفكار التي

تراودني. كان أبي يتحلّى بصرامة موظف هرِم: كان عنصراً راسخاً أليفاً، مَعْلماً في المنظر الطبيعي الخاص بي، يتقدّم في العمر ويتحوّل على نحوٍ لا تدركه العين مثلما تتحوّل المعالم في منظر طبيعي. أما القبطان، فكان له، رغم عُمره، سلاسةُ الماء وعنفوانه. عبر الطاولة كانت عيناه، وشعره الأشيب الممشَّط إلى الخلف، تترقرق بغير انقطاع.

نادل شابّ في سترةٍ متّسخة بالدهون رفع قصعات الحساء. وعندما كان يرفعها، ارتطمت ذراعه بكأسي، ونصفها ملآن نبيذاً، فتهاوت لتتهشّم على الأرض. وقبل أن يتمكّن من الاعتذار، ظهر صاحب المطعم من تحت الأرض، ورفع يده المفتوحة وصفع الفتى، شاتماً إياه على استهتاره. ممسكاً بخدّه انحنى الفتى ليلملم شظايا الكأس. ركله صاحب المطعم ركلة عنيفة. ما انفكّ الفتى يلملم الشظايا.

"حثالة"، قال صاحب المطعم.

"لم نتعلّمْ شيئاً"، قال القبطان.

تساءلتُ للحظةٍ هل سيوبّخ صاحب المطعم، لكنه تجاهله وتحدّث إليّ، كأنّ المشهد الذي شهدناه توّاً قد حدث على خشبة مسرح أو شاشة سينما.

– ولم نعلّمهم شيئاً.

جال بيده في أرجاء الغرفة.

– باستثناء الطاعة. لقد علّمناهم أن الطاعة حسنة. بغضِّ النظر عمّن يتولّى القيادة. علّمناهم أن يرفعوا عيونهم ويشخصوا بأبصارهم. اليوم نحنُ الأسياد. في الغد، قد يكون السيّد واحداً منهم. لا فرق.

صاحب المطعم أحضر القهوة بنفسه. من دون أن يكلّف القبطان نفسه عناء نظرة خاطفة باتجاه الرجل، وضع كمية كبيرة من السكّر في الملعقة وراقبها تدكن وتذوبُ في فنجانه.

- ثمة قصة قصيرة لكافكا، حكاية للعِبرة، مجرد فقرة في الواقع. يختطف الحيوان السَّوط من يد سيّده، ويجلد نفسه لكي يصبح سيداً بدوره. ولا يعلم أن هذا كلَّه حلمٌ تسبّبتْ فيه عُقْدةٌ جديدةٌ في سوط السيّد. مثال مناسب، ألا تعتقدين ذلك؟

ولكنه لم يكن يسألني في الحقيقة.

***

شُدهتُ بقبولي آنذاك، طوال تلك السنين، أحكامَ بابا، وأصدقاء بابا وأناس مثل مونيك وحارس القلعة، حول الخطأ والصواب في أفريقيا. وكأن البلاد برمّتها، مسخَّرة لغاياتي، كانت منزلاً أبيض كبيراً فسيحَ الغرف تجوبُه من دون ضوضاء مدبّرةُ منزل صارمة تتدلّى المفاتيح من خصرها، لا يسائلها أحد، محاطة بقوانين غير معلنة تقضي بما يمكن فعله وما لا يمكن، ومَن سيُعاقَب وكيف ستتمّ العقوبة إذا انتُهِكت هذه القوانين. الأكل بصوت عالٍ مكروه، التزام الصمت مستحبّ، الاغتسال بماء شديد السخونة مكروه، إطالة النظر في المرآة شيء مكروه، المشي على جانب الرصيف البعيد عن الطريق مستحبّ، التفكير في فكرة واحدة لطيفة قبل النوم مستحبّ، التصفير مكروه. الفرنسيون، والجزائريون المُوالون لهم، أخيار. الفدائيون

سيئون. "*Païens ont tort et chrétiens ont droit*" [الوثنيون مخطئون والمسيحيون على حقّ[1]]. صيحة المعركة في الحملات الصليبية.

تحدثتُ، وهو مصغٍ إليّ، عن الأشياء التي كنتُ أشعر أنها تعودُ إليّ – وقد أقول "إلينا" –وأحبّها، أشياء لها روائح ومذاقات وألوان محددة كانت تنوب عن العالم كما كنتُ أعرفه، وما كان للعالم أيُّ معنى من دونها. استرجعتُ قصة سجين من تامانراسيت[2] أرسلوه إلى سجنٍ في نِيم، فترك نفسه يموت جوعاً وعطشاً لكي يعود إلى الصحراء الحجرية التي أكرهوه على مغادرتها. قال: "أنا أعمى، أنا أصمّ، حواسّي سُلِبتْ منّي"، ولكن الحرّاس اعتقدوا أنه قد فقد عقله، فتركوه ينهي حياته. لم أكن أريد أن أخسر أفريقيا، وكان أولئك الذين أرادوا استقلال الجزائر سيأخذونها منّي.

كنتُ أعرفُ ذلك.

***

أعتقد أن جاذبية القبطان كامنة في عينيه أساساً. كان القبطان يشرح الأشياء. كان القبطان يصغي. لم تكن عيناه الشاحبتان، عديمتا اللون تقريباً، تفارقان وجهك عندما يكون معك. كانتا تتحرّيانك، وما إن تعثرا عليك، حتى تلصقا نفسيهما بك مثل حشرتين غريبتين تتشبثان

١ الاقتباس من الملحمة الفرنسية القروسطية **أغنية رولان**، والمقصود بالوثنيين المسلمون الذين غزوا فرنسا في عهد الفتوحات الإسلامية.

٢ المدينة الرئيسية للطوارق جنوب الجزائر، حيث الواحات الصحراوية وجبال الهقار.

بجلدك. لم يكن الأثر منفّراً البتّة: كنتُ أشعر أنهما دافئتان ومطَمئنتان وتلبثان بعد انصرافه. في بعض الليالي، كنتُ أستيقظ متيقنة من وجود عينيه هناك، في الغرفة نفسها، لكيلا تتركاني وحدي. إنْ كانت هناك من سمة حيوانية لهما، فهي إحدى سمات الدعسوقة التي كان الأطفال اليهود في شارعنا يسمّونها *moyshe robeynes*[١]، قطرتا دم مكوَّرتان منقَّطتان تزحفان من الأصابع إلى الإبهام وتعودان من الإبهام إلى الأصابع، كأنهما من دون أجنحة، ولا شيء يظهر من تحت قبّتيهما اللامعتين. كان لدى أحد الأطفال زوجٌ من الدعاسيق، *moyshe robeynes*، في علبة كبريت، وقد درَّبهما على الطيران من العلبة والرجوع إليه.

طوال الوجبة، أوشكتُ أخبره عن وحش البحر المستحيل التصديق الذي رأيتُه، ولكنّ صوتي، مرة تلو أخرى، ما انفكّ يعود إلى الجزائر التي كان راغباً في استكشافها من ذاكرتي، وكانت عيناه بلطفٍ جمّ تستدرجان صوتي لأرجع إلى صورةٍ أو رأي أو واقعة. كانت هناك وقائعُ قليلة وصورٌ كثيرة.

كان القبطان جامع صُوَر، ولعل السبب عائدٌ إلى سطوة عينيه. كان يتذكّر توصيفاً معيناً على نحوٍ أفضل يكاد يفوق تذكره مشهداً رآه بنفسه، وكان أحياناً يطلب مني – لاحقاً، بعد وقت طويل، خلال سنوات باريس، أو في بوينس آيرس – أن أخبره عمّا رأيناه كلانا، لأنه كان يريد من صوتي أن يعيد بناء الصورة من أجله لكي ترسخ

١ "سيدنا موسى" هو المعنى الحرفي لهاتين الكلمتين في اللغة اليديشية، أما *moyshe robeynes kiyele*، فهي "الدعسوقة"، وتعني حرفياً "بقرة سيدنا موسى".

في ذاكرته على نحوٍ أفضل. كان مؤمناً كبيراً بالكلمات، بمقدرة الكلمات على الصمود، بالطريقة التي تقوم فيها الكلمات بتشكيل الأشياء الملحوظة وتعريفها. وخلال مدة معينة، طلب مني تدوين يوميات من أجله، يومياته في الواقع، الأشياء التي كان يفعلها ويقولها، الأشياء التي كنا نفعلها معاً. لم يكن هناك أي غرور في هذا الأمر؛ كان عاجزاً عن الغرور. أياً كان ما كان عليه أو صار (وإن لم يكن يؤمن بالصيرورة؛ كان يقول إن الإنسان "كان"، ذلك كلٌّ ما في الأمر)، فإن القبطان ما بدا مغروراً قطّ. لم يكن يفتخر بالإنجازات. ولكنه كان يمدح الآخرين، أحياناً. أحياناً نادرة، لأنه كان يطالب بشيء أقرب إلى الكمال. وفي بعض الأحيان، عثر عليه.

***

لم أزُرِ الحي الذي يعيش فيه القبطان أطول وقتٍ ممكن. كنا نلتقي عندما تسنح الفرصة، في المساءات غالباً، وأحياناً في أوقات جدّ مبكرة من الصباحات. كنت قد وجدت عملاً في وكالة للاستيراد والتصدير صاحبها ألفونس ليغرو، وهو يهودي لبناني جاء إلى الجزائر في عشرينيات القرن العشرين، فاكتشف في أفريقيا سوقاً لبروكار تولوز الرخيص، وجُوعاً للفواكه الجزائرية المجفّفة في متاجر فرنسا. ولكنْ كان ليغرو يشعر بالخجل في سرّه لتوظيفه امرأة تتولى إدارة أعماله، فكان يختلق أعذاراً لبقة ليدفعني إلى المغادرة باكراً أو القدوم متأخرة، خصوصاً عندما كان يترقب وصول زبائنه، زبائن من قسنطينة

وتِبسة، من مرسيليا أو تُور، كانوا يشعرون بقلة الارتياح لمساومة Madame le Contrôleur [السيدة المفتشة]. استغللتُ حساسية ليغرو المفرطة، وكنتُ أعمل ثلاث أو أربع ساعات يومياً لا أكثر، في حين كنتُ أطالبه براتبٍ كامل فضلاً عن زيادة سنوية أيضاً. أتاح لي الوقت الخالي من العمل الالتقاء بالقبطان قدر ما أريد.

كنتُ أفضّل الصباحات الباكرة، حين تكون الشمس في مطلع شروقها وتبدو المدينة خالية أو تكاد، ونظيفة أو تكاد، وعندما، في بعض الأحيان، تحرّك نسمةٌ خفيفة، تكاد تكون محسوسة، أوراقَ الأشجار على امتداد الجادّات. كنا نجلس إلى طاولات معدنية مستديرة على الرصيف إلى جوار مكتب ليغرو، ونشرب القهوة ونتحدّث. كنتُ مَن يتحدث.

استغربتُ أنه كان جندياً. لم يكن يتصرّف كما أتوقّع من الجنود أن يتصرّفوا. كان يحبّ النظام، كان يحبّ الانضباط، ولكنه لم يكن يحبّ الاستعراضات والحشود والعروض العسكرية. وكان العنفُ غير المبرَّر يسبّب له غثياناً حقيقياً. قال لي ذات مرة:

"الحرب تتبَع استراتيجية. أما الرجلُ الذي يضرب زوجته، الطفلُ الذي يضرم النار في كلب، الممسوسُ الذي يدسّ شفرات حلاقة في ألواح الشوكولاته، فليسوا بشراً، مثلهم مثل أي جمادٍ آخر في الطبيعة".

ذكرى:

نحن نتمشّى في الميناء، وراء مرسى قوارب الصيد، على امتداد الأحجار الإسمنتية التي تؤلّف سور البحر المتداعي. ثمة خِرَقٌ

طويلة من بقايا النفايات ترتطم بالسُّور، وأحياناً تصعد السلالم التي تفضي من الماء إلى الطريق، وتتعلّقُ كالأُعطيات بالمسامير الصدئة في الإسمنت. النوارس التي تتصيّد طعامها تنادي بأصوات مبحوحة خشنة.

نخطو بحذر من حجر إسمنتي إلى آخر، ملاحظين التجمع الغريب للورق والبلاستيك والقماش والصفيح والخشب، والنوارس تحلّق وتهبط، واحداً واحداً، وراء قطعة كبيرة مكسورة من الإسمنت المسلَّح. ثمة قطٌّ محصورٌ بين حجرين إسمنتيين، براثنه عالقة في أحد الشقوق. إنه هزيل وصغير للغاية، ويكاد يكون وجهه كلّ ما نستطيع رؤيته منه، مرفوعاً مكشّراً عن أنيابه للنوارس. إنه أسود ودامٍ، إذ كلما حطّ نورسٌ، نقرَ عينيّ القطّ.

أحاول طرد النوارس وانتشال القط من بين الأحجار، ولكنني أدرك أنه ميت عندما أمسك به، قطعة رخوة من الوبر القذر. ألتفت لأنظر إلى القبطان. لقد استدار عني وهو يتقيأ في البحر.

يعتذر عن ضعفه، ولا يقول شيئاً آخر، بينما يبقى الشحوب والوهن باديين عليه بعد ذلك، قرابة ساعة كاملة.

***

كان القبطان يكبرني بحوالى عشر سنين لكنه بطريقةٍ مطمئنة جعلني كبيرة في السن أيضاً. سمحت لي طريقته بأن آخذ وقتي، أبطئ إيقاعي، أشعر بالثقل اللذيذ لجسدي الذي بدأ يكتنز في أعلى الذراعين، حول

خصري، أسفل فخذيّ. كنتُ أراقب جلده النحاسي المتغضّن مزموماً حول عينيه الجاحظتين كأعين الحشرات، الشعرَ الأبيض المجزوز مثل سنابل القمح بعد الحصاد، الأصابعَ العاجية الجميلة التي تتقارب بَنانُها وتتباعد أثناء إنصاته، وكنتُ أشعر بالانشداد إلى عمره، بعيداً عن الأحلام القلقة والإشاعات العارية من الصحّة، إلى مكانٍ أصبح فيه الحديثُ، للمرة الأولى، ممكناً.

دعاني إلى شقّته وهو يوشك أن يعتذر، مقترحاً عليّ خيار ألا آتي، ومؤكداً أن رفضي لن يجرحه. بوساطة رونار الذي كان يفضّل العيش في الثكنات، عثر القبطان على شقة في شارع ميشليه، "شارع السلطات"، كما كان الجزائريون يسمّونه.

حملَنا مصعدٌ من الحديد المطروق المزخرف إلى الطابق الثالث. كانت الشقة مؤلفة من خمس غرف ومطبخ وحمّامين، وقد أبقى القبطان جميعها فارغة، أو فارغة تقريباً. ففي إحدى الغرف، كان هناك سرير من طراز لويس الخامس عشر، مذهَّب ومطلي بأخضر ليموني. وفي غرفة أخرى ثمة كرسيٌّ عتيق وطاولة مصمَّمة من حاملين ثلاثيّي القوائم ولوح خشب. سحب كرسياً واطئاً – قطعة الأثاث الأخرى الوحيدة – لكنه لم يقدم كلمة توضيح واحدة حول التأثيث المزري. لم أسأله. كانت هناك كتبٌ على الطاولة المتنقّلة – كامو وسيلين ودريو لا روشيل وشاتوبريان وهمنغواي، على ما أعتقد – ولكن ذلك هو كلّ ما أريد تذكّره. مارسنا الحب، ولكنني لن أتذكر ذلك.

***

عوضاً عن ذلك سأتذكر عشاءنا الأول في البيت، في دارة والديّ. بدت ماما غاضبة من فكرة دعوته أساساً. أعتقد أنها كانت قد يئست من فكرة زواجي - "في الثانية والثلاثين تكون المرأة قد اتّخذت قراراً، وإن لم تكن قد اتّخذته، فسوف يتخذه الجميع نيابة عنها"، كانت تقول - وقد بدت لها المحاولة برمتها هدراً للوقت والجهد. ولكنها فردت غطاء المائدة المطرز من ليون، وأمرت الخادمة بغسل الكؤوس الطويلة مزخرفة البلور، وأمرت الطبّاخ بتحضير *boeuf aux lardons* [لحم البقر بدهن الخنزير ولحمه] "لأن الرجال يحبون اللحم الأحمر". بدا بابا مذعوراً. كنتُ أتساءل هل يتخيل ابنتَه، ابنته العنيدة والكبيرة الآن، تقارن أصدقاءها الذكور - قليلهم الذين كان يعرفهم - بما آل إليه، بالأحمق الذي صار عليه، المهزوز والمتردّد والمليء بالعلل والأوجاع، خللاً يتعذّر إصلاحه، ساعةَ حائط أعطبها الماء. كنتُ أمازحه وأكلّمه جدياً، ولكنه أصيب بتأتأة مؤلمة، وكان إذا حاول الإجابة أو إقحام نفسه والتصرف كما كان يتصرف عندما كنتُ فتاة صغيرة - يتداخل مع صوتهِ صوتي أو صوتُ ماما - أعاقته التأتأة وأخّرته، فكان يستمع إلى أصوات الآخرين التي تسبقه ودموع الإحباط في عينيه، تاركة إياه وراءها. استعاض عن الجدال بالرفض القاطع الذي بات يختزل كلَّ أحاديثه؛ فبدلاً من الكلام الرنّان والسخرية البارعة والـ*bons mots* [الكلمات اللمّاحة]، صار يقول: "كلا! كلا! كلا!" بالحدّة وعلوّ النبرة والسرعة التي تُتيحها له تأتأته، وكان أحياناً يخبط بيده الضخمة على الطاولة، ناثراً الملح في إبريق النبيذ. "لكنك مصمم على جلب النحس إلينا"، كانت ماما تشكو،

وترشّ قليلاً من الملح على كتفه اليسرى، وكان ذلك يستفزّ بابا كثيراً.

تفهّم القبطان مأزق بابا من الفور. بعينيه المسلَّطتين عليه، رجلاً كبيراً في السنّ ينظر إلى رجل أكبرَ منه سنّاً، تحدّث القبطان إلى بابا كأنه يؤكد أفكار بابا. لم يكن يتحدّث بقدر ما كان يقرّ بتلك الأفكار - أو ربما يعيد صياغتها لتُفهَم على نحوٍ أفضل - فينقاد الحديث بطريقة تفضي ببابا إلى هزّ رأسه موافقاً، إذ بدا له، ولبقية الحاضرين، أن القبطان لم يكن يردّد إلا ما كان بابا قد صرّح به مسبقاً. كان تقديراً لطيفاً، ومنفَّذاً برهافة، ومن أجل ذلك أحببته.

- ذلك بالضبط ما يجب علينا سماعه، مسيو. واجب الجيش تجاه الأمّة، وليس تجاه الشعب. ذلك صحيح تماماً، وعلينا جميعاً أن نتعلّم منه، فنحن جميعاً نخدم قضيةً أعظم ليس الجيش والشعب إلا مرهونين لها وحدها. والآن، بخصوص موقع إيطاليا في أفريقيا الشمالية، ألا يمكنك القول إن الطليان قد أثبتوا قلة استحقاقهم؟ هل توافقني؟ عليّ القول، بصفتي جندياً، كلامك لا يُعلى عليه، أما بصفتي دارساً للتاريخ، فبمستطاعي أن أرى كم تأمّلتَ هذه المعضلة مليّاً.

وبابا يهزّ رأسه ويبتسم، والقبطان يردُّ بالابتسام، من دون أن ينظر أبداً إلى يديه اللتين ترتجفان أو الزبد المتطاير من زاويتي شفتيه. بعدما أتى الـ*boeuf* [لحم البقر] وراح، وعند تقديم حلوى باريس- برست، استفسرتْ ماما هل نال القبطان شرف اللقاء بالجنرال ماسّو[1].

١ الجنرال جاك ماسو (١٩٠٨- ٢٠٠٢)، شارك في تحرير فرنسا من الاحتلال النازيّ، وكان قائد الفرقة العاشرة للمظليين في معركة الجزائر، والتحق بالحروب الفرنسية في الهند الصينية والعدوان الثلاثي على مصر، ثم عُيّن قائداً للقوات العسكرية الفرنسية في الجزائر، واعترف لاحقاً باعتماده التعذيب والإعدام

أجاب القبطان بأنه قد التقاه حقاً.

تمادت ماما في الاستفسار، وسألتْ هل سيرى القبطان الجنرال ماسّو مرة أخرى.

أجاب القبطان بأنه يعتقد ذلك.

استكملت ماما، في تلك الحالة، سوف تلتمسُ معروفاً من Monsieur Le Capitaine [السيّد النقيب]. هل سيتفضل بإيصال رسالة إلى الجنرال ماسّو من إحدى معجباته - لا داعي لذكر الاسم، فهو اسم لا يعني شيئاً بالنسبة إليه، وفضلاً عن ذلك، الرسالة من امرأة كبيرة في السنّ مثلها (هنا اعتراضات من القبطان، تهشّها ماما بيدها المتبرّمة) - تعرب له فيها عن عميق إعجابها وامتنانها، نعم، امتنانها، إثر تعليقات معينة كان الجنرال قد أشهرها علناً بخصوص مفهوم المحبة المسيحية.

أجاب القبطان بأنه قد يوصل الرسالة فعلاً، وسأل هل تأذن له بمعرفة طبيعة هذه التعليقات لأنه لم يصادفها في الصحافة.

أخبرته ماما أن هذه التعليقات قد نقلتها نشرة الأبرشية التي يحرّرها الأب مارسيال، وأن ما أشار إليه الجنرال ماسّو هو حقيقة أن تفسير المحبة المسيحية في الحي الأوروبي - لم تستطع منع نفسها من الاعتقاد بأن الجنرال كان يشير في المقام الأول إلى الفرنسيين، لأن الإيطاليين والإسبان، بالدليل المثبت، كانوا أقل ذنباً منهم في اقتراف هذا الخطأ - في الحي الأوروبي، قالت، وقع تفسير المحبة

الممنهَجين ضد المعتقلين الجزائريين. شارك في محاولة انقلاب فاشلة ضد شارل ديغول بسبب قرارات الأخير في حرب الجزائر وقبوله التفاوض مع "جبهة التحرير الوطني".

المسيحية، أنبل الفضائل الكبرى، ضحيةَ تفسيرٍ مسيء أو معادٍ للأمّة.

"نحن نحـْ-نحـْ-نحْمي المُجْـ- مُجْـ-مُجْـرمين"، أفلح بابا في المناورة.

فأجاب القبطان: "غالباً ما نحميهم بالتأكيد. سأكون فخوراً، مدام، بنقل استحسانك إلى الجنرال".

تغضنّ وجه ماما وهي تبتسم.

أخبرني القبطان لاحقاً أن تصرفه لم يكن بكامله من باب اللياقة، فقد أحبّ والديّ عن صدق، وهما يتبنّيان كلّ المفاهيم التي يرتكز عليها المعنى الكامل لـِ "*être français*" [أن يكون المرء فرنسياً]. قال لي تلك الليلة، "نحن بحاجة إلى تعريف هويتنا. فمن دون تعريفات ليس ثمة فهمٌ ولا إنجازات. التعريف يقتضي الرقابة والتشذيب والتشويه، ولكن سنكون منافقين لو ادّعينا أن بإمكاننا التوصل إلى أي شيء من دون تعريفات. وذاك هو المقصود بالقول إن الناس أمثال والدَيك هم ملحُ الأرض".

ربّت على قميصه حيث كان بابا، في مسعاه لمصافحته، قد دلق نبيذه.

***

تحدث أشياء. نحن ساذجون في اعتقادنا أن الفعل سببٌ وليس نتيجة؛ وأن بمستطاعنا، إذا شئنا، المضيّ أبعد من الخطوة الأخيرة التي اتّخذناها، واختيار وجهتنا. الجزائر. باريس. بوينس آيرس.

تزوّجنا في السادس من أغسطس ١٩٦١.

سألتْ ماما ألم نكنْ نفضّل الزواج عند الرجوع إلى بلدنا الأول. إذ تفشّت حالياً إشاعاتٌ في الحي الأوروبي طوال شهور، مروّجة لخروج الفرنسيين الجماعي. كانت هناك مبيعات للعقارات بأسعار مخفضة، لوحاتٌ في واجهات المحلات، دعايات في الصحف، تشي بتصفيتهم الممتلكات. لم يقل أحد "سنغادر"، ولكن الجميع كانوا يعرفون أن وقتنا في أفريقيا قد انتهى. قال القبطان إنه يتفهّم الوضع، لكننا سنقيم الحفل هنا، ولعلّ العرس هو إنجازنا الأخير في الجزائر. قال هذا على مائدة العشاء، حيث قد أمسى له الآن كرسيٌّ مخصَّصٌ كلَّ مساء تقريباً، إلا عندما تكون لديه انشغالات خارج الجزائر العاصمة. الآن، على ما يبدو، وقد بلغت تأتأة بابا حداً لا يستطيع فيه حتى أن يتكلّم، خوّلتْ ماما القبطان معظم القرارات: اختيار النبيذ، موقف البيت من تصريحات الحكومة.

نمتُ نوماً سيئاً في الليلة التي سبقت الزفاف. كان الحرّ لا يُطاق أثناء النهار، ولم يكن الليل يخفّف وطأته. كان البعوض بطنينه المزعج وراء الستائر ناعمة التخاريم، ويتسلل أحياناً متثاقلاً في الهواء اللافح إلى حدٍّ أفقده ضراوته، فيلتصق بجلدي الدبِق. كانت شراشفي مبلَّلة قبل الفجر، فاستيقظتُ دون أن أحسم أمري هل سأستبدلها أم ببساطة سأنتظر طلوع الصبح وأنا أقرأ كتاباً. قرّرتُ الجلوس أمام نوافذ الشرفة. حافيةً مشيتُ إلى غرفة الطعام.

كان بابا مستلقياً على السجادة السوداء. بدت الغرفة حواليه كأن لصاً محترفاً قد نبش كلّ أغراضها. لم يكن هناك أي شيء في موضعه،

ومع ذلك كان مرتّباً بطريقةٍ معينة. في غمرة انذهالي بأن أرى بابا ممدَّداً على الأرض، واستعجالي للاتصال بالإسعاف، لم أنتبه إلى أن الغرفة بأكملها كانت بمثابة العَرض؛ لاحقاً فحسب، أثناء انتظار وصول الطبيب، فهمتُ مغزى ذلك العَرض.

كانت المائدة مفروشة بالغطاء المخرم المطرَّز الحافات من ليون. طابع بريدي فرنسي مقصوص من مغلف رسالة وماريان[1]، في قلنسوتها الثورية، موضوعة – بهذا الحجم الضئيل، وفي هذا الموضع المحيّر – نصب زجاجة من نبيذ بورغوني. كانت هناك كتب عدة مصفوفة حول الزجاجة، مشكّلةً جداراً أحمرَ – مجموعة بابا من الكلاسيكيات المجلَّدة بجلد مغربيّ: راسين، كورناي، فكتور هوغو، دوديه. (ظلَّ **تارتاران**[2] العمل الأثير لدى بابا دائماً، وكان يقول "إنه عملنا الكلاسيكي الوحيد عن *pied-noir*[3] [صاحب

١ رمز الجمهورية الفرنسية الذي لا يزال يزين طوابع فرنسا. راجت لماريان صورتان متناقضتان منذ القرن التاسع عشر، والكاتب هنا يشير إلى صورتها وهي تعتمر القبعة الفريجية (أو قبعة الحرية بعد الثورة الفرنسية) ممتشقة سيفاً وكاشفة صدرَها.

٢ رواية ألفونس دوديه التي طُبعت سنة ١٨٧٢ تحت عنوان **المغامرات المذهلة لتارتاران التاراسكوني**، ورنين البربر أو التتار واضح في اسم بطلها. يقرر تارتاران، الشاب البدين ورئيس الصيادين في تاراسكون جنوب فرنسا، الذهاب لصيد الأسود في جبال الأطلس في الجزائر، فيعدّ العدّة لحملة صيد ويجهّز العتاد والأسلحة ويبحر مركبه من مرسيليا إلى الجزائر العاصمة. يربط مانغويل بين مصير بطل رواية دوديه وأصحاب الأقدام السوداء، إذ بعد العديد من المغامرات التي لم يحالفها الحظ في الجزائر، يعود تارتاران مفلساً إلى بلدته تاراسكون، ولكنه قد نال المجد بعد قتله أسداً مروَّضاً أعمى.

٣ ليس هناك تفسير أكيد لهذه التسمية، ولكن يقال إنها تعود إلى اسوداد الأقدام

القدم السوداء]". لا كتبَ لكامو: كان يسمّي كامو "ذلك الصحافي المدّعي من وهران[1]". كان العلَم الفرنسي - وهو نموذج علم صغير أهدي إليه، مع ميدالية فضّية، منذ سنوات بعيدة في نادي الشطرنج - موجوداً هناك، وكذلك منفضة ديوبونيه ذات اللونين الأبيض والأزرق، وبطاقات بريدية من بروتاني والنورماندي: فلاح بروتوني في زيّه التقليدي، كوخ صغير أبيض في منظر طبيعي صخريّ، صخور إترِتا التي لم أرَها قطّ، والتي تردّد صداها في ذاكرتي بعد سنين طويلة، ذات صباح قبل بداية الصيف.

كان قد زيّن الغرفة بالرموز الصريحة لفرنسا. لقد أراد، ربما لعلمه أن جسده وعقله يودّعانه، توكيد انتمائه، وكان هذا التوكيد رفَضاً في الوقت نفسه. بغتةً شدّد بملء إرادته على إشهار هويته الفرنسية

الحافية التي كانت تدوس العنب في المعاصر لصناعة النبيذ. إجمالاً تُطلق هذه التسمية على المستوطنين الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر أو ولدوا فيها خلال الاستعمار الفرنسي (١٨٣٠- ١٩٦٢)، فضلاً عن أقلية صغيرة من أوروبيين آخرين ويهود. بعد استقلال الجزائر، عادت الأغلبية الساحقة منهم إلى فرنسا، خصوصاً جنوبها، وعاد معهم الحركيون الجزائريون الذين كانوا موالين لفرنسا وتعاونوا مع جيشها ضد الفدائيين. طالب أصحاب الأقدام السوداء بالتعويض عما خسروه من ممتلكات في الجزائر، واحتجّوا لأن الحكومة لم تحسِن استقبالهم ولأن الفرنسيين في بلدهم الأمّ قد احتقروهم، كما راجت عنهم كليشيهات عدة، سلبية في مجملها حالياً، فهم عنصريون، برجوازيون، لصوص استعماريون سرقوا أراضي العرب، يتحدثون بصوتٍ عال، وفي الانتخابات، تصوّت غالبيتهم لليمين المتطرّف.

١ وُلِد ألبير كامو في الجزائر، وكانت أولى محاولاته الصحافية فيها وأجرى العديد من التحقيقات الميدانية عن معاناة الجزائريين. كانت الجزائر مسرح العديد من رواياته مثل **الغريب** و**الطاعون** التي تدور أحداثها في وهران. لا تزال مواقفه وآراؤه حول الجزائر وأصحاب الأقدام السوداء مثار جدل في فرنسا.

الصرفة؛ لم يشأ أن يموت أفريقياً.

لم يتأجّل العُرس. كان القبطان سيغادر في مهمة في تلك الليلة عينها، وألحّتْ ماما، بإصرار غريب، على تنفيذ ما خطّطناه، بينما كان جثمان بابا مسجى في ردهة الحانوتي. انتقلنا من العُرس إلى الجنازة، كأن هذه المتوالية قد خُطّط لها من قبل، فتحوّلت الثياب الزاهية لضيوف العرس إلى الملابس الداكنة للمشيّعين، والأب مارسيال، بعد إلقائه خطبة صغيرة عن واجبات الحياة الزوجية (كان نصُّه مأخوذاً من رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس)، تكلّم في جنازة بابا عن وعود بولس الرسول بالجنّة. وللحظة خشيتُ من احتمال أن تختلط عليه الخطبتان.

بعدما انتهى اليوم، وودَّعَنا القبطانُ، أنا وماما، على وعد رجوعه في أقرب وقت ممكن، وقال آخر الأصدقاء "تصبحون على خير"، وهمست ماما أنها ذاهبة لتنام، وجسدها متهدّل ومزوّى تزوياً غريباً، كأنها قد هوجمت باللكمات على بطنها وصدرها، وأنا أطفأتُ الأنوار في غرفة الطعام التي كانت الخادمةُ المولعة بالروتين قد قامت الآن على إعادة ترتيبها من جديد، حينذاك فقط نظرتُ خارجاً إلى المصابيح الصُّفر في ظلام أغسطس القائظ، وشكرتُ بابا لأنه منحني، رغم تراجعه عن قناعاته، إحساساً بالانتماء إلى المكان وحرسه من أجلي، بكل ما أوتي من قوّة، حتى النهاية حين اعترف بولائه الحقيقي ومات، بعد أن أرهقته أو بلبلته السياسةُ والتاريخ.

عند رجوع القبطان - كنا قد اتفقنا على العيش مع ماما في المنزل الذي صار ملكاً لها الآن - أخبرنا أننا سنعود إلى فرنسا في

القريب العاجل. "إنهم يتحدثون عن هدنة فرنسية-جزائرية. آن أوان الرحيل".

"كان بابا سينتظر"، قالت ماما.

ومكثنا تسعة شهور أخرى ونحن نتخلّى على مهل عن أجزاء صغيرة من حياتنا اليومية. وكلّما حُزِم صندوق شحن آخر، قلّتِ نقاط العلّام التي يمكنني الاهتداء إليها حولي، كأن الواقع نفسه المحيط بنا كان يتلاشى، ونحن أيضاً، عند نقطة معينة، سيلتهمنا هذا التلاشي.

رفضت ماما السفر بالطائرة. يوم ١٧ يونيو ١٩٦٢، في السابعة صباحاً، ركبنا السفينة إلى مرسيليا. بقيتُ واقفة على سطح السفينة معظم الرحلة وأنا أنظر إلى الوراء. كانت الصورة الأخيرة الصافية للجزائر هي "السيدة الأفريقية" متلألئةً كقلعةٍ من الرمل على سفح الجبل الذي يتوارى.

باريس

مَن أنا؟

أتخيل نفسي في قاعة للمرايا، ولكن كل مرآة تعكس لي وجهاً مختلفاً. إنهم جميعاً نَفسي، ولكن أيّهم يتعيّن عليّ اختياره؟ لأن الاختيار واجب. كأن المطلوب مني تقديم صورة شخصية لجواز السفر، ظلاً صغيراً مربّعاً مصوَّراً عن نفسي. أيّهم إذن؟ بأي عُمر؟ بأيّ لِباس؟ بأي مزاج؟ على أي مسافة من الكاميرا؟ في لقطة عفوية أم مدروسة؟

لو نظرتُ إلى الوراء على عجل، فالصورة مرعبة. فتاة عمرها سبع سنين تركض حتى يحمرّ وجهها، وجه مراهقة على جسد قصير، جسد ينمو، تسريحات الشعر تتغيّر، جذع جسمي في الثلاثين حاملاً أناي الصغيرة المليئة بالغمّازات، التقدم بالعمر، التقدم بالعمر، فوات السنين. واقفة في فستان أبيض مخرّم، طياته عديدة، منسدل إلى الأرض بطريقة مائلة، الكتفان عاريان، وردة بيضاء من الساتان مثبتة بدبوس أيمن صدري. الفستان يتقاصر، يميل لونه إلى الأحمر، يتفشّى الزهريّ في فساتين متعددة

الطبقات. إنه الخريف الآن. كم عُمري؟

***

في صيف ١٩٦٤ – أم تُراه ١٩٦٥؟ – اكتشفتُ أنني حامل. كان القبطان مسافراً لتأدية عمله، وأنا جلستُ في مطبخنا الباريسي ونوافذه الطويلة المتقشّرة الطلاء مفتوحة على الفِناء، وأعددتُ هذه القائمة:

– العينان: واسعتان، لونهما بني غامق.
– الشعر: طويل للغاية عادة، أسود اللون. ما قصصْتُه في تسريحة قصيرة أبداً.
– الأنف: أفطس. تقلّص حجمه عندما كبرتُ. وفي نهاية المطاف، على ما أعتقد، سيناسب وجهي.
– العنق، الذقن: مكتنزان. صلبان.
– الفم: منمنم. رأيتُ شفاهاً كشفتيّ على المزهريات الإغريقية. ساحر، ولكن يبطل سحره عندما أبتسم.
– الجسد: كبير، ضخم الجثّة. باستثناء الساقين. الساقان ممشوقتان. جسد مينوتور[١]، جذعُ حيوانٍ على ساقَي امرأة. الجسد مسكونٌ الآن.

١ في الميثولوجيا اليونانية، الوحش المعاقب بالحبس في متاهة ديدالوس في جزيرة كريت، نصفه ثور ونصفٌ إنسان، وقد تخيله دانتي برأس رجل وجسد ثور.

لعلّ هذه هي الصورة التي يتوجّب الاحتفاظ بها. كنتُ، على طاولة المطبخ، أعرّف نفسي. مرآة في مرآة.

في الصالون، حالما فتحتُ باب الشقّة، تمرأى جسدي في المرآة التي تعكس الجسد بكامله والمنصوبة داخل إطار مذهّب ثقيل. كانت الإضاءة في الصالون شحيحة، ولا يكاد أحد يستطيع أن يتبيّن هويّة الانعكاس أمامه، ولاسيما عند قدومه من وهج الشارع. كان المرء يعرف مَن هو ومَن هو المنعكِس في المرآة، لكنّ عينيه عاجزتان عن التحقق مما يراه. كانت قبعة فيودورا الخاصة بالقبطان معلقة هناك على الدوام، مثل طيفٍ يذكّرني به. كان هذا يحفّز أفكاري.

كانت الشقة تقع في شارعٍ أمسى مقصداً سياحياً منذ ذلك الوقت؛ والآن قيل لي أن حفرة ليه هال[1] قد رُدِمت وتغيّرت ملامح المنطقة بما يناسب الذوق البرجوازي، ونُقلت المومسات مسافة أبعد باتجاه الشمال في شارع سان دُني[2]، على امتداد الجادّة حيث حمل القدّيسُ الذبيح رأسَه المقطوع على طريقه إلى جبل الشهداء.

كانت المدينة خالية في الصيف، وكنتُ آنذاك أشتاق إليه أكثر،

---

١ كانت منطقة ليه هال في قلب باريس سوقاً تقليدياً انتهى وجوده مطلع السبعينيات، وبني في موضعه مركز تسوق ضخم.

٢ اقترن شارع سان دُني بالدعارة منذ العصور الوسطى حتى الوقت الحالي، وهو أحد أقدم الشوارع في باريس، ويمتدّ من مركزها إلى شمالها حيث يقع حي مونمارتر الذي يعني اسمه "جبل الشهداء". سُمّي هذا الشارع على اسم سان دُني، أسقف باريس في القرن الثالث وشفيع فرنسا في الكنيسة الكاثوليكية، لأنه الطريق الذي سلكه هذا القديس حاملاً بين يديه رأسه المقطوع الذي كان يلقي موعظة على الناس طوال الطريق إلى مونمارتر، أثناء حقبة اضطهاد المسيحيين تحت حكم الإمبراطور الروماني ديسيوس.

غياباً تلو غياب. كان نصف المقاهي والمخابز والمحلات مقفلاً. كان الهواء الدافئ يذكّرني بموطني، إلا عندما يصير عالي الرطوبة، وكنتُ أرتّب قوائم بالأمكنة التي سنزورها معاً حين يعود. لقد زرنا حقاً تلك الأمكنة، في بعض الأحيان، وكنتُ أدوّن أسماءها في مفكّرة اليوميات التي كنتُ أحتفظ بها من أجله، ولكنني معظم الصيف كنتُ أمشي وحدي. كنتُ أمشي في غوت دُوْر[1] أمام الأكشاك الشمال أفريقية، وأرى الجلابيب والصنادل والقلنسوات، لكنها كانت أجنبية هنا، وأنا لم أكن أجنبية مثلها، حتى لو كان بعض أولئك الأجانب قد عاشوا هنا وقتاً أطول مما عشته بكثير، لأن هذه هي أوروبا، وتلك هي أفريقيا، بلاد الغال وقرطاج. في إحدى المرات، حاولتُ التحدُّث إليهم بالعربية، إلى رجل قبائلي طويل يبيع أساور من خشب، لكنه ضحك كأنني أؤدّي مشهداً ساخراً لا ينطلي عليه. لم ألبث أن هززتُ برأسي لحارسة المبنى، البرتغالية، عندما كانت تكلّمني عن "هؤلاء المغاربة القذرين" الذين يأتون ويبسطون حلّيهم الرخيصة على سجاجيد قاتمة في شارع إتيين مارسيل.

تغيرتُ بسرعة كبيرة لم أكد ألاحظ معها حدوث هذا التغيير. الخطوط المتعددة الألوان لمترو باريس حلّتْ في مكان الشبكة المدوّخة من شوارع الجزائر ذات الأدراج. خفّت حدّة التوابل. صار الطعام أرقّ وأنظف، طازجاً في حالته النيئة، منسّقاً ببساطة أنيقة. جسدي القوي نفسه بات متهدّلاً. شحُب جلدي. بات الصمت

١ Ghoutte d'Or أي القطرة الذهبية، حيّ في الدائرة الباريسية الثامنة عشر، سكنه، ولا يزال يسكنه، الكثير من المهاجرين من شمال أفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى، فيه سوق شعبي والكثير من المحلات الأفريقية.

من ذهب. باتت المقدمات الشكلية ضرورية. ازدادت المسافات. تقاربت المدن. اعتدل الطقس. صارت الزهور باهظة الأسعار. رخُص اللحمُ المشويّ.

ومع ذلك، كان هناك أناس لا أعرفهم أبداً ينادونني بالأخت، المنفية مثلهم. كان الجيران يسألونني عن أفاعٍ سامّة ووصفات إعداد الكُسكس. كانت كلمات *Allergie Algèbr, Algues*، [أشنيات، جَبْر، حساسية][1] تقفز في وجهي من صفحات الجرائد. وسرعان ما بات الركّاب يُخلُون لي مقعداً في المترو، فأحقية الجلوس بالترتيب التالي: أولاً المحاربون العَجَزة، ثانياً المدنيون العَجَزة، ثالثاً الحوامل. حياتي وسط المُعاقين.

***

ذات مساء دعونا مونيك وزوجها إلى العشاء في لا تور دارجان المطلّ على أبراج نوتردام. لقد فقدا، هي وحارس قلعتها، حدّة طباعهما، وأصبحا فاترين، وأكاد أقول رخوين، كأنهما لفرط الفتور يذوبان، كثيفين ومقزّزين بميوعتهما، ويتماهيان مع الورق المخملي الأحمر لجدران المطعم.

تحدث حارس القلعة عن شمال أفريقيا، بوصفها الأرض المهجورة، المتروكة للذئاب والصحراء. كانت المرارة قد جرّدتْ صوته من قوّته، إذ كان يرتجف قليلاً عندما وصف الفوضى التي

١ بين هذه الكلمات واسم الجزائر Algérie جناسات تتعذّر ترجمتها.

يتخيّلها في وطننا. بدا أنه قد سخّر كل طاقته لتناول الطعام: كان يقطع قِطعاً كبيرة من tournedos[1] [التورندو]، ويمسح الدم في الطبق بكسرات خبز.

كانت مونيك مقلّة في الكلام. كان ضعف زوجها يخجلها على ما يبدو، وكانت تنظر إلى القبطان مخفضة جفنيها وهي تنقّل لقيمات أنيقة من لحم العجل في طبقها. كانت تضحك استحساناً لملاحظات القبطان، وأعلنت مرتين أو ثلاثاً أنه محقّ، محقٌّ تماماً. نسيتُ ما كان القبطان محقّاً بشأنه. لم تكد ترمقني طوال وجبة العشاء.

تناقش الرجلان حول ديغول. كان حارس القلعة متجهّماً. بالنسبة إليه، كان ديغول قد تجاوزَ كلَّ الحدود؛ قال إنهم قد خُدعوا، وكأن أباهم نفسه قد خدعهم. القبطان، الذي لم يكن مولَعاً بالميلودراما، وصف له الشبكة البيروقراطية الهزلية في كِيْه دُورسيه[2].

رفعت مونيك عينيها. أكاد أقول إنها رفعتهما للمرة الأولى.

أدركتُ بغتةً أن مونيك كانت تحاول إغواء القبطان.

"يجب أن نخجل من القدوة التي نقدمها إلى أولادنا"، همس حارس القلعة.

"لا يشغل الأطفال بال الجميع. ماريان حكيمة. لقد اختارت ألا تحمل هذا العبء"، قالت مونيك.

"يجب أن ينجبَ كلُّ إنسان طفلاً"، أصرّ حارس القلعة.

---

١ طبق لحم فرنسي يتكون من قطعة لحم دائرية سميكة من لحم البقر مطهوة مع دهن الخنزير ولحمه.

٢ تسمية شائعة لوزارة الخارجية الفرنسية التي يقع مبناها في كيه دورسيه، على ضفة السين اليسرى، في الدائرة الباريسية السابعة.

"ولكن، ما كلُّ امرأة قادرة على الأمومة"، كلّمت مونيك زوجها ولكنها كانت ترمق القبطان. أضافت: "بعض النساء موهوبات، وبعضهنّ لا. مثل الفنانين".

"صحيح"، قال القبطان، ومدَّ يدَه فوق المائدة ليمسك بيدي.

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأيته فيها يتعمّد الوقاحة.

احمرّت مونيك خجلاً، وانكبّت على لحم العجل في صحنها.

لم نكن، أنا والقبطان، قد تحدثنا عن إنجاب الأطفال. كنا قد تحدثنا عن أطفال الآخرين. كنا نتساءل بخصوص دِيان، العاهرة التي قرّرت الاحتفاظ بابنها وانتقلت إلى إحدى الشقق تحتنا. كنا قد تابعنا قضية الإخوة المخطوفين الذين أكّدت أمهم للبوليس أن المختطِف كان يهاتفها كل ليلة ليقول لها كيف كان يجبرهم على نسيانها. كنّا قد علمنا أن التمثال المصريَّ الملامح في النافورة خارج بنايتنا، ويُظهر امرأة تمسك بإحدى يديها إبريقاً وبالأخرى مشعلاً متأجّجاً، كان نسخةً عن جان دو لورين التي أخذت على كاهليها، في القرن الرابع عشر، مهمة إضرام النار في الجنة وإخماد سعير الجحيم "كي يتسنى لأطفالي أن يحبّوا الله من أجل الله وحده".

أما عن نفسي، فكنتُ قد أسررتُ بعجزي عن إنجاب الأطفال. لم أكن أرغب في إيضاحات تقنيّة. لم أسأل طبيبي ولا طالبتُ بأسباب علمية. افترضتُ أن هذه الحقيقة جزء متأصّل في نفسي، ولم أعتبرها فشلاً بل اختلافاً، كأن أعجز عن كتابة السونيتات، أو الطيران، أو تذكُّر ملوك فرنسا الخمسين وفق التسلسل الزمني.

كان القبطان قد عاد للتو من إحدى مهماته إبّان تلقّي النبأ الذي سرَّه. احتضنني طوال تلك الليلة، وكأنه لا يقوى على النوم، متململاً في السرير العريض، مصغياً إلى أصوات الجلبة التي تأتي من وراء الفِناء. لم نتحدث عن الطفل؛ ببساطة انتظرنا، كأننا قادران على الجلوس هناك منتظرين تسعة شهور بتمامها، بينما صفارات سيارات الشرطة تدوي في الشوارع تحتنا وشاشات التلفاز تومض لدى الجيران بجلبتها البعيدة كالبحر.

ثمة تحوّلٌ آخر: انبثقتْ، من تحت الأرض، المحلات التي تبيع لوازم الرضّع، دعايات الحفّاضات، رفوف من الطعام المخصص للأطفال في السوبرماركت، التنزيلات على أسعار ملابس الأطفال في بريزونيك[1]. كنتُ لا أزال على رفضي شراء أي شيء، إيماناً بالخرافة التي تقول إن المستقبل لا يتحقق إذا استَبَقنا حدوثه. كانت ماما قد ذهبت إلى ليون لتعيش مع القريبتين المعمّرتين، فقررتُ ألا أخبرها حتى وقت لاحق. أنا مسرورة لأنني لم أخبرها.

أمضيت ذلك الصيف كلّه خارج البيت، في الهواء الطلق، على الجسور، في الحدائق العامة، في الشوارع الصغيرة التي تحيط بالكنائس الصفراء والحدائق الصغيرة وسط البنايات. باستثناء ما بعد الظهر يوم الأحد. بعد ظهر الأحد كنتُ أنزوي في واحدة من صالات السينما الصغيرة المحشورة بين جادة سان جرمان والـ *quais* [أرصفة السين]، وأتفرج على قصص الأفلام فيلماً تلو آخر، بعوالمها

١ كانت بريزونيك سلسلة من المحلات والمتاجر في فرنسا وبلدان أخرى قبل أن تشتريها الشركة التجارية مونوبري سنة ١٩٩٧.

المختلفة عما كان تعرضه الشاشات الكبيرة في الجزائر. كانت أكثر تألقاً وانسياباً، وكأن هذه العوالم أيضاً تعود إلى طبقةٍ أخرى راقية وتواكب الموضة. "دكتور زيفاغو" مع عمر الشريف الذي يشبه القبطان حليقاً في ريعان شبابه؛ جولي كريستي[1] التي لا تشبهني أكثر من أي شخص رأيته في حياتي؛ "صوت الموسيقا"[2] تؤديه بالفرنسية مغنّية ميزو سوبرانو جشّاء الصوت: *Do, do- do, endors- toi bien*... [نَمْ، نَمْ، نَمْ جيداً...]. فيما بعد، في دور السينما والمسرح في كيبيك، كانت الفرقعة الوقحة للفُشار، وأصوات بلع المشروبات، وخشخشة أغلفة السكاكر، تشتّتني عن الأفلام. الأفلام التي تدور في أرجاء ذاكرتي حالياً هي تلك التي شاهدتُها في مكان بعيد، وهي الأقدمُ والأوضح.

كانت هناك أحاديث مع المستأجرين الآخرين في المبنى السكني: ديانا وولَدُها، مدام أونفلور وكلبها الشبيه بالممسحة[3]، الزوجان المسنّان اللذان نسيتُ اسميهما وكانا أبيضين شاحبين ومقوَّسين محنيّين إلى الأمام مثل تماثيل قوطية نحتت من الجِصّ. في إحدى المرات، طلبتُ من ديانا أن تأتي معي لمشاهدة الأفلام، في عصر يوم قائظ حين كان الهواء رطباً إلى حدّ يصعب فيه التنفّس، ففوجئتْ

١ ممثلة بريطانية أدت العديد من الأدوار السينمائية المعروفة، ولاسيما في الستينيات، وكانت إلى جانب عمر الشريف في "دكتور زيفاغو". أضربت عن الطعام أسبوعاً كاملاً سنة ٢٠١٣ تضامناً مع معتقلي غوانتانامو.

٢ فيلم أميركي غنائي أنتج سنة ١٩٦٥، ويحكي قصة عائلة فون تراب الموسيقية التي هربت إلى الولايات المتحدة بعد احتلال النازيين للنمسا.

٣ كلب من فصيلة الكوموندور المجري المعروف بغزارة فروته وطولها.

بطلبي وقالت لا، كأنني قد انتهكتُ أرضاً تحرصُ على تسييجها ومنع الدخول إليها.

بضع مرات، قبل حلول المساء، عندما كنتُ أفتقد إلى الرغبة في تحضير العشاء لنفسي ويتراءى غياب القبطان أفدح وأثقل مما مضى - ولاسيما حين يضلّ أحد قمصانه طريقه إلى يدي، أو ينفتح كتابٌ من كتبه على صفحة كان قد قرأها لي بصوت عال - كنتُ أمشي إلى النهر وأجتازه إلى الضفة الأخرى، وأكمل الطريق إلى كنيسة سان جرمان-دِه-بريه، وأجلس على ترّاس Café de Flore [مقهى فلور]. كان المقهى الآخر، حيث الساحران الصينيان الخشبيان الجاثمان كلٌّ على رفّه العالي[1]، مقفلاً معظم الصيف، فكنتُ أجلس في مقهى فلور وأمامي عصير الليمون الطازج على طاولة خضراء، وبطني لا ينفكّ يكبر، دافعاً أحشائي بصمت كأنني كنتُ أتحوّل إلى قريني، شبحِ نفسي.

***

بعد ظهر يوم ثلاثاء (لماذا أتذكر بهذا الوضوح أنه كان يوم ثلاثاء؟) التفتت فتاة شابة على الطاولة المجاورة لطاولتي، ورجت أن أعذرها، موضحة أنها تودّ أن تسألني سؤالاً.

رفعتُ عيني عن الكتاب الذي كنتُ أقرؤه، وابتسمتُ لها بشيء من الدهشة.

---

١ المقصود هو مقهى "ليه دو ماغو" في حي سان جرمان، القريب من مقهى فلور. اشتهر المقهيان، السياحيان حالياً، بروّادهما من الكتّاب والفنانين والمفكرين، أمثال سارتر وهمنغواي وبيكاسو والسرياليين.

"متى الولادة؟" سألتْ مومئةً إلى بطني.

تساءلتُ كيف استطاعتِ التخمين. لم يكن هناك أي شيء ملحوظ يلفت نظر الآخرين، فكرتُ. إذ كان جسدي الضخم يفسح حيّزاً للظرف المستجدّ، وكان فستاني الصيفي فضفاضاً.

"إنها بشرَتُك"، قالت.

التفتت إلى صاحبها وكان شاباً هزيلاً شعره طويل أسود كعُرف حصان، وهمست له بشيء ما بسرعة كبيرة. هزّ رأسه.

فكرتُ حينذاك: "هذا وجهٌ أودُّ تأطيره". وددتُ لو استطعتُ تثبيت وجهها على جدار، داخل مربّع من الضوء، عالياً في الهواء. لو استطعتُ أن أتقرّاه كمَن يتقرّى خريطة. فكرتُ: "لو كان عندي كاميرا لالتقطتُ صورتها".

- نحن ممثّلان.

ابتسمتُ ثانية.

كانت قد حسبتني أعمل في المسرح أيضاً؛ استشفّتْ ذلك من حركاتي وطريقتي في الجلوس. كان اسمها آنا (وفي ذهني، فتحتُ دُرجاً صغيراً لحفظ الاسم فيه ريثما تحين اللحظة المواتية) وكانا يتدرّبان على *spectacle* [عرض مسرحي]. أخبرتها أنني من الجزائر، الأجنبية مرة أخرى. أشرق وجهها. كانت المسرحية - العظيمةُ والطموحة وإن لم تكن قد كُتبتْ بعد - تتناول الحرب والاضطهاد. أخبرتها أنني لستُ متأكدة هل نقفُ على الجهة نفسها من النزاع.

"آه، بالطبع نعم"، أجابت بحرارة. "نحن على الجهة نفسها. أعلم

أننا كذلك. بمقدوري أن أرى ذلك في يديك".

كانت آنا تشرح، وصاحبها - جان-نويل، جان-نويل الصامت - يهزّ رأسه. وأثناء كلامها كان يلعب بشعرها الذي ضفرته طويلاً على ظهرها، وكان عبثه بالضفيرة يشتّتني عن كلماتها. كانت مسرحية آنا ستدشّن لغة جديدة للحركات على الخشبة؛ كانت ستستنطقُ الجسد، وستقوم الكلمات التي يستخدمونها مقام الموسيقا. كانت آنا مؤمنة بمقدرتها على قراءة حركاتي كمَن يقرأ كتاباً. هل سأذهب وأتفرج عليهما وهما يتدرّبان؟

قلتُ نعم.

سدّدتُ ثمن مشروباتهم ومشروبي، في أولى المرّات الكثيرة التي كنتُ أسدّد فيها أثمان مشروباتهما وشطائرهما وبيوضهما المسلوقة التي كانا يأكلانها كأنهما لم يأكلا شيئاً طوال اليوم أو منذ البارحة. "واجب آخر من واجبات العُمر، سيّدة الدّفع، مُعيلة الشباب"، فكرتُ.

كان المسرح المأمول مكاناً في Boulevard des Italiens [جادة الإيطاليين]، ولكن التدريبات تُجرى حالياً في القسم الخلفي من محل خياطة في Rue du Vieux–Colombier [شارع فيو-كولومبيه]، وفي تلك الغرفة القميئة المعتمة، آنا وأصدقاؤها طرحوا علي أسئلة وقاموا بارتجالات حول قصة عن غزاة قُساة ومتمرّدين شُهداء ترجموها إلى وثَبات وعناقات وتمطُّط وسيرٍ على رؤوس الأصابع. كنتُ أبكر في القدوم وأجلس على مقعد عريض الظهر ذي مسندين، وأتفرّج عليهم يهزّون أذرعهم ويطلقون صيحاتٍ كالقرود ويستلقون على الأرض

ويتنفّسون، شهيقاً وزفيراً، ويسترخون ويفرغون أجسادهم ليكون كلٌّ منهم شخصاً آخر على الخشبة.

وضّحت لهم آنا وضع حملي، ولكن عندما سألوني عن حالتي لم يكن لدي إلا القليل مما أستطيع إخبارهم به، لأنني حقاً لم أكن أعرف الكثير عما يجري بالضبط داخلي، مَن ينمو، يشبّ، ينتفخ، يمتصُّ دمي وطعامي، وماذا أيضاً؟ كان التفكير في الشيء الموجود داخلي يمنحه شكلاً، لكنه محدود الملامح. ربما كنتُ أميّز صوتاً أو شكلاً ما يضغط هنا أو هناك، أم تراني كنتُ أتخيّل؟ ما زال الوقت مبكراً لأبتَّ في الأمر، وما زال مبكراً على معرفة كيف وماذا ومتى.

كنا نبقى، أنا وآنا، بعد التدريبات، فنتناول الغداء معاً في المقاهي أو على مقاعد الحدائق العامة المفروشة بالحصباء الحمراء، ونتردد على السينماتيك[١] (كانت اكتشاف آنا، خمسة أفلام متوالية، كل منها مقابل فرنك وخمسين قرشاً؛ حلّت السينماتيك محلّ مغاراتي الصغيرة قرب سان ميشيل التي منحتني ماضياً آخر).

كانت آنا ترغب في معرفة المزيد عن القبطان، الحبيب الأعزّ، الزوج الغائب. وهنا مرة أخرى، ما استطعتُ أن أقوله لها عن شخصه كان قليلاً، أقلَّ من أثره فيّ، فحدّثتها كيف أن شكلَهُ وصوته وعينيه

١ Cinémathèque: صالة سينما صغيرة أسسها هنري لانغلوا في باريس بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولعبت دوراً في تأسيس السينما الفرنسية الجديدة. كانت تعرض أفلاماً من مجموعة لانغلوا الكبيرة التي نجت من قرار النازيين إتلاف كل الأفلام المنتجَة قبل سنة ١٩٣٧. تكرّست الصالة سنة ١٩٦٣ وانتقلت إلى قصر شايو في منطقة تروكاديرو الباريسية التي تضمُّ عدداً من المتاحف، ثم إلى بيرسي.

وسلوكه وحديثه وإنصاته المطوَّل إليّ حتى في الصباح، قد ترك علاماته عليّ، غيّرني، أتاح لي مرة أخرى أن أكون في سلام، طهّرني من الغضب.

أدركتُ أنني لا أعرف شيئاً عن عمله، أو أعرف القليل القليل. كان يسمّيه دائماً "عملاً مكتبياً"، وكنتُ أتخيّله أمام منضدة مكتظّة بملفات ثُنيت زواياها، ومنفضة وسخة، وفناجين قهوة فارغة. كان يذكر أحياناً استدعاءه لتعليم مجموعة من الضبّاط في ستراسبورغ أو آرل أو أي مكان آخر من هذا القبيل، وكان بمقدوري أن أتخيّل بأي مجهود جبّار يجابه تلك الوجوه الجامدة، محاولاً أن يشرح لهم هذا الموضوع أو ذاك، ربما تجربته في الجزائر، أو طرائقه في التأقلم مع البيروقراطية. أخبرني ذات مرة: "أعيش كابوساً من الاستمارات الرسمية، المذكّرات التي دبّجها أمّيون، تقارير مليئة بالأخطاء الإملائية والتعليمات غير القابلة للقراءة". كرّرتُ قوله هذا لآنا فضحكتْ.

كانت ترغب في سماع ما أقوله عن الجزائر، "حيث وقعت الأحداث". كانت تتخيل شمالي أفريقيا كابوساً مترامياً وشنيعاً، حيث الشياطين في بزّات عسكرية فرنسية يعذّبون السكّان الأصليين. كانت ترغب في معرفة هل كنتُ قد شاهدتُ أحداً يتعرّض للتعذيب.

بدا لي السؤال عبثياً تماماً، فضحكتُ. كانت آنا، كطفلة بعينين متسعتين ذهولاً، تتمنى أن تعرف فظاعات قَصْر اللحية الزرقاء[1].

١ قَصْر اللحية الزرقاء، ألّف الموسيقي المجري بيلا بارتوك أوبرا تحت هذا العنوان نفسه، إشارة إلى حكاية فرنسية فلكلورية، وردت ضمن الحكايات التي جمعها شارل بيرّو، وتروي قصة أحد النبلاء، النبيل المعروف بلقب "اللحية الزرقاء" وقاتل زوجاته في قصره، كما تروي محاولات إحدى الزوجات أن تنجو من

أخبرتُها، وكنتُ صادقة، أنني لم أرَ شيئاً، ولم يُرَ شيء من هذا القبيل. إشاعات، بالطبع، كانت هناك إشاعات دوماً. تذكرتُ أن بابا قد قال إننا، نحن *pieds-noirs* [أصحاب الأقدام السوداء]، لن نكون ضحايا أبداً. فما حدث لنا لم يكن هزيمة، وإنما هي العدالةُ وقد أخذت مجراها.

دعوتُ آنا إلى العشاء في الشقة، وجلسنا نأكل الدجاج المشوي ونشرب النبيذ حتى طلوع الضوء مرة أخرى، ولم نكن نتحدث عن الولادة أو المسرح، بل عنها هي، وعنّي، وتلك النتف من القصص التي قرّرتْ كلٌّ منا أن ترسم بواسطتها صورة لحياتها. فكرت أن أعرّفها على مونيك، ثم شجبتُ الفكرة، إذ كان بمقدوري سماعها وهي تسألني: "أتلك هي حيوانك المدلَّل الجديد؟ هل تؤدي حركاتٍ بهلوانية؟ هل تدرّبتْ على إلقاء فضلاتها في المكان المخصّص؟".

كان عمر آنا عشرين عاماً. بالنسبة إليها، كان البلد الذي أتيتُ منه شاسعاً مجهولاً موغلاً في الماضي السحيق حتى أن مجرد التفكير فيه يُرهِقها. كان والداها من بروتاني؛ كانت قد جاءت إلى هنا من أجل الدراسة، تحت رعاية عمّتها، ثم تلاشت الدراسات واختفت العمّة وتضاءلت الرسائل الآتية من الأهل. كانت قد التقت بجان-نويل أثناء مقابلة للتمثيل. "احتويتُه مثل كلب سائب، مبلَّل ومذعور"، قالت ضاحكة.

كتبتُ للقبطان، على واحدٍ من تلك العناوين التي لم تكن تتضمّن

مصير اللواتي سبقْنها.

إلا رقماً واسمه – على الدوام، بدا لي وصولُ رسائل كهذه إليه أمراً مستحيلاً – وأخبرته عن آنا وجماعتها، فأجابني برسالة مفعمة بالحبّ، مشجّعاً إياي على العمل مع آنا، إن شئتُ، والاهتمام بنفسي. دسستُ رسالته طيَّ واحدٍ من كتبه، كنتُ أحتفظ بواحدٍ من كتبه إلى جوار السرير لأتصفّحه ولأسمع صوته راجعاً إليّ حين أقرأ الكلمات.

***

ذات يوم، أثناء المشي في Rue de Rennes [شارع رين]، رأيتُ كاميرا في محل للتصوير الفوتوغرافي. دخلتُ، أمسكتُ بها هنيهةً بين يديّ كأنها حيوان أسود برّاق، ثم اشتريتها. لم أستطع أبداً الإقدام على أي شيء مماثل لهذا بحضور آنا؛ كنتُ أشعرُ بالإحراج من مقدرتي على شراء الأشياء التي أريدها، من بداهة وجود المال في البنك. الطعم اليومي المرّ لعدم معرفة من أي جهة ستأتي الحوّالة التالية، الاضطرار الذي يتولّد عن الحاجة إلى خمسة أو عشرة فرانكات، كانت هذه أشياء لم أشعر بها أبداً، بل حتى لم أفكّر فيها بتاتاً قبل صداقتي مع آنا.

ذات مرة، في الجزائر، كنتُ قد استعرتُ كاميرا براوني الخاصة بمونيك والتقطتُ صوراً لشارعنا، لجارنا الملاصق لنا، لمونيك وهي ترتدي فستاناً منقّطاً بالدوائر واقفة أمام المدرسة. لم تنجُ أيٌّ من هذه الصور.

وفي اليوم التالي، أخذتُ كاميرتي الجديدة إلى التدريبات.

كانت إحدى الفتيات تروح وتغدو عبر الغرفة، وذراعاها على خصرها مثل مقبضي جَرّة. انضمَّ شابٌّ إليها، ثم دخل جان-نويل. بغتة استدار الثلاثة وشكّلوا جسدَ كالي[١] عملاقاً، ستَّ أذرع تلوّح خلف جسد الفتاة. بدأتْ إلقاء أبياتها، كانت وصفاً مُطنِباً للبحر على ما أعتقد، ثم توقّفتْ وقالت إن الكلمات لا تفي بالغرض.

التفتت آنا إلي: "زوّديها بالكلمات. تريدين العمل معنا؛ جدِي الكلمات لها".

أنزلتُ كاميرتي. غادرَ قِطّان رماديان كبيران زاويتهما وجاءا باتجاهي. تمسّح أحدُهما بساقي، وابتعد الآخر متمهّلاً واستلقى عند الحائط.

"*Donner sa langue au chat*" [أن تُعطي لسانك للقطّ]، قلتُ.

"استمرّي"، ألحّت آنا.

- أستمرُّ بماذا؟

- أمثال. أقوال مأثورة. طرق في الرؤية. ذلك جيد. استمرّي.

استمررتُ.

-العبي بالنار. تغطّي بالزهور. نامي بعين واحدة. كوني عصفوراً على فنَن. كوني بين السحاب. نامي تحت النجمة الجميلة. سيكلّفكِ العينين اللتين في رأسك.

"أكثر"، حفّزتني آنا.

١ الإلهة الهندوسية ذات الأذرع العديدة، وعددها أربع عادة. كثيراً ما تظهر في التصاوير متعطشة للدماء، راقصة فوق شيطان أو أسد أو نمر قتيل، وهي تتقلد طوقاً من الجماجم.

- زحزحي الجبال. امضي عكس التيار وعكس الريح. تكلّمي بقلب مفتوح. حصاناً بأربع أرجُلٍ بيضاء. سعيدةً كسمكة في الماء. اجتازي الضربات الأربعمئة. نامي وقوفاً. ابحثي عن منتصف النهار في الثانية ظهراً. خذي الماء إلى الطاحون. كوني ناراً وتأجّجي. افقدي عقلك. استجيري واستغيثي[1].

بدأت الفتاة تدوين ما هذَرْتُ به. أدلى الجميع باقتراحاتهم. غيّرنا ترتيب بعض المقاطع مرتين أو ثلاثاً. ثم، بعد ساعتين، كان بين أيدينا نصٌّ.

"جرّبي"، قالت آنا للفتاة.

عبر عدسة الكاميرا صوّرتُ لقطاتٍ للفتاة وهي تتحرّك على إيقاع

١ اعتمد الكاتب الترجمة الإنكليزية الحرفية لهذه العبارات والأمثال الفرنسية الاعتباطية، ولهذا ابتعدنا عن التأويل قدر الإمكان وحافظنا على حرفية الترجمة وإن لم تكن مفهومة أحياناً، وكنا أميل إلى المخاطَب المؤنّث بصيغة الأمر. في حالتين فقط، اعتمدنا قولين فرنسيين مشابهين لم يدرجهما الكاتب، فاستبدلنا "شُدّي نمالاً إلى العربة" بـ"خذي الماء إلى الطاحون"، و"دعي الكاتدرائيات ترقص" بـ"زحزحي الجبال". عبارة "أن تعطي لسانك للقطّ" تُقال أمام أحجية أو سؤالٍ مستعص، بمعنى "عجزتُ عن التخمين"؛ "النوم تحت النجمة الجميلة" كناية عن النوم في الطبيعة أو العراء أو الهواء الطلق؛ "سيكلفك العينين اللتين في رأسك" مثَلٌ عن ثمن أو سعر باهظ "يقلع العين"؛ و"الحصان ذو الأرجل الأربع البيضاء" مثل عن الثروة الطائلة؛ و"السمكة في الماء" هي الشخص في الجو الموائم له؛ ومثل "الضربات الأربعمئة" في هذا السياق يشير إلى "الزعرنات" أو "الموبقات" وما يخوضه الشبان من مغامرات مختلفة الأشكال، وليس ببعيد عنه "كوني ناراً وتأججي" الدالّ على عنفوان الشباب وحماسته؛ و"النوم وقوفاً" من شدة التعب. أما في "البحث عن منتصف النهار في الساعة الثانية ظهراً"، فلا تخفى الإشارة إلى الاختلال والتفتيش عن الأشياء في غير مواضعها المناسبة، ويبقى "أخذ الماء إلى الطاحون" دلالة على السعي لإغناء المواضيع.

تلك الجُمَل المتراصفة. أولى البورتريهات التي صوّرتها كانت لهذه الفتاة التي نسيتُ اسمها، وهي تثني جسدها مترجمةً إياه إلى أمثالٍ ومصطلحات، أمام خلفية من ورق الجدران المتقشّر.

كبُر النصُّ طوال أيام عدة، عدّلَتْهُ الأمزجة والتفاسير والأفكار الجديدة. كنتُ أتطلّع إلى الملتقى. قبلئذ، كل صباح، في غياب القبطان، كنتُ أستيقظ في السابعة أو السابعة والنصف – لم يكن الغثيان ينتابني في الصباحات، وحرارة الطقس العالية لا تسمح بملازمة السرير مدةً أطول – ثم أجلس إلى طاولة المطبخ مع فنجان كبير من القهوة السوداء، وخبز باغيت من يوم أمس –كنتُ أفكّر أنه بائتٌ أكثر من أرغفتي الجزائرية – أحمّصه تحت المشواة، مؤجّلةً لحظة الخروج الفعليّ إلى الشارع، باحثة عن شيء أفعله. ذلك ولّى. صرتُ الآن أوّل الواقفين أمام باب الإستوديو، وكنتُ أحياناً أنتظر في الخارج جالسةً إلى طاولة مقهى، متلهفة لنبدأ.

في البداية، كنتُ آخذ صوري إلى المختَبر لتحميضها، حيث كان رجل بلجيكي شهوانيّ يتناول كاميرتي ويفتحها كأنه يجري لها عملية قيصرية صغرى، ويسلمني بعد بضعة أيام شريط الصور السالبة لأختار منها ما أرغب في الاحتفاظ به. كان الروتين، على ما يبدو، يضجره إلى أقصى حدّ. مرةً واحدة فقط، حين أرجعتُ إليه شريط الصور السالبة مشطوبة بقلم شمع أحمر في هذا الموضع وذاك، قال: "ذاكرة انتقائية. جميل جداً".

عندئذ بدأتُ تطوير مختبري الخاص مستخدمة الحمّام بوصفه الغرفة المظلمة. مع إحساس خفيف بالذنب (إذ ما كنتُ قد أنفقتُ

قطّ مثل ذلك المبلغ الكبير على شيء أردتُه لنفسي) اشتريتُ آلة لتكبير الصُّور.

***

وصل القبطان إلى البيت في وقت غير متوقَّع. قال إن الوقت كان ضيقاً فلم يسمح له بإخطاري، وأنا كنتُ في معظم الأوقات خارج البيت (لم تكن هذه الملاحظة تأنيباً بل إقراراً بالأمر الواقع)، فآثر اللحاق بأول قطارٍ يُتاح له، بدلاً من الانتظار لكي تقلّه واحدة من السيارات الرسمية الصغيرة.

كنتُ أثناء غيابه قد أجريتُ أحاديث معه داخل رأسي، وأعددتُ قوائم بأشياء سأخبره عنها، وشرحتُ له انشغالي الجديد، أصدقائي الجدد، وكانت كتبه تذكّرني به كلَّ ليلة، وقبعته الفيودورا تذكرني به كلّ صباح. ولكن عند وصوله الفعلي تلخّصتْ كلُّ الأنباء في بضع كلمات، وقيلت بأكملها دفعةً واحدة، وبعدئذ بدا لي أنّه لم يغادر قطّ. بعد ظهر ذلك اليوم تمشّينا بضع ساعات (لا أكثر) في الشوارع التي كنتُ قد درجتُ على المشي فيها وحدي، وتفرّجنا على واجهات المحلات التي راقبتُ تغيّراتها، وقطعنا النهر عبر واحد من الجسور العاجية اللون، ثم تبعنا، من الأعلى، الماء الأخضر الساكن على امتداد أرصفة السين، حيث كنتُ قد التقطتُ سلسلةً من الصور التي كنتُ أريد أن أريه إياها (لكنني استبقيتُها حتى زيارته التالية). معه تمشّيت في أمكنة مختلفة عمّا كنت أقرّره وأنا وحدي؛

فمن أجله اخترتُ Île-St-Louis [جزيرة سان لوي]، مع عمودها الفقري شارعها الوحيد الممتدّ بين بنايات رفيعة موحشة، وPlace Dauphine[1] [ساحة دوفين] ذات الشكل الشبيه بالرحم، حيث كان الرجال في بناطيل زرق فضفاضة يلعبون البيتانك. استمعنا لموسيقا برامز في حفل صغير في الكونسييرجري[2].

كنتُ أحبّ الإمساك بذراعه أثناء المشي. كنتُ أحبّ الجلوس إلى جواره وهو يضع يده الكبيرة على بطني مُتسقّطاً الحركاتِ داخله. كنتُ أحبّه لبدلته الصيفية الفضية ذات الحفيف الخفيف. كانت الكاميرا تبقى في البيت أثناء وجوده. ثم غادر مرة أخرى.

حدث ما حدث ذات ليلة، يوم الجمعة. كانت آنا قد قالت إنها ستقلّني من البيت لنذهب ونرى مسرحية **أندروماك**[3] التي كانت قد أخرجتها دومينيك سورّو، إحدى صديقاتها. ما كنتُ قد رأيتُ قط عرضاً منتجاً لـ**أندروماك**، ولكن أشعارها التي كرّرتها Sœur Amicale

---

١ تقع ساحة دوفين على الطرف الغربي من جزيرة لاسيْتِه التي تؤلف مع جزيرة سان لوي قلب باريس القديمة.

٢ في الوقت الحالي، يشغل مبنى الكونسييرجري الجناح الأيمن من قصر العدل في باريس، ومعنى الاسم "حارس المكان" أو "حارس المبنى". كان القصر الملكي في القرون الوسطى، ثم تحول إلى قصر العدل بعد انتقال سكنى ملوك فرنسا إلى اللوفر، فتم تحويل قسم منه إلى سجن اعتقلت فيه ماري أنطوانيت عند اندلاع الثورة الفرنسية، أما القسم الثالث من هذا التجمع، فهو كنيسة سانت شابيل قوطية المعمار التي تشهد حفلات موسيقية على مدار السنة، وكان الملك لويس التاسع قد أودع في ذخائرها المقدسة تاج الشوك للسيد المسيح.

٣ مسرحية جان راسين المكتوبة في القرن السابع عشر. اقتبس موضوعها عن شعراء العصور القديمة الإغريق والرومان، ونظمها شعراً على البحر الإسكندري. ترجمها إلى العربية طه حسين.

[الأخت أميكال] مراراً على مسامعنا في الليسيه [المدرسة الثانوية] في الجزائر، كانت تعاود الرجوع إلي كالموسيقا في مناسبات غريبة، وإلى الآن ثمة أبيات معينة عصية على النسيان:

Où suis-je? Qu'ai-je fait? Que dois-je faire encore?

[أين أنا؟ ماذا فعلتُ؟ ماذا يجب أن أفعل مرة أخرى؟]

حقاً، ماذا يجبُ أن أفعلَ مرة أخرى؟

في عصر ذلك اليوم، شعرتُ بشيء من الغثيان. كان الحرُّ قد أفسد القمامة التي لم تُجمَعْ متكوّمة خارج المطاعم ومخازن الأغذية في أرجاء باريس كافة. وهنا أو هناك، كان عامل جزائري مهاجر يرتدي لباساً أزرق يكنس وحده الميازيب بجانب الأرصفة بمكنسة مصنوعة من الأغصان الصغيرة، ولكنّ ذلك لم يكن كافياً، إذ كانت رائحةُ المدينة، مثل فاكهة تعفّنت، تلفُّ بثقلها كلّ شيء. كانت القطط، البدينة الضخمة المختالة، تتحرّى الحاويات والأكياس، فيدوّخها هذا الزنخ، ثم تبتعد بحثاً عن برودة الأفياء. كاد السيّاح أن يكونوا عُراة، جلودهم حُمر كاللحم النيء، تفوح منهم روائح الزبدة والزيوت الواقية من الشمس والكولونيا الأميركية بعد الحلاقة.

عندما وصلتُ إلى الشقة كانت الساعة تقارب السادسة، ولكن السماء كانت ساطعة سطوعَها في الظهيرة ولم يكن الحرّ قد انحسر. ولما فتحتُ الباب وواجهتُ نفسي في المرآة المذهَّبة، دهمني تقلُّص في المعدة. انحنيتُ وأغلقتُ الباب. وقفتُ هناك للحظة لألتقط أنفاسي. ثم نظرتُ إلى الأسفل. ورائي، حيث كنتُ أقف، كانت هناك

بضع قطراتٍ من الدم. تقلُّصٌ ثانٍ، أقوى هذه المرة، فأحسستُ أنّ شيئاً ما قد انفكَّ داخلي. كانت فخذاي مبلّلتين. وضعتُ يديَّ بينهما. كان الدم قد تسرّب خلَل سروالي الداخلي. كان الحمام مكتظاً بأحواض التحميض التي ما كنتُ قد أزحتُها. ركضتُ إلى المرحاض، وجلستُ على كرسي التواليت. نظرتُ إلى يديّ، المتسختين بقذارة الشوارع، والدم يسيلُ عليهما الآن، فأجهشتُ بالبكاء.

اختفى التقلّص، ولكن كان هناك ألمٌ كليلٌ داخلي، كأن شيئاً ما قد ضربني وجرّحني من الداخل. كان بمقدوري سماع قطرات الدم تتساقط بفواصل غير منتظمة في الماء داخل حوض التواليت، كالصوت بعد توقُّف المطر.

رنّ جرس الباب فناديتُ آملةً أن آنا سوف تسمعني. صاحت باسمي، مرة، مرّتين، ورأت على الأرجح أثر الدم، ثم وجدتني ووجهي بين يديّ.

وعندما كنتُ أعطيهم اسمي وعنواني في المستشفى، أدركتُ أنه لا يوجد هناك أي طريقة للوصول إلى القبطان بسرعة. كان بمقدوري أن أترك له رسائل في القيادة العامة، ولكن كانت هناك فرصة ضئيلة لرجوعه خلال أقلّ من يوم أو يومين. طلبتُ من آنا ألا تتّصل به، وأن تنتظرَ معي. أعطوني مخدّراً وساقوني على السرير النقّال.

عند وصول القبطان بعد يومين، كنتُ في البيت، في السرير. كانت آنا قد اتصلت به في اليوم التالي، رغم ما طلبته منها، فبدا متألماً لا غاضباً.

"تمنيتُ لو كنتِ قد اتصلتِ بي في وقت أبكر"، قال.

جلس إلى جواري، على السرير، ورفع الشعر عن وجهي.

"آه، يا لك من امرأة غريبة، غريبة. امرأة ضخمة، جميلة"، قال.

***

لم نتحدّث قط عن الإجهاض الذي وقع. ترك خيار الكلام لي، وأنا اخترتُ ألا أسترجع الحادثة، كأنني قد شهدتُ معجزة يستحيل وصفها. أخذ، أو أعطوه، إجازةً مطوّلة، وعندما شعرتُ أنني قد استرددتُ بعض قواي، استأجر سيارة صغيرة وانطلقنا إلى الشمال، إلى إترِتا، حيث كان منزل عائلته، وحيث أمضى بابا عطلةً باقية في الذاكرة. مررنا عبر قرى إسمنتية صغيرة قبيحة كانت قد بُنيت بعد الحرب، وسلكنا الطريق الساحلي المفضي إلى الصخور، وأقمنا في فندق صغير ذي قناطر إسبانية وفيه زهور اللانتانا والجهنميّة، وذهبنا في نزهات طويلة على امتداد المَرسى، متفرّجين على السياح الذين لم يكونوا أثرياء ليقصدوا مصايف أخرى أو كانوا بالأحرى واسعي الثراء ولا يغيّرون عاداتهم، ووراء خِيَم بحرية مقلّمة كانت تقيهم من الريح. كانت هذه الخيم حمراء في عَين طاية الحمامات. فكرتُ أن اللون الأزرق أرقى بكثير.

في عصر أحد الأيام، جلسنا عند فم كهف ضخم متفرجين على الصخور المثقوبة التي تبرز من زبد الموج، فألقى على مسامعي أبيات هوغو:

قد تخرج كلمةٌ واحدة من هذه البئر الضارية.
لا تسألي ما هي.
إنْ كان الفمُ هو الهاوية،
آهٍ يا الله، فإذن ما هو الصوت؟

هذه المرة، كانت مغادرته أكثر إيلاماً.

كتب لي، ونادراً ما كان يكتب لي من قبل، ولكن ذلك فاقم وطأة غيابه، على ما يبدو. كنتُ قد أخفيتُ كتبه في غرفة النوم التي لا نستخدمها، لأنها آنذاك كانت تذكّرني بصوته الذي افتقدتُه كثيراً، وأودعتُ قبعته الفيودورا في الخزانة. كانت آنا تزورني وتشتكي من جان-نويل، أو الطقس، ولكن التدريبات كانت قد انطلقت جدياً، ولم يكن لديها الكثير من الوقت. وعدتُها بالرجوع ومتابعة سير المسرحية، ولكنْ صعُب علي ذلك، لأن أصدقاءها كانوا يحدّقون بي كالمذنبين، متردّدين هل عليهم تقديم التعازي أم التظاهر بتجاهل الموضوع كأن شيئاً لم يحدث، وكأن إجهاضي لم يكن خسارة بكامل معنى الكلمة، وإنما شيئاً يراوح بين الحادث العرَضي والاستهتار.

لبعض الوقت، توقفتُ عن التقاط الصور.

بدت المدينة أكبر الآن، وفضاءاتها مختلفة. كبُرتُ فجأة. ذوى جسدي. الرجال الذين كانوا ينظرون إليّ نظراتٍ نهمة فيجعلونني أشعر أنني جميلة وجسدي يُشْتَهى لا يلتفتون إليّ الآن.

شفافةً صرتُ. وحدي أمشي.

ثم، في الخريف، تزوّجتْ آنا بجان-نويل في قاعة البلدية، في

الدائرة الباريسية الخامسة. أتى والداها لحضور الحفل بوجهين ممتقعين وملابس بنّية. كانت آنا قد ضفرت أكاليل زهور لجان-نويل ولها، وشبكة شَعر مليئةً بالنجوم الفضية لأرتديها. كانت مجموعة من الموسيقيين تعزف موسيقاها على آلات هندية خارجاً، في الشارع. أمطرَتْ.

***

في يوم أحد، وأنا أجتاز Jardin des Tuileries [حديقة التويلري] من النوافير الخضراء المنبسطة التي تطفو على صفحاتها قواربُ الأطفال إلى Arc du Carrousel[1] [قوس كاروسيل] الصغير، المتوَّج بعربة إله، قررتُ الدخول إلى اللوفر وتمضية بعض الوقت وسط التماثيل البيضاء الباردة. مشيتُ في ممرّ الأحواض الرخامية وجذوع الأجساد المستلقية المقطوعة الأطراف، وصعدت الدَّرج الواسع تحت طيران انتصار ساموثراس[2] العديمة الرأس، وكان جسدها تحت الثوب الحجريّ مثل جسدي ممتلئاً ومستديراً ومكتنزاً. "أمّاه، أعيدي إليّ قواي"، صلّيتُ.

صعدتُ إلى الطابق العلوي، واجتزتُ الأروقة الطويلة من

١ واحدٌ من أقواس النصر التي أمر نابليون بونابرت ببنائها في باريس، وهو موجود في قصر كاروسيل الذي شيِّد في مكان قصر التويلري الذي هدمته النيران.

٢ انتصار ساموثراس، أو النصر المجنَّح: اكتشف هذا التمثال الهلنستيّ في جزيرة ساموثراس اليونانية شمال بحر إيجة، وهو تمثال رخامي للإلهة نايك المجنَّحة مقطوعة الرأس واقفة على مقدمة سفينة في ريح قوية.

اللوحات الفرنسية، الغائمة الألوان والفخمة، ثم، تجنباً لمجموعة من السيّاح، انعطفتُ لأدخل إحدى الغرف الصغيرة. كان هناك على حائطها الجنوبي، بين نافذتين، بورتريه امرأة.

كان بورتريه صغيراً. لم يكن رأس المرأة أكبر من يدي. كان شعرها أشقر وكثيفاً، تبرزهُ قتامةُ الخلفية. كانت ترتدي قميصاً أو فستاناً بحُمرة الصدأ؛ لم أستطع الجزم لأن الصورة تنتهي أسفل عنقها، عنقها الصلب، عنق امرأة عاملة، بلون العاج، مثل وجهها. كان وجهها هو ما استوقفني.

كانت شفتاها مزمومتين، ولكن بشيء من القسر، كأنها كانت توشك أن تتكلم ثم عدلت عن الفكرة، أو مُنعت من الكلام، أو كانت معتادةً البقاء صامتة ولم تتحلَّ بالشجاعة، مرة أخرى، لتقول ما كنت تنوي قوله. كانت هناك غمّازة طفيفة جداً على خدّها الأيمن، ربما رجفةٌ، جاهدةً لتباعد تينك الشفتين أخيراً، ولكنها أحجمت عن ذلك. كان الأنف ناعماً رقيقاً، بل لعلّه شديد النعومة. دفعني إلى التفكير في الأنوف التي كنتُ قد رأيتها في وجوه فتيات بعمر عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة، أنوف كبيرة جداً على وجوههن اليافعة المتحوّلة، أنوف تبلغ تمام نموّها قبل أن تلتحق بها بقية الملامح، لكنها أنوف يتمركز حولها ما تبقّى من سمات الشخصية، مثل برج كنيسة تُبْنى حوله البلدةُ في منظر طبيعي. لقد أشقاها ذلك الأنف، من غير بدّ، أجبرها على الصبر، تسبّب في غضبها، إلى أن حان الوقت الذي انسجمَ فيه عمرُها مع حجم أنفها عند البلوغ، بعدما أرهقتها التجربة. وفي مركز اللوحة، العينان. كانتا جاحظتين أو تكادان، وكان جحوظهما غريباً؛

كان الجفنان العلويان يكادان يخفيان قزحيّتين بنيّتين بلون البندق. كان يبدو عليهما أنهما تراقبان سير شيء أخفاه عني إطارُ الصورة، لعله شيءٌ أمسكتْ به بين يديها، أو لعلّه شيء أفلت من يديها. كان حاجباها، الملمحان الوحيدان اللذان سمحتْ لهما بالحركة، أو ربما كانا قد تحرّكا من تلقائهما بسبب حزنٍ لا يُطاق أو الذهول والتعب، يظلّلان سحنتَها وبخشونة يرقّشان الضوءَ على قَسَماتِها. أياً كان ما رأته عينا هذه المرأة، أياً كان ما تلقّتْهُ بواسطة هاتين العينين، فقد أثقلت المشاهد كاهليها إلى حد أوشكت تنكسر فيه. تقشّرُ الألوان والشقوق في قماشة اللوحة، علاماتُ الزمن وإساءة الاستخدام على السطح المادي، كلها عكست لي وجعَها الذي لا تبوح به. حدقتُ بالمرأة، وهي حدّقت بيديها اللامرئيتين، فتبعتُ نظرتَها ثم عاودتُ التحديق في عينيها.

بدأتُ أتعرّق، خصلاتُ شعري التصقت بجبيني. الشعور بالغثيان القديمُ المعهود تفاقم داخلي فأحسستُ بألم حادّ تحت الضلوع. رنَّ جرسٌ. أتاني حارسٌ ووضّح لي أنهم سيغلقون المكان. أسرعتُ وأنا أتنفّس بصعوبة عبر القاعات حتى وجدتُ المَخرج. نظرتُ إلى ساعة يدي. لقد أمضيتُ في تلك الغرفة وحدها قرابة ساعتين.

زرتُ اللوحة مرة أخرى، لا في اليوم التالي وإنما في اليوم الذي تلاه. كانت، كما علمتُ لاحقاً، لوحةً لدُوْرر، أعارتها المكتبة الوطنية لمتحف اللوفر أثناء الترميمات. كانت هناك لوحة أخرى لدُوْرر في الغرفة، بورتريه له عندما كان بعمر عشرين سنة ونيّف،

أكبر حجماً ويمسك فيه بغصن شوك. ولكنْ، وحده وجه هذه المرأة استحوذ عليّ.

***

انتظرتُ ريثما يعود القبطان، واستلقينا في السرير خلال الليلة الأولى. كان مستلقياً يدخّن سجائره الجيتان من دون فلتر ويقرأ كتاباً كنتُ قد قرأتُه توّاً، وكنتُ أنظرُ بين فينة وأخرى لأرى إلى أي صفحة قد وصل وأشاركه القصّة. فتح ذراعيه فاستلقيتُ بينهما، على كتفه، وعندئذ أخبرتُه.

قال القبطان:

– يداه المعجزتان المبصِرتان. فإذن، لقد صار دُورر رسّامك الآن. كان سيرسمك، على ما أظنّ. يا رائيتي الضخمة الجميلة.

ذات مرة، حين كان عمره أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً، كان أهله قد أخذوه في زيارة إلى باريس، وواحدٌ من الأقرباء المغامرين قاد الفتى عبر متاهة سوق الأغراض المستعملة. وهناك، وسط أواني الفخّار المتشظّية والأثاث الذي تيتّم، رأى صورة لا تشبه أي شيء رآه من قبل على الإطلاق. حتى في تلك اللحظة، كان القبطان ينشد نوعاً من الكمال: في سوق الأغراض المستعملة، اعتقد أنه قد عثر على ضالّته، *sub specie aeternitatis* [1] [من منظور الأزل]. فارسٌ على

١ يقترن استخدام هذه العبارة في الفلسفة بباروخ سبينوزا الذي كتب في عمله **علم الأخلاق**: "النفس لا تستطيع أن تتخيل أي شيء ولا أن تتذكّر الأشياء الماضية إلا أثناء ديمومة الجسم [...] ويتعذر أن يكون لدينا أي ذكرى عن وجودنا قبل

صهوة حصانه يتّجه وحده إلى مصيره، متوازناً بين غوايات الضلال وتدمير الذات، بعيداً عن الحشود التي توحّد الملامح. أنفق القبطان نقود عطلته على المحفورة ولم يفارقها قطّ.

أقبل على دراسة دُورر بشغف، وكان يعرف لوحتي جيداً. كان دُورر قد أنجزها في خمسينياته، في أوج شهرته، كدراسةٍ لواحدة من لوحاته الكبرى على الأرجح.

"كان من عادته أن يحلم بلوحاته"، أخبرني القبطان متلمّساً جفوني بأصابعه أثناء كلامه. "كان من عادته الاستيقاظ على رؤى بأعمال عظيمة لا يكاد يقدر على تذكرها، فيدوّن مسوَدات هذه الرؤى في دفتر يومياته: تخطيطات أشبه بلطخات الحبر".

سألني القبطان هل أنا راغبة في الرجوع لأرى اللوحة معه. سألني هذا السؤال بخفَر، كأنه كان يشكّ في احتمال أن تكون هذه اللوحة شيئاً أودّ الاحتفاظ به لنفسي. قلتُ بلى. كنتُ أريد الذهاب معه. قال:

"ذات مرة، سافرتُ في جولة بين المتاحف مفتشاً عن لوحاته. آلت بيناكوتيك في ميونيخ. البرادو في مدريد. مجموعة ثايسن في لوغانو. متحف ستاتليش في برلين. كان واحداً من أوائل الرسامين الأوروبيين الذين رأوا كنوز الآزتيك التي جلبها كورتيث إلى بلاط

الجسم، كما لا يمكن للأزل أن يُحدَّد بالزمان، ومع ذلك نشعر ونختبر أننا خالدون [...] إننا ننظر إلى الأشياء على أنها فعلية من منظورين اثنين: إما بوصفها موجودة في زمان ومكان محدَّدين، وإما بوصفها متضمَّنة في الله، والأشياء التي نتصوّرها وفق هذا المنظور الثاني بوصفها حقيقية وفعلية إنما نتصوّرها من منظور الأزل".

شارل الخامس[1]. تخيّلي: في موضع ما من هذا الوجه، ثمة عينٌ قد رأتْ ما لم يرَه أيٌّ من الفنانين الإيطاليِّين. معارف إمبراطورية آفلة تغيّر وجه هذه المرأة، وثمة ألوان على جلدها آتية من الذهب المطروق في أمكنة لم يكن لها وجودٌ في مخيلتنا قبل ذلك الوقت".

جلسنا، كرجل وامرأة متزوّجين، أمام اللوحة. بنعومةٍ، قال لي القبطان، ليَ أنا وحدي:

"طوال حياته، كان دُورر يجمع الأشياء التي تحفّز حواسّه: قواقع حلزون، مرجان أبيض، سهام مصنوعة من القصب، محبرة منحوتة من قرن جاموس، حبات فستق، هيكل عظمي لسمكة. ولكنه كان يجمع الانطباعات قبل أي شيء آخر. سرير في بروكسل قد يتّسع لخمسين شخصاً. عبوس مواطن عجوز في آنتويرب عمره ثلاثة وتسعون عاماً. حيوان فظّ اصطيد على السواحل الفلمنكية. عاصفة هوجاء في زيريكزي[2]. زوجته المزمومة الفم. ومن ثم كل الأشياء التي لا نعرفها. بردٌ. بارقة سعادة. نكهةٌ شبه منسيّة. خوفٌ. وعْدٌ. كيف تُطلعه كل هذه الأشياء على الوجه أمام عينيه وتغيّره. كيف نغيّر هذا الوجهَ الآن. إنه يحتويني الآن. ويحتويك".

دخلتْ إلى الغرفة مجموعة من خمسة سياح أو ستّة وتزاحموا

---

١ الملك شارل [كارلوس] الخامس (١٥٠٠–١٥٥٨): ملك إسبانيا ورأس الإمبراطورية المقدسة حتى ١٥٥٦، عرف بين العرب باسم شارلكان. هزمت قواته القوات الفرنسية وغزت أجزاء واسعة من المكسيك والبيرو ونهبت كنوزها ودمرت حضاراتها، واتسعت رقعة إمبراطوريته في أوروبا بشرقها وغربها. تخلى عن العرش سنة ١٥٥٦ واعتزل في أحد الأديرة الإسبانية.

٢ بلدة صغيرة جنوب غربي هولندا.

أمام اللوحة. كان الرجل الأكبر سناً بينهم مرتدياً سروالاً قصيراً وقبّعة من كتّان مرخية الحافات يسترشد بكتاب الدليل. كان الآخرون – امرأتان، وشابّ يصغرهما سنّاً، وعدّة أطفال – يتقدمون ويتراجعون أمام اللوحة كأنما ليروها على نحوٍ أفضل.

"بشعة"، قالت إحدى المرأتين.

قهقه الشابّ.

"ويحتويهم"، أردف القبطان، "هذه العقول القاحلة البائسة المتحجّرة تنعكسُ في وجهها الآن. انظري! بوسعك أن تريها تتحوّل، تتبلّد! انظري إلى وجوههم الكالحة تلتهم ضربات الفرشاة، مدّعين أنهم جميعاً يفهمون مقاصد هذا الرسّام الفذّ. يعتقدون أنهم يتعلّمون بالرضوخ للتجربة المكرَّسة، لجوقةٍ من الآراء. أخبرني كوكتو ذات مرة، مشيراً إلى حشدٍ كان قد أتى ليشاهد أحد أفلامه: "أوه، خَفْ منهم! عقولهم مُعْدية!" ألا ترغبين في إزاحتهم من طريقك، وجرّهم إلى الشوارع، وطردهم من هنا!".

لاحقاً، في مقهى في Rue de Rivoli [شارع ريفولي]، بدّد غضبه بضحكة.

"فإذن، هل صوري الفوتوغرافية انعكاسات أيضاً؟"، سألتُه.

– هل صُورُك الفوتوغرافية هي ما ترينه؟

– إنها ما أختار أن أراه.

– هذا رأيك إذن. اجمَعي الصُّوَر. صرِّحي وبيِّني. أرغمي العين على المقارنة. امنحينا الذكريات.

أحببتُه في تلك اللحظة حباً جارفاً؛ تمنيتُ لنفسي جناحين حنونين

لأضمّه بهما، أهدهده، أشكره لأنه طرح الحوار وليس الموافقة على رأيي، وكأني به يقول، بصوته الرخيم الرائع، إنه ما من أحد يمنح ترخيصاً لأحد ولا أبوابَ لتُفتحَ أقفالها، فمفتاح الحقول[1] مُلك يميني، والنهارات، وكان الوجه الحزين المرسوم حلقة في سلسلة لا تنتهي من الحلقات التي كنتُ إحداها، أختاً صغرى، ربما، ولكنها أخت بأي حال، وكان ممتنّاً لوجودي ولكونه قارئي. في تلك اللحظة، تدلّهْتُ بحبِّه، القبطان.

مع ذلك، لم أشعر بالثقة التامّة.

بعد مضي بعض الوقت، قرأتُ في كتاب صغير من نسخ طبق الأصل، أن دُورر كان قد رأى في أنتويرب الوحشَ برابو[2] الذي ناهزت قامته ثمانية عشر قدماً، وقيل إنه قد حكم المدينة ذات مرة. كنتُ أريد أن أعرف أي نوع من المخلوقات كان هذا الوحش، ولكنني لم أجد أي مرجع يدلّني، ولم أسأل القبطان أبداً لأنني أحسستُ إحساساً غامضاً أن إبداء الاهتمام بتفصيل كهذا لا تسوّغه أي فكرةٍ أخرى كبرى، سوف يزعجه ويسيء إليه مثلما أساءت إليه أريحية السِياح، وأن الزهو والإعجاب اللذين لم يُخفِ شعوره بهما تجاهي، وتجاه تحمُّلي وقت حدادي واكتشاف فنّي، بل حتى ذلك

١ "أن تأخذ مفتاح الحقول": كناية فرنسية عن الحرية والاستقلالية، لا تزال قيد الاستخدام منذ القرون الوسطى.

٢ برابو: جندي روماني أسطوري. قيل في القرون الوسطى أنه قد قتل الوحش العملاق دروُون آنتيفون بعدما قطع يده ورماها إلى النهر، مثلما كان العملاق يقطع أيدي الناس الذين لا يستطيعون أو يرفضون دفع النقود له مقابل سماحه لهم بعبور الجسر فوق نهر شيلدت. تفسّر هذه القصة اسم أنتويرب الذي يعني حرفياً "رمي اليد"، وهي المدينة الكبرى في القسم الناطق بالفلمنكية في بلجيكا.

الضرب الغريب من الشرف الذي اعتقد أنني أمنحه إياه، وهو زوجي، لزيارتي اللوحةَ معه، كل ذلك قد يختفي، بحال من الأحوال، تحت انطباع الخفّة والطيش، أو ما هو أسوأ، الغباء، وإثر ذلك الاختفاء قد يتبدّدُ حبّه أيضاً ويتبخّر.

***

غادر مرة أخرى، ومرة أخرى تمشيتُ في أرجاء المدينة، ولكنني كنتُ أعود الآن، بعد كل نزهة تقريباً، إلى الغرفة في اللوفر مع لوحتي. رأيتُ آنا مجدداً، وحضرتُ المزيد من التدريبات، وراقبتُها تزداد يأساً من المسرحية أكثر فأكثر، وهي تحاول ضبط الأمور بالطريقة التي تريد، وتفشل. كانت تأتيني للمشورة. كانت تحرجني بالقول إنها معجبة بي، تحسدني على استقلاليتي، وتجربتي، وتشعر بالعجز من دوني. لم أستطع أبداً فهم السبب.

"لن يثمر عن أي شيء. نحن فقط نتقافز ونهذي بالترهات أحدنا للآخر. لماذا نفعل ذلك إذن؟"، قالت لي حول عمل كل تلك الشهور.

كان العرض الافتتاحي للمسرحية فشلاً ذريعاً. لم تفتتح، كما كانت تأمل، في Boulevard des Italiens [جادة الإيطاليين]، وإنما في صالة قرب غابة فانسين. كان الرجلان مريضين بزكام أواخر الصيف، وحاولت آنا وفتاة أخرى التعويض عن خمولهما. بحثتُ عن جان-نويل لكنه لم يكن هناك. جلستُ في المسرح الصغير الرطب مع

بضعةٍ من أناس آخرين التعبُ بادٍ على وجوههم، متفرجةً على عَرْض لم أستطع تتبُّع خيط حبكته. الناقد الوحيد الذي حضر العرض، وهو شابٌّ من *Le Canard Enchaîné*[1] [البطّة المقيدة بالسلاسل]، غادر في الاستراحة. كنتُ قد أحضرت كاميرتي وثمة صورة واحدة لا تزول من ذهني: آنا، متدثّرة بشرشف أبيض لصيق بجسدها، تحاول الإفلات من القماش، مستخدمة عباراتي الفرنسية كتوسّلات وتهديدات وصرخات ألم وقهقهات، ثم تنبثق من الشرشف في النهاية، بعينين مطرقتين مثل الوجه في لوحة دُورر، شعرها الطويل يتماوج فوق كتفيها، بينما كانت فرقة "ذا دُورز"، على ما أعتقد، في الخلفية، تردّد إيقاعاً رتيباً عبر مكبّرات صوت ضعيفة. كم تُقْتُ أن أقول لآنا كم كنتُ متأسفة عليها، على فشلها. لم أقل شيئاً: كنتُ أخشى أن تُسْتَشفّ نبرةُ انتقاد أو اتّهام في مواساتي.

أمطرتْ تلك الليلة، واستلقيتُ وحدي في السرير، والأنوار مطفأة، مدركةً بطريقة مبهمة الغيابَ الذي يسكنني، وكنتُ قد أوشكتُ أعتاده، كما جِواري الخالي، وكنتُ أعمدُ إلى تشكيل الظلام حولي – ولعلّ نيتي كانت الخلود إلى النوم – الظلام العميق ذي اللون البني المحروق وراء الوجه في اللوحة، الظلام المؤطّر الذي كانت المرأة تبزغ منه، بشعرٍ من الذهب الخالص، وجذع بلون الدم اليابس، وأنا أحاول نسيان مسرحية آنا التي انتهى إليها الصيفُ الطويل، ذاك الصيف الذي يبدو الآن مؤلَّفاً بأكمله من الإخفاقات

[1] أسبوعية فرنسية ساخرة تأسست في باريس سنة ١٩٠٥، كما تُستخدم مفردة "البطّة" في المحكية الفرنسية بمعنى "الجريدة" أيضاً.

والنهايات، أو الأشياء التي شارفت على الختام.

بغتة رنَّ الهاتف. أدركتُ أنني كنتُ قد نسيتُ الصوتَ الذي يصدره الهاتف في منزلي الذي كاد أن يكون خالياً، ولا سيما في الليل.

كانت آنا.

في البداية، أربكني صوتها، كأنها كانت فتاة أخرى تنتحل نبرتَها. كانت هناك مسحة رسمية متكلّفة تشوب أسئلتها ومحاولاتها في الحديث.

كيف كانت أحوالي؟ ماذا كنتُ أفعل؟

للأصوات في آخر الليل وجودها الخاص، بمعزلٍ عن الالتزامات الاجتماعية، عن الأجواء المتعارف عليها. إنها تهيمن على المستمع، وتملأ الغرفة مثل حبرٍ يُراق على ورقٍ نشّاف. كان لصوت آنا عادةً نبرة ضاحكة، سعادةٌ بعيدة. إلا في تلك الليلة. سمعتُ صوتاً متلجلجاً يجرُّ نفسه من مقطع صوتيّ إلى آخر؛ لم يكن النطق مخموراً وإنما صعباً، كأن الانتقال من فكرة إلى الفكرة التي تليها يستلزم جهداً كبيراً.

في جُمل مفكّكة، اعترفت آنا بأنهم قد فشلوا. كانت المسرحية كارثة. ثلاثة شهور من العمل والنتيجة لا شيء. ظللتُ أسألها هل هي على ما يُرام؛ لم تتحدّث إلا عن الخسران.

أصغيتُ.

***

ثم ماتت ماما.

كنتُ قد درجتُ على زيارتها نحو مرة كل أربعة شهور، بل بتواتر أقلّ أحياناً. كنتُ أكتئب من رحلة القطار إلى ليون، مثلها مثل المنزل القديم الذي يفوح برائحة كرات النفتالين، والطلاء المتقشّر عن الجدران، والغرف المعتمة التي تواري أثاثاً عتيقاً، والخادمة العرجاء التي تعرج وهي تحمل القهوة. كانت القريبتان ترفعان للقبلات وجناتهما المتغضّنة، وكانت ماما تجلس على كرسي ظهرهُ عالٍ ككرسي أسقف ولا تقول شيئاً. زرتُها مرة واحدة في عامها الأخير، بعد عيد الفصح، ثم انتظرتُ إلى ما بعد عيد ميلادي. كانت كلُّ عطلة بالنسبة إلى القريبتين تقليداً تحرصان على التخطيط له، وفق قناعات ضمنية وقواعد صارمة، وكنت أشعر بالإرهاق بعد انتباهي إلى سلوكي طوال احتفال يدوم يوماً بأكمله، سيان كان عيد الميلاد أو أحد الشعانين[1].

كان الطقس بارداً بالنسبة إلى مثل هذا الوقت في نوفمبر، وكان هناك جليد رماديّ في الشارع، وكانت الخادمة قد أوقدت ناراً في غرفة الجلوس. قُدِّمتْ إلي سلةٌ من عدّة الحياكة فرفضتُها. كنتُ أمقتُ الطقطقة الكئيبة لإبر الحياكة: "حيكي هذه من أجل سان جوزف، وطرّزي تلك من أجل سانت آنّ". كانت إحدى القريبتين جالسة في مقعدها تكمل الكروشيه، وكانت الأخرى تقرأ رواية بواسطة عدسة مكبّرة، مهمهمةً بالكلمات لنفسها وهي تقلّب الصفحات

[1] يُعرف أحد الشعانين بأسماء أخرى مثل أحد السّعف أو أحد الزيتون أو عيد دخول المسيح إلى القدس، ويُحتفَل به قبل عيد الفصح بأسبوع.

المصفرّة. كنّ قد أجلسْنَ ماما على الأريكة، ووضعنَ وراء رأسها وسادة مطرّزة وفوق حجرها بطانية صوف ثقيلة، وكان الوزيز في صدر ماما وغمغمة إحدى القريبتين وهمسُ الأخرى، وطقطقةُ النار ورشقاتُ المطر، تجعل النهار يبدو بغير نهاية، بل حتى ساعة الحائط كانت تبدو كأنها تدقّ في نهاية الساعة نفسها التي لم تكن توافق الصباح ولا العصر. القريبة التي كانت تقرأ وضعت الرواية جانباً وانتقلت إلى مجلّد لوصفات المعجَّنات، ولكنها ما لبثت أن أغلقت الكتاب وراحت تتلو من محفوظات ذاكرتها أسماء الحلويات المتنوّعة التي تعلّمت طبخها خلال حياتها المنزلية المديدة، وانتقدت أثناء إلقائها قائمتَها عجزَ الخدم عن تحضير *mille-feuilles* [الميْل فُوي]، *diplomates* [الدِّبلومات]، *madeleines enrobées de chocolat* [المادلين الملبَّسة بالشوكولا]، *mignonnes aux cerises* [المينيون بالكرز]. عندما استدارت إلى ماما لتطلب موافقتها بخصوص استخدام مطحونَ *noisette* [البندق] بدلاً من *poudre d'amandes* [دقيق اللوز] في تحضير *gâteaux Bretons* [الكاتو البروتوني]، كان الوزيز قد توقف. رسمت القريبتان الصليب على صدريهما، أرسلت الخادمة تحت المطر لتستدعي الكاهن والطبيب ("فات الأوان، فات الأوان على كليهما"، دمدمت الخادمة بغضب)، ومدّدنا ماما على الأريكة بذراعين معقودتين وعينين مغمضتين، وعلى شفتيها طيف ابتسامة مراهقة. كمثل نحّات جصّ من القرن الثامن عشر ينفّذ قناعاً للميّت، ورغم الاستنكار الشديد للقريبتين، أعددتُ كاميرتي والتقطتُ صوراً لماما. ثلاث عشرة لقطة، واحدة بعد الأخرى،

لوجهها الذي يتحوّل كأنه يتداعى.

***

في أواخر ربيع ١٩٦٨ - في مايو -، دعتني آنا، التي لم أرَها منذ زفافها إلا لماماً، لأقضي أسبوعاً معها في الغارد[١]، في منزل مزرعة قديمة أخذت مفتاحه من إحدى عمّاتها. كان الطقس بارداً وممطراً. أثناء جلوسنا على الكراسي المحشوة بالقشّ أخبرتني عن جان-نويل. في البداية، اختفى لأسابيع. ثم عاود الظهور ذات ليلة في شقّتهما مع فتاة فيتنامية. بدأت آنا الصراخ، وقذفتهما بأغراض (عدّدت الأغراض التي كانت قد قذفتْهما بها، كأنها تنطوي على معنى سري: نبتة الصداقة في الأصيص الصيني، الدمية من بالي[٢]، مجموعة أشرطة التسجيل، القبعة الصغيرة المستديرة موديل الـ *art-nouveau* [الفن الجديد]). راح جان-نويل يضربها. أمسكها من شعرها وضربها على وجهها، من دون النطق بكلمة واحدة، بينما الفتاة الفيتنامية واقفة جانباً في الظلام. كان يفتش عن مواضع في جسدها ليضربها، وبعناية اختار تلك المواضع على وجهها وثدييها ومعدتها. ضربها لوقت طويل. اعتقدتْ أنه قد كسر أنفها، إذ بدأ ينزف، وسال الدم داخلاً فمها فتقيّأتْ. ثبّتها ممسكاً بشعرها. ركل ساقيها. لم يقُلْ أي شيء أبداً. لم تقُلْ الفتاة الفيتنامية أي شيء أبداً. ثم تركها تقع في

١ منطقة الغارد الواقعة جنوب شرقي فرنسا، على البحر المتوسط.

٢ دمية من مسرح خيال الظل في جزيرة بالي الإندونيسية.

إحدى الزوايا. جهّز كيسه القماشيّ الضخم. أخذ العديد من الأشياء التي كانا قد اشترياها معاً. وأخذ أيضاً المذياع وعلبة القهوة سريعة التحضير. ثم نادى على الفتاة الفيتنامية وانصرف كلاهما.

لم تبارح آنا تلك الزاوية طوال الليل. في الصباح التالي، اغتسلَت، غيّرتْ قفل الباب، وسكّت مفتاحاً جديداً، وأخبرت حارس المبنى (الذي كان قد أتى ليشتكي من الضجّة، وحملق كالمشدوه بوجهها المكدَّم) بألا تسمح لجان–نويل بالدخول مرة أخرى. ولكنها كانت تعلم أنه لن يعود. التزمتْ وعدها بعدم تعاطي المخدرات، وأتت على ثلاث عشرة زجاجة بوجوليه[1] خلال أربعة أيام. بعد أسبوع، طلبت من عمتها أن تُعيرها مفتاح المنزل قرب نِيم. كانت الكدمات قد اختفت، أو على الأقلّ أصبحت طفيفة إلى درجةٍ ما عدتُ ألاحظها. قالت إن خاصرتها اليمنى تحت قفصها الصدري لا تزال توجعها.

"الآن، كلتانا مترمّلتان"، أخبرتني. حاولتُ هدهدتها، ولكنها لم تسمح لي.

"أنتِ، قبطانكِ راجعٌ إليك"، قالت.

***

لقد أدهشني دائماً كيف أن الأحداث التي تسِمُ ماضينا – ماضينا الشخصي، أو ماضي جيلنا أو بلادنا أو تاريخَ العالم (إن كان ثمة شيء من هذا القبيل) – موجودةٌ خارج السلسلة اليومية من الأفعال

١ ماركة نبيذ أحمر خفيف يصنّع في مدينة بوجوليه شرقي فرنسا.

وردود الأفعال التي تؤلف سدى زماننا على هذه الأرض. الأيام مليئة بالاستيقاظ والاستحمام وقضم الخبز المحمَّص وأريج القهوة بالحليب على الفطور وهفيف الملابس وحفيف النقود وصليل العُملات والمجاملات الصغيرة والأكاذيب والشرور الصُغرى والوعود والإشراقات ولحظات الحكمة والنوم. لا شيء من كلّ هذا يخلّ بمجرى الأحداث مع ألف لام التعريف. إنها تحدث، ونحن نستمرّ. في وقت لاحق، نقول جميعاً إننا كنا نستعدّ من أجل الحدث، حتى قبل حدوثه، أو أثناءه، ومع ذلك تستمرّ الحياة بالإيقاع نفسه ووفقاً للعادات عينها.

بعد أسبوع، عُدنا إلى باريس في سيارة آنا *deux-chevaux* [دو شوفو][1] المتهالكة. تحدثتْ آنا عن جان-نويل.

دخلنا باريس من Porte d'Italie [بوابة إيطاليا] قرابة التاسعة ليلاً. قبل سان ميشيل بالضبط، توقّفت حركة المرور. أشار علينا رجال الأمن بركن السيارة. تعطّلت الدو شوفو. دفشناها إلى طرف الرصيف. بدأت آنا البكاء.

"كان يعلم أنه يضربني عندما كان يضربني".

لاح جمعٌ كبير متقدّماً في الشارع. لافتاتٌ أنارتها مصابيح الشوارع الصفراءُ، ثم طوتها العتمة تحت الأشجار، ثم استضاءت ثانية. قوّات الأمن بأقنعة واقية يلمع بلاستيكها. الهراوات في الهواء.

---

١ دو شوفو: أنتجت شركة ستروين ملايين السيارات من هذا النموذج، ومعنى الاسم "حصانان". كان رمز هذه السيارة صغيرة الحجم 2CV أي "حصانان بخاريان"، وقد لاقت شعبية واسعة في فرنسا خلال سنوات الستينيات والسبعينيات، وظهرت في أفلام جيمس بوند.

سيارة مصفّحة كوحيد قرن، مصابيحها العالية مضاءة. امرأة في مئزر أبيض واقفة أمام باب بقالية من بقاليات *quatre-saisons* [الفصول الأربعة] تنحني وترفع صندوقاً من البندورة الفاسدة. في الضوء الأصفر، رشقاتٌ حمر تغطّي السيارة المصفّحة. دروع قوّات الأمن تعلو. مصباح كاشف يسطع، أبيض الضوء.

"لو كان قد تكلّم على الأقل".

يتقدّم الجَمع عاقدين أذرعهم بعضها ببعض. انفجارات؛ تطلق قواتُ الأمن قنابلَ غاز. تحت الأضواء، اللافتات تقول: "المَنع ممنوع". "CRS = SS"[1] [قوات الأمن الجمهوريّ = رجال الأمن النازيّ]. "العالم القديم وراءك. السلطة للخيال". تُحدث قنبلة ثقباً في قماش لافتة. يتصاعد الدخان أصفر ورمادياً. قوّات الأمن تتقدّم بالتروس، متراصّة الصفوف؛ تضيقُ الفجوة.

"كان للفتاة الفيتنامية وجه صغير جداً، وفيه آثار بثور".

يعلن مكبّر صوت أنّ الطلبة في سجن سانته لن يُفْرَج عنهم. تهدر الحناجر من تحت اللافتات. سيارة دياس مركونة إلى يمين الشارع ("ستخدمك الإلهة جيداً")[2]، تنفجر وتشتعل. نيران حمر وزُرْق وبرتقالية. صفّارات تدوّي في مؤخرة الصفوف، ولكن المركبات عاجزة عن اختراق الحشدَين. رؤوس تطلّ من الشرفات. يشرعُ

١ SS: أسراب الحماية أو فيالق الدفاع، وكانت الجناح الأمني للحزب النازي، وقد سميت في بداية تأسيسها "أسراب العاصفة".

٢ يُرمز إلى سيارة ستروين دياس بالحرفين DS، وعند لفظهما معاً تتكوّن كلمة Déesse أي "إلهة" بالفرنسية.

الطلبة باقتلاع حجارة الأرصفة. "اشنقوا الأرستقراطيين"[١]! وفي مكان ما، موسيقا بيانو.

"لم ينبسْ بكلمة، لكنه كان قادراً على ضربي".

قنابل غاز مسيل للدموع تُطلَق من مسافة قريبة جداً. صيحات ونداءات. الروائح، بالترتيب التالي: دخان الخشب، الأمونيا، أبخرة الغاز، البترول، الشعر أو الجلد المحروق، البارود كبارود المفرقعات ليلة رأس السنة. حجرٌ مقتَلَعٌ يهشّم واجهة مكتبة، فينهار عمود من نسخ كتاب *Essais sur Les "Essais"*[٢] [مقالات حول "المقالات"] لميشيل بوتور. امرأة نازفة يحملها أربعة رجال، ذراعها اليسرى تتدلّى حتى الأرض. سائقو سيارات الأجرة يُوقَفُون في الشوارع الجانبية ويُجبرون على حمل الجرحى. أحدُ السائقين، وهو جزائري، واقف جنب الباب المفتوح لسيارته، متفرّجاً وهو يحكّ رأسه ويضحك: "يا ربّي، ما هذه الشوربة!". إنه يرتدي قميصاً مخطّطاً كجلد النمر.

"كانت هناك لحظة من غير بدّ عندما رأى نفسه يضربني".

كان الرتل الأزرق يتقدّم شاقّا طريقه ملتوياً مثل يُسروع، والدروع المطاطية مرفوعة. تنهال عليه الأحجار. يرتدّ إلى الوراء، يصيح، يتقدم من جديد. "انهضوا، أيّها المعذّبون في الأرض"[٣]. يمرُّ أمامنا

١ العبارة هي "الأرستقراطيون إلى أعمدة الإنارة" حرفياً، وتعود إلى الطور الأول من الثورة الفرنسية، في صيف ١٧٨٩، حين عُلّقت مشانق الأرستقراطيين والضبّاط إلى أعمدة الإنارة في باريس.

٢ تناول ميشيل بوتور (١٩٢٦-٢٠١٦) في كتابه النقديّ، الصادر سنة ١٩٦٧، العديدَ من أفكار ميشيل دو مونتنيِي صاحب "المقالات".

٣ أو "هُبُّوا ضحايا الاضطهاد" في تعريب شائع، هو مستهلُّ النشيد الأممي الذي

رجلٌ، ممسكاً عينه اليسرى، متعثّراً. عجوزان واقفتان أمام الباب الرصاصي لمبنى سكني عاقدتين أذرعهما. تتوقّف الصفارات بغتة، ثم تبدأ من جديد. دويٌّ فصمتٌ فدويّ.

"من دون كلمة واحدة".

وعلى هذا المنوال، انقضى الليلُ كلُّه، والمجموعات تنقسم إلى مجموعات أخرى. هنا، امرأة عارية الكتفين مرفوعة على المناكب. هناك، رجالٌ سُودُ الشُعور، حليقو الشوارب والذقون، عاقدين أيديهم. قوّات الأمن: البدلات ممزّقة، الدروع مهشّمة، الهراوات مكسورة. ولكن ما من وجوه ظاهرة في صفوفهم. الوجوه في المعسكر الآخر، ومعظمهم شبّان. لقد كبُرتُ، أكثر من أي وقت مضى في هذه المدينة.

هذه هي انطباعاتي العابرة. لا أحد يستطيع القول إنني لم أكُنْ هناك.

***

كانت سنة ألف وتسعمئة وثمانية وستين هي سنة عيد ميلادي الأربعين.

ولكن لا شيء يبقى من مايو ذاك. كان قد أصبح، بعد مضي اثني عشر شهراً لا غير، موضوعاً للأحاديث. كانت لا تزال هناك بضع

كتب كلماته العامل الفرنسي أوجين بوتييه سنة ١٨٧١ كقصيدة لكومونة باريس، وقد تبنّت هذا النشيد الكثير من الحركات والأحزاب اليسارية والشيوعية عبر العالم.

كلمات مخربشة على جدار Pont Henri IV [جسر هنري الرابع]، على نافورة سان ميشيل الذي يصرع التنّين، حول محطة المترو جوسيو، أما ما تبقى، فكان أشبه بأمسية في الأوبرا، أو نزهة يوم الأحد: "كنا هناك". الآن، الجميع كانوا "موجودين هناك". درجت موضة هذا القول كثيراً[1].

كان القبطان قد عاد في إجازته الأخيرة، وأقامت مونيك حفلة من أجلي في منزلها، وأدركتُ أنني لا أكاد أبالي أو لا أعرف حقاً أي وجه من الوجوه وسط الذين كانت قد دعَتْهم إلى عيد ميلادي، احتفالي برحيل سنةٍ أخرى (أو بقدومِها)؛ كانوا معارف عرَضيين فحسب، أصدقاء مونيك، أناساً كان القبطان يعرفهم فيما مضى. كنتُ قد وصلتُ (أو على أهبة المغادرة) من دون ملامسة الكثير من المرافئ في الواقع. لم تكن آنا مدعوّة.

كان القبطان الآن قد عُيِّن في منصب وظيفي ثابت في كِيه دورسيه. لقد كان بعيداً طوال الوقت، سنوات اللقاءات القصيرة والرسائل والمواعيد التي فوّتناها ذابتْ كلّها في الماضي.

١ في ٢٢ آذار/ مارس ١٩٦٨، اقتحم عدد من الطلاب مكتب رئيس الجامعة في نانتير غربي باريس، احتجاجاً على اعتقال زملاء لهم ناهضوا حرب فيتنام، المستعمرة الفرنسية السابقة. تقرر مثول المقتحمين أمام محكمة التأديب في ٣ أيار/ مايو، فاحتشد طلبة متضامنون معهم في ساحة السوربون، واصطدموا بشرطة مكافحة الشغب، وأغلقت الجامعة، وفاقمت الاحتجاجات إضراباتُ العمال التي عمّتْ فرنسا كلهاَ. امتدت المظاهرات إلى الحي اللاتيني وأماكن أخرى في باريس، وكان الطلبة ينشدون النشيد الأممي، ويقتلعون حجارة الأرصفة والشوارع ويرمون بها قوات الأمن، وقد اعتُقل كثيرون منهم وجُرحوا، ودُهمت منازلهم وغرفهم. لعل شعارهم الأشهر هو "كونوا واقعيين، اطلبوا المستحيل".

في كثير من الأحيان، قبل عودته، مستلقية وحدي في الشقة الخالية، كنت أحلمُ بمَشاهد كنّا فيها، أنا وهو، جالسَين معاً إلى مائدة الفطور، أو نخطّط لعطلة نهاية الأسبوع في الريف، أو نشتري الخضراوات والفواكه أو النباتات في سوق Rue Montorgeuil[1] [شارع مونتُرغوي]. كنتُ أؤدي هذه الأحلام كعروض في مسرح خيال الظل، فأدخل هذه الشخصية وأستبعد تلك. كنا نتحرك حركات متشنّجة، مثل بانتش وزوجته المحبّة جودي[2]، والأحاديث التي كنا قد تبادلناها في مدينة ماضيٍّ ذات الجدران البيضاء، وممارسة الحب، كلُّ شيء كان يحدث ويتكرّر مراراً بين هذه الجدران الأخرى.

لم يكن الأمر على ذلك النحو.

كنتُ أحبُّ هيئته في ضوء الصباح جالساً قبالة النافذة محفوفاً بضياء الشمس والهباء الطافي. كنت أحبّ ضخامته البدنية، ووجهه الشائخ. كنتُ أحبّ شكل أذنيه.

لكن بعدئذ، أثناء الفطور، كانت تفاصيل في منتهى الصغر وغير متعمَّدة تفسد المشهد عند وقوعه، على استحياء في البداية، ثم تزداد إلحاحاً أكثر فأكثر. كنتُ أشعر أن منامتي مجعَّدة، وتحكّني وتنبعث منها رائحة نتنة. كان يبدو مشعثاً نابت الذقن. كانت الضجة التي يُحدثها فكّاهُ وهو يطحن خبزَه المحمَّص، الفتات الذي يلتصق بطرف فمه، نتفة الوسخ تحت ظُفره، تزعجني كجلبةِ

---

١ كان مونتوغروي حيّاً شعبياً في قلب باريس القديمة.

٢ جودي وبانتش: شخصيتان معروفتان في مسرح العرائس الإنكليزي، وقد عرضت هاتان الدميتان للمرة الأولى في كنيسة القديس بولس في لندن سنة ١٦٦٢.

زجاج يتهشّم. أثناء أيام الانتظار، كنتُ أنزل أحياناً، إذا كان مزاجي رائقاً، وأشتري خبز باغيت أو بضع *croissants beurre* [كرواسان بالزبدة]، ونسخةً من اللوموند، ثم أجلس إلى جوار تلك النافذة أرتشف كوبي من القهوة بالحليب. الآن، حين أعود بالجريدة، سوف يبتسم لي (وذلك هو القسم الأسوأ، الابتسام) ويسألني عن عملي (أمقتُ ذلك أيضاً، لأنه لم يكن لدي في معظم الأوقات أي شيء أطلِعه عليه، وكان فضوله يفضح غفلتي وتقاعسي) ويأخذ الجريدة مني (بأسلوب مؤدَّب، طبعاً) ويقرؤها بصمت، أو يكسر أطراف الكرواسان، أو يغمس الباغيت المدهون بالزبدة في قهوته، فتظهر طبقة من الزبدة الذهبية معرَّقة كالرخام داخل كُوبه، ويبلغ الفطور ختامه بالنسبة إليّ، وتنتهي معه بهجة الصباح وهدوؤه، فأكرهه فجأة، أو لعلها ليست الكراهية، وإنما شعورٌ عارمٌ بالنفور، بالحنين إلى وحدتي مرة أخرى، إلى القدرة على الاشتياق إليه، أو شعورٌ بالذنب لأنني أتمناه بعيداً، ثم الحزنُ الذي يلي كلَّ ذلك، ومن بعده التعب، الوَهَنُ الطاغي، والحاجةُ إلى ابتداء اليوم بحبّه.

كانت لحظات وجيزة، صغيرة كذرات غبار، لا تكاد تستحقُّ التذكُّر، وسرعان ما تتغلب عليها بيسرٍ بالغ نعمةُ وجودي معه، فهو قبطاني في نهاية الأمر. كانت مونيك، في لقاءاتنا النادرة، تسأل – *Tout va bien?* [كلُّ شيء على ما يُرام؟] – وهي تشدّد على الكلمات بطريقة درامية، فيخيب ظنّها قليلاً عندما أجيب، وأنا أضحك، إن كل شيء على ما يُرام بصورة خرافية. "خرافية: أسطورية، لا تُصَدَّق،

غير معقولة". لم تكن مونيك تصدّقني. كانت تعتقد أنها الوحيدة المخوّلة بما كانت تدعوه "نعمة الزواج". كانت بناتها آنذاك قد غادرن البيت، وصار حارس القلعة متابعاً حثيثاً لكرة القدم، وكان يجلس لدهورٍ بعد الظهر مشاهداً المباريات على شاشة التلفاز. بالنسبة إلى مونيك، كانت هذه هي الحياة الطبيعية، وكانت ستحملق بكلّ مَن لا يحسدها عليها عاجزة عن فهم السبب. أعتقد أنني حسدتُها أحياناً، لأن سعادتها بدَتْ في منتهى السهولة.

ابتعدت آنا عني خلال تلك الشهور. صرت أراها بوتيرة أقل فأقلّ، كأنها، هي والقبطان، لا يستطيعان أن يشغلا الحيّز نفسه، الفضاء نفسه، وإنما كانا شخصيتين في منظرين طبيعيين مختلفين. افتقدتُها على مضض، ثم ما عدتُ أفتقدها إطلاقاً. تلمّستُ غيابها مرتين أو ثلاث مرات، مثل تلك المرة التي أزيلت فيها مباول الرجال، *les vespasiennes*[1]، من على أرصفة سان جرمان. في الأيام الأولى، كنا، أنا وآنا، نجلس في مقهى فلور ونضحك من السيقان التي تلوح بشكل غريب أسفل أسطوانات من الحديد المشبّك كانت قد سُمّيت على اسم الإمبراطور الذي نصب المراحيض العمومية في روما. كنا نجلس ونحزر الأجساد والرؤوس التي تناسب هذه السيقان، كنا نخترع مغامرات

[1] نسبة إلى الإمبراطور الروماني فسبازيان (٩– ٧٩) الذي حاصر القدس للقضاء على اليهود، وأعاد النظام إلى روما بعد انتحار نيرون. عرف بإصلاحاته المالية التي شملت فرض الضرائب حتى على المباول والمراحيض العامة في روما القديمة، وحين احتجَّ ابنه الشاب لأن مثل هذه الضريبة تنافي الكرامة، أمسك الإمبراطور الشيخ بعض النقود المحصَّلة منها، وقرّبها من وجه الشاب وقال: "انظر بنيّ، هل تشمُّ لها رائحة كريهة؟".

لأصحاب تلك السيقان. وكانت آنا ترمي برأسها على كتفي، في ضحك مجلجل، ثم تتركه هناك دقائق عدة، وشعرها على وجهي. أفتقد ذلك الآن.

المرة الثانية كانت عندما ظهرتْ أمامي، وسط أكداس الكتب الكاسدة خارج مكتبة إتيين مارسيل، نسخٌ من كتاب ضخم عن دُورر كانت قد أعطتني إياه ذات مرة. كانت قد ادّخرت نقوداً – يعلم الله من أين – لتشتري المجلَّد الباهظ الثمن وقتذاك، وقد تمعّنا عن كثب في امرأتي، وقارنّاها بصُوَرِ دُورر لـMater Dolorosa [مريم أمّ الأحزان]. أمسكت آنا وجهي بيدها اليسرى وقالت إنني أشبه المرأة في البورتريه. التقطتُ صورةً أو اثنتين لنفسي بجوار ذلك الوجه. ليست لديّ أي نسخة منهما.

***

بعد ظهر أحد الأيام في نوفمبر، التقيتُ القبطان على الغداء في ساحة دوفين، وسألني هل أنا راغبة بالعيش لبعض الوقت في أميركا اللاتينية، في الأرجنتين. لقد انتهتْ أيامه في الجيش. "بعد عمر الخمسين يصبح العسكري بيروقراطياً"، قال. والآن، أمامه بعض العمل لينجزه في السفارة في بوينس آيرس، "كمُستشار خارج البلاد".

وأردف: "بالنسبة إلى الفرنسيين، بقية العالم كله ليست إلا خارج البلاد".

فرصةٌ لاختبار تجربةٍ مثيرة.

كنا جالسين في الخارج، رغم الريح، متفرجين على المتسكّعين أمام واجهة الكونسييرجري حيث سُجن ذات مرة رافاياك، قاتل هنري الرابع، وعُذّب قبل إعدامه[1]. كانت هناك أوراق في الريح، وما انفكّت تتساقط على طاولتنا وسط كؤوس النبيذ، وترسمُ علاماتها النديّة على غطاء الطاولة البلاستيكي الأخضر.

قال القبطان بغتة، مشيراً بيده إلى النساء والرجال المتنزّهين، إلى الريح الرطبة، إلى الغصون الجرداء:

"لستُ مولَعاً بكل هذا، البنايات، الشوارع، الطقس، الأشجار... أشعر كأننا نمشي عبر غرفة مهجورة مليئة بالبقايا وسقط المتاع والتاريخ المهمَل. وأنا الناجي الوحيد". "وأنتِ"، أضاف مادّاً يده ليمسك بيدي.

"سأشتاق إلى باريس"، قلتُ.

"صدقاً، لا أظنّ أنني قد اشتقتُ إلى أي شيء في يوم من الأيام"، أجابني.

احتفظتُ بقاعدة كوب ورقية من غداء ذلك المطعم طيَّ رواية مونترلان *Les Filles* [الفتيات[2]]، ثم، حين أعرتُ الكتاب لآنا،

---

[1] صالَح الملك هنري الرابع بين شقّي فرنسا المتصارعين، أي الكاثوليك والبروتستانت، بعد صراع بينهما دام مئتي سنة، ثم نكل حفيده لويس الرابع عشر، الملك الشمس، بعائلات الأقلية البروتستانتية. كان هنري الرابع بروتستانتياً واعتنق الكاثوليكية، مذهب الأغلبية في فرنسا، ولكن الكاثوليك المتعصّبين رأوه مهرطقاً، وبعد محاولات اغتيال عدة، قُتل بخنجر مسموم على يد شاب يُدعى فرانسوا رافاياك.

[2] الرباعية الروائية **الفتيات الشابات** أحد أشهر أعمال الكاتب الفرنسي هنري دو مونترلان (١٨٩٥- ١٩٧٢).

وضعتُها داخل صندوق من صناديق صوري الفوتوغرافية.
وسط الموتى.

***

أنهينا الترتيبات للمغادرة بعد عيد الميلاد، عندما كانت الشوارع مسدودة بثلج متّسخ والحافلات مليئة بأناس لم يغتسلوا يسعلون ويغضبون. وكنتُ أنظر إلى ذلك كلّه، وأحبّه رغماً عن كل شيء، لأنني تخيّلتُ أنني كنتُ سعيدة هنا.

اتصلتُ بآنا للمرة الأخيرة، والتقينا في كافيه دو فلور [مقهى فلور]، "من أجل الذكرى"، ولكننا جلسنا في الداخل هذه المرة. كانت الطاولات والكراسي على الرصيف قد وُضِعت جرّاء الشتاء القاسي خلف سواتر زجاجية سميكة، فدخلنا إلى الـ *salle* [الصالة] واقتعدنا المقاعد البلاستيك النبيذية اللون، وطلبنا كرُوْغ ساخناً بالليمون يتصاعد منه البخار في كأسين ثبّتَ كل منهما داخل قالبٍ معدني.

لم نتبادلْ الوعود بكتابة الرسائل، وكنا نعلم أن الوعد بأن تزور إحدانا الأخرى غير ممكن، وما أسدَتْ إحدانا نصائح للأخرى، ولكنّ آنا ارتمتْ بين ذراعيّ عند الوداع ولفّت يديها حول خصري، فأدركتُ، وأنا أحتضنها بقوّة، وأحسّ بجسدها الصغير الصلب على جسدي، وأكاد أحسُدها عليه، كم كان بمقدورها استغلال قوامها الرشيق ليشتهيها الآخرون، ولتلتمس منهم الحماية، وتساءلتُ لماذا

سيرغب أي شخص في إيذاء هذا الجسد، وكيف للمرء أن يرتكب بحقه أي شيء سوى احتضانه واحتوائه وهدهدته لكي ينام.

راقبتُها تبتعد تحت الضوء الأصفر للمكتبة عند الناصية، ثم وهي تجتاز الشارع دون أن تلتفت لتتوارى في زحام المارّة.

•

بوينس آيرس

أين بوينس آيرس؟

بعد سنين، في بيتي الأرجنتيني، حين كنتُ أفرِغ صناديق صوري الفوتوغرافية على الأرض، استعداداً لإتلافها، عثرت على قاعدة الكوب الورقية الباريسية مرة أخرى، مخفية بين صور زمان آخر: نوافذ صغيرة ظلّت كلُّها مسدودة منذ ذلك الحين. وجوه، أجساد، أجزاء من مناظر طبيعية، الأقسام العلوية من كراسٍ ذوات مسندين، أُطر أبواب، مشاهد للشوارع، عاشقان متعانقان، جالسون مستوحدون، مجموعات في وضعيات مضحكة. لبعضها حافات مسنّنة، وليس لبعضها الآخر أي حافات بتاتاً.

تبدّت بوينس آيرس فسيفساء من مدينتيّ الأُخريين، جزائر هجينةً تحوّلت فيها المباني المقنطرة الوسخة إلى قصور فرنسية باروكية الطراز، والمنازل الفسيحة المنبسطة الملتمّةُ حول فناء داخلي منعش البرودة قد توارَت خلف واجهات نابليونية من الدائرة الباريسية الخامسة عشرة. كان الناس، شأن الناس في أفريقيا، يجلسون بأعدادٍ غفيرة إلى الطاولات في مقاهي الرصيف الشبيهة بالمقاهي الباريسية،

ورجال بوجوه ملوَّحة نحاسيّة يتدافعون أمامي مرتدين بدلاتٍ رسمية من جادة ماتينيون[1]. باريسيةً كانت حركةُ المرور والشقق السكنية؛ جزائريةً الأشجارُ والموسيقا في الضواحي. كنتُ أتوقف أحياناً عند إحدى النواصي، مبلبلة، كأنني انتقلتُ إلى ناصية أخرى تركتها ورائي منذ وقت طويل. شعرتُ بالحنين مراتٍ كثيرة.

الصور الفوتوغرافية.

الوجه الأسمر المبتسم لامرأة سمينة ذات شعر أسود قصير مسبل (الجميع مبتسمون في الصور الفوتوغرافية. أدعهم يتسمون). فستانها مزركش بالزهور. وراءها باب بيتنا بقضبانه الحديد المتصالبة في حيّ بلغرانو. لا يمكننا أن نرى الجدران الضخمة المزينة بالزخارف، النوافذ الطويلة ذات المصاريع الحديدية، الشرفات التي لا تُسْتخدم البتة، وراءها تقع غرف النوم المخفية بستائر مخرَّمة طويلة وأستار من الساتان. اسمها لورينتا؛ كانت تطبخ وتغسل وتكوي الملابس، كانت تحبّ اتخاذ الوضعيات أمام الكاميرا. كما كانت تقدّم العشاء حين يزورنا ضيوف من السفارة، أو معارف القبطان في عمله الجديد، ثم كانت اليافعة بنت عم لورينتا، واسمها ريبيكا، تأتي لمساعدتها، فتاة بعمر اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً وتجيد العمل في المطبخ.

كانت لورينتا تدّخر كل مالها (كانت تنام في غرفة مطلة على التراس الخلفي) وترسله إلى زوجها في السجن. كانت تزوره كل يوم أحد. كانت رحلة الباص تستغرق قرابة ساعتين ذهاباً وساعتين إياباً. كانت في الخمسين دون أن تُوحي بأي عُمر، فهي أكبر من أن

١ جادّة في الدائرة الباريسية السابعة، ويقع فيها مقر رئاسة الحكومة الفرنسية.

تكون فتاة مراهقة، ونضارة بشرتها الناعمة تنفي الكهولة. كانت وافدة إلى بوينس آيرس من لا ريوخا خلال الخمسينيات، عندما دعا بيرون الفقراء إلى "القدوم والاستيلاء على ثرواتهم". وعلى منوال الكثرة الغالبة من الناس، فهمتْ أن المقصود بهذه العبارة هو بوينس آيرس، "قلب الأمّة"، "مدينة بابل على ريفر بلايت". كانت تنام في منزل مصنوع من الحديد المموَّج[1] وراء جدار مرصَّع بشظايا زجاج غُرِزت بكل اعتناء في الإسمنت. انتقلت لاحقاً إلى منزل عمّها في شارع هادئ مشجَّر، منزل ذي فناء كبير ودوالي عنب غبراء. كانت قد عملت طاهيةً لدى سيدة ألمانية، وعندما ماتت هذه السيدة، أوصت ابنتُها بلورينثا لدى شخص في القنصلية الفرنسية. كانت قد تعلّمت أن تطبخ أطباقاً لا تستطيع أن تلفظ أسماءها. كانت تحبُّ الكُسكس الذي أعدّه، وتقارنه باللوكرو[2] الذي كانوا يعدّونه في منطقتها. أثناء كيّها الثياب، بعد الظهر في أيام الخميس، وهي تستمعُ إلى مسلسلات درامية إذاعية، كنتُ أراقبها وأنا أشعر أنني عديمة النفع كلّياً. فقررتُ فعل ما لم أفعله في باريس: الاحتفاظ بسجلّ، من أجل نفسي هذه المرة. للمرة الأولى، استخدمتُ فيلم التصوير الملوَّن. كان أول بورتريه صوّرته بالألوان هو بورتريه لورينثا المتكئة إلى جدار أحمر، وتكاد بشرتها تتماهى مع حُمرته.

---

١ ألواح الحديد المموَّج التي تُجعل سقوفاً للمباني الرخيصة، وتُبنى منها بيوت الصفيح.

٢ locro: يتكون هذا الطبق من الذرة البيضاء ولحم البقر أو الخنزير والسجق والخضار، وهو طبق يخنة تقليدي في أميركا اللاتينية على امتداد جبال الأنديز التي يتاخمها إقليم لا ريوخا.

صورةٌ فوتوغرافية أخرى، مغبَّشة:

شارع فلوريدا[1]، حي التسوُّق، قبل أن يغصَّ بأصص الزهور. وسط الجمهرة الغفيرة من الوجوه المستعجلة، موظَّفي المكاتب، الصبيان المراسيل بين المتاجر والبيوت، النساء العابسات، المسنّين المتْعَبين، ثمة امرأة في أواسط عمرها ترتدي طقماً أزرق حافاته بيضاء، شقراء الشعر، وعلى خصرها محفظة زرقاء والذراعُ التي عُلِّقت إليها تبدو مقوَّسةً مثل مقبض إبريق شاي. الصورة غير واضحة: عليّ التحديق بها عن قرب لأتبيّن تقاطيع المرأة أو تعابيرها، وعندما أفعل ذلك، أراها تزمُّ عينيها مثلما أزمُّ أنا عينيّ الآن. إنها أنخيليكا إتورّالبي، الكاتبة ومؤلفة عشر روايات، العديد منها لم يُطبَعْ هنا في الأرجنتين فحسب، وإنما – كما كان يحلو لها التنويه – في إسبانيا أيضاً. كانت السيدة إتورّالبي من الكتّاب الأكثر مبيعاً. كتب ثلاثة طلبة أميركيّون أطروحاتهم عن أعمالها. نُقلت رواياتها **تجّار اللحوم** و**اسمي إسبيرانثا** إلى شاشة السينما، وأُعِدَّت مجموعتها **قصص مع شاي العَصر** من أجل مسلسل تلفزيوني. إنها تكتب عموداً أسبوعياً حول قضايا المرأة في مجلة الأحد الملحقة بصحيفة *La Nación*[2]. التقينا لأنها كانت راغبة في مقابلتي بصفتي زوجة "شخصية مهمة" في الطاقم الإداري للسفارة الفرنسية.

"لقد تطلّعنا، نحن الأرجنتينيين، إلى فرنسا على الدوام، أكثر من إنكلترا. الأزياء، الأدب، العمارة، المطبخ... كل الأشياء المهمة أتتنا

١ شارع فلوريدا: شارع رئيسي ومركز تجاري في بوينس آيرس.

٢ *La Nación* يومية أرجنتينية محافظة واسعة الانتشار في الأرجنتين.

من فرنسا"، كتبت لي. فهلّا التقيتها في شقّتها لنشرب شيئاً بعد ظهر يوم قريب، عند السادسة؟

كانت شقة السيدة إتورّالبي (كانت مطلّقة مرتين، وكلا الطلاقين في المكسيك، لأن الطلاق لم يكن مشرَّعاً في الأرجنتين آنذاك، ولكنها كانت قد احتفظت بكنية زوجها الأول) مؤثّثة وفق الطراز الذي سمّته "لويسنا الخامس عشر": أُطُرٌ مذهّبة مزخرفة حول مرايا كبيرة، طاولات صغيرة مرصّعة بالعاج وعِرق اللؤلؤ، كراسٍ مقوَّسة القوائم مع ظهور محشوّة وطيور صينية مطرَّزة على قماش التنجيد كلّه. كان المشروب ويسكي اسكتلاندياً. كانت السيدة إتورّالبي (لم أنادِها قط بأي اسم آخر غير السيدة إتورّالبي، حتى بعد أن أصبحنا صديقتين) تتحدث بلغة فرنسية ممتازة - وإن كانت رسمية أو عتيقة الطراز بعض الشيء - وسألتني عن رأيي في بلدها "الشاسع الضبابيّ". كان قد انقضى عليّ إقامتي في الأرجنتين بضعة أشهر فحسب، ولم أكد أتكيّف مع تقلُّب الفصول، ولم أتعلّم اللغة. أجابت السيدة إتورّالبي نيابةً عنّي: "كان هذا البلد سيتفرَّد تفرُّداً خارقاً لو لم يكن سكّانه بكل هذا الكسل".

- لا أحد يعمل، عملاً حقيقياً؛ لا أحد يقدّم قدوة يُضْرب بها المثل. في السنوات التي سبقت الحروب، الحروب الأوروبية، كان والدي رجلاً عادياً، ولكنه كان غنّياً من دون أدنى شكّ.

والدها، ولم تقصدْ نفسَها: أصرّت السيدة إتورّالبي على أنها في مقتبل كهولتها.

- كان البيزو يعادل دولارين؛ أما الآن...

ثم رفعت كأسها ولوّحت في حركة دراماتيكية بذراعها الأخرى التي لا تحمل شيئاً، كأنها ستعانق المجهول.

كانت قد حاولت أن تؤرّخ "الانحدار إلى الجحيم" من الديماغوجية إلى الديماغوجية، من الفساد إلى الفساد، في رواياتها. هل قرأتُها؟ وا أسفاه، لم تكن قد تُرجِمت منها إلى الفرنسية إلا رواية واحدة فقط. *¡Trabaje, Hombre, Trabaje!* [اِعْمَلْ، أيُّها الإنسان، اِعْمَلْ!] تحوّلت بالترجمة إلى *Le Chant du Laboureur* [أنشودة الحارث]، وصدرت بغلاف ورقيّ.

– ليست بتلك الطبعة الأنيقة، ولكن ليس لنا أن نكون متطلّبين. تلقيتُ رسالة تهنئة من إسكاربي[1]، وبالطبع لا شيء سوى الصمت من طرف زملائي.

ودسّت الكتاب في يديّ. ولا بدّ لي من قراءة عمودها الصحفي الذي كان سيعرّفني إلى "الأرجنتين الحقيقية". الأسبوع الفائت – هل اطلعتُ عليه؟ – كانت قد كتبتْ عن قلة الاهتمام الذي يُولَى لصيانة الحدائق العامة في المدينة. والأسبوع الذي قبله، كانت قد كتبتْ عن نموّ أحياء العشوائيات الذي كان قد بدأ، على حدّ زعمها، خلال حقبة بيرون الدكتاتورية الأولى (كانت تبغض الدكتاتور الطاعن في السنّ؛ كان قد أرغم والدها على بيع منازله وشُققه ليعيش حياة بؤس مدقع. كانت ترى بيرون في ألوان فوسفورية فاقعة، شيطاناً من أكريليك[2]).

١ روبير إسكاربي (١٩١٨–٢٠٠٠): أكاديمي وكاتب وصحافي فرنسي. اشتهر بمقالاته الساخرة في صحيفة *Le Monde*.

٢ الأكريليك نوع من اللدائن، يعرَّب اسمه أحياناً إلى الزجاج الشبكي.

"الكاتب هو عينا المجتمع في بلاده، وهو أنفه وأذناه"، قالت. لقد أحسّت أن من واجبها تدوينُ شهادتها. "هذه المهمة البائسة صارت إنجيلي"، قالت. قرعت الجرس لتأتي الخادمة بالمزيد من قطع الثلج، واقترحت أن تعيد ملأ كأسي بالويسكي.

***

ثمة صور فوتوغرافية للقاءات أخرى. مع عائلة روساليس، مهندس وزوجته التي صادقتنا بُعيد وصولنا؛ مع ميرتا بيكستاين، صاحبة صالة الفنون التي عرضتُ فيها صُوري آخرَ الأمر؛ مع السفير الفرنسي. في صورتي المفضَّلة، تظهر السيدة إتورّالبي بجانب نسخة من أحد كتبها، مع صورتها على الغلاف. الوجهان - كلاهما بالأبيض والأسود، أحدهما مؤطَّرٌ بحافات الكتاب، والآخر بأطراف ورق التصوير الفوتوغرافي - يسائلان أحدُهما الأخر.

صورة أخرى: أمام منقل شواء قرميدي يتصاعد منه الدخان يقف رجلان بقميصين أبيضين مفتوحين. أحدهما هو القبطان، يبتسم والحرج بادٍ عليه. الذراع فوق كتفي القبطان تعود إلى رجلٍ أسود الشعر وذي شواربٍ. اليد المتدلية من الذراع تحمل مِلْوَقاً[1]. لهذهً الصورة سِمة فريدة هي أن الرجل صاحب الشوارب لا يبتسم. وجهه متغضّن كما لو في ابتسامة، الغمازات في خدّيه، التجاعيد في جبهته، ولكن مسحة غضب تشوب عينيه، غضب يبدو مستفحلاً بحضور القبطان.

١ مِلْوق: أداة ذات شفرة عريضة لبسط العجين أو اللحم أو سواهما.

كان القبطان يقول لي:

"كاساريس لا يفكّر. إنه يتصّرف بناء على مفهوم للواجب فضفاض وعديم المعنى. فهو يعرف أن هناك أشياء يتوجّب عليه فعلها، وعليه فعلها لأنها واجبه. وعند سؤاله ما هو واجبه، فسوف يجيب بأن الواجب هو الأشياء التي يتوجّب عليه فعلها".

كانت زوجة كاساريس امرأة من الشمال، نحيلةً وشديدة السُّمرة. ذات مرة، باغتها وهي تقرأ ديواناً للشاعر الشيوعي نيرودا فأضرم النار في مكتبتها الصغيرة بأكملها. كانت تقول هذه القصة كأنها في منتهى الطرافة، ولا تكاد تتمالك أنفاسها من شدة الضحك أثناء روايتها. كان لهما أربعة أطفال: ثلاثة صبيان وبنت. وعندما ذهبنا إلى دارتِهما الريفية في يوم سبت أو أحد، كنتُ أتفرّج عليهم وهو يلعبون، وألاحظ بأي سرعة يكبرون، وأتساءل لو كان طفلي الميّت سيشبه الصِّبيان أم البنت. أحياناً، كنتُ أحسدُ السيدة كاساريس.

***

مارس ١٩٧٢. كان صيفاً آخرَ حارّاً (حياتي تعاقب فصول متطابقة، من الصيف إلى الصيف، من الهواء الجاف للجزائر إلى الهواء الرطب لباريس، من الهواء الرطب لباريس إلى الهواء شديد الرطوبة لبوينس آيرس: حضارات من دون مكيفات هواء). حفلة شواء في دارةِ الكولونيل كاساريس في الريف. أشجار، بركة بطّ، بركة سباحة، جهنمية ضخمة معرّشة على الجدران المقنطرة للمنزل، بزهورها

الأرجوانية على خلفية وردية. تمشيتُ في أرجاء شبه البرية هذه، ونبحَ عليّ كلبان جيرمان شيبرد[1]. في منتصف ممشى وسط الأوكاليبتوس، توقفتُ. مستلهمةً ذكرى سيدتنا قطعتُ وعوداً تتعلّق بالمولود إذا أتى، وماذا سأفعل عندما يُنْعَمُ به عليّ، لعلّ وعسى. لم أرغبْ في تحقّق أي شيء سواه. تضرّعتُ: "اِحميه من الضياع. رحماكِ، يا أمَّ الله".

أشدُّ ما أفزعني كان ظلُّ الآخر، الجنين الميت الذي لم أسمّه حتى، لا جنسَ له، لا شكلَ له، لم يُولَدْ. والآن كانت أحلامي تدور حول الدخول إلى غرف فارغة بصمت، أو المشي في ممرات باتجاه أبواب مغلقة تنفتح بطريقة سحرية أمامي. ظللتُ أردّد لنفسي أن الوصول يحدث بعد المغادرة: فليتحقق الرجاء هذه المرة، فليتحقّق! أحسستُ أنني لو كنتُ قد أعطيتُ الآخرَ الميّت اسماً، لهان عليَّ الأمر الآن.

كان لدي اسمٌ لمولودي الجديد.

أمسى التفكير أصعب وأقلَّ دقّة. لم يكن بمقدوري التركيز. توقفتُ عن الحلم. كان نومي حافلاً بألوانٍ متشابكة، لا أشكالَ فيه ولا أصوات. ما هو موجودٌ داخلي استغرقني بالكامل، فاستسلمتُ لمشاعري؛ استحوذَ عليَّ قلقٌ كنتُ أعيهِ جيداً. عندما أنبأتُ القبطان، أشرقَ وجهه فرحاً مرة أخرى.

صورٌ فوتوغرافية لنفسي، مرة واحدة كل شهر حتى موعد الولادة.

---

[1] أو الراعي الألماني، واحدٌ من أذكى الكلاب وأضخمها، ويستعان به في الحروب ونبش الأنقاض، فضلاً عن استخدامه المعروف من رجال الشرطة.

تنامت سلسلةٌ أطّرتُها وعلّقتُها على امتداد الجدار بجانب الدرَج المفضي إلى الطابق الثاني. شهرٌ واحد، شهران، ثلاثة شهور. توقفتُ أمام تاريخ الولادة في التقويم: ١٥ نوفمبر. أعياد كلّ من: القديس ألبير الكبير، أسقف وطبيب، القديسِين الشهداء غورياس وسامو ناس [شمعون] وآبيبوس [حبيب]، القديس ديسيدريوس [ديديه] أسقف كاهور، القديس مالوس [سان مالو]، أسقف، القدّيسَين ليوبولد النمساوي وفَنتان راينا و[١]. لا فتيات بينهم.

ما مِن صُوَرٍ للولادة الفعلية: كلُّ ما أتذكّرهُ هو الألم. ومن ثم خلل عينين تَحكّانني، الوجه الباهر بلون البرقوق مع ذراعين تتململان كأذرع الحشرات وساقين تركلان وترفسان. كان أول شيء فعلته عندما أتوني بها، ابنتي اليسروعة، هو البحث عن قبضتها المضمومة وفتحُها، كمباعدة شفاه زهرة مغلقة: الأصابع، الأصابع الصغيرة، الأصابع الهشّة، والوجه الذي غضّنه النوم. رفعها القبطان إلى وجهه، ثم أودعها مهدَ ذراعيه، ويدُه وسادتُها المقعَّرة.

كانت تلك هي صورتي الفوتوغرافية الأولى لآناي.

كتبتُ لآنا في باريس أنني سمّيتُ المولودة على اسمها، وأرسلتُ إليها الصورة. راقبتُ آناي تنام، ترضعُ صدري، راقبتُها تراقب العالم الذي يتحرّك من حولها كأنها قادرة على متابعة حركة الشمس والنجوم كلّها. في حلكة الصمت، في الثالثة أو الرابعة صباحاً، وأنا أبقي نفسي لصق شفتيها بينما القبطان نائم (أحياناً، كان يضعُ يداً حنونة على

١ أو فندان، أو فيونتان إذا لُفظ بالأيرلندية، راهب أيرلندي أسّس في القرن التاسع ديراً في المدينة السويسرية راينا و، قرب الغابة السوداء، وأمضى حياته في إحدى صوامعه.

فخذي من دون أن يفتح عينيه)، كنتُ أؤلّف لها شروحات طويلة للعالم الذي حولها، لكيلا تتعثّر في طريقها أو تتخبّط أو تضطرب، وأغنّي لها الأغنياتِ الجزائرية التي كنتُ قد سمعتُها ذات يوم على الطرف الآخر من الأرض.

***

بعد يومين من ولادة آنا، عاد بيرون إلى الأرجنتين.

كان قد انقضى على وجوده في البلاد قرابة شهر عندما دعتني عائلة روساليس لشرب الشاي في منزلهم، في واحدة من الضواحي الخضراء الثريّة في المدينة. ولما كانت سيارة الأجرة تنعطف إلى شارعهم، أوقفتها جمهرة مباغتة. طلبتُ من السائق أن يسمح لي بالنزول، إحدى ذراعاي متشبثة بآنا والأخرى ممسكة بهديتي من البتيفور الملفوفة بالورق، وشققتُ طريقي وسط الناس وفتحت بوابة منزل روساليس. كان ألبرتو روساليس موجوداً هناك في استقبالي. قال:

"لقد جاؤوا للفُرجة. لينالوا لمحةً خاطفة من سُموِّه، من الملك ذاته. لقد أخذ المنزل الكائن في هذا الطريق، ولكنه سيجده أقلَّ فخامة بكثير من قصره في مدريد".

قالت لاورا وهي تدلّني صوب الأريكة المخملية الحمراء:

"نحن نسميها "عودة المومياء"، الأمر على هذا المنوال منذ أسابيع. لقد منعتُ الخدم من الاقتراب منهم منعاً باتاً".

"الخدم كلّهم بيرونيّون. لديهم الحقُّ في الذهاب إليه"، قالت فيرونيكا، بنت روساليس ذات الأعوام الثلاثة عشر.

سألتُ هل ظهر على الملأ.

– إنه يظهر بالطبع. مرتين في اليوم، مع كلابه الصغيرة المقزّزة تلك. ففي مثل هذا الوقت، يأخذها في نزهة.

وضعتُ آنا في حضن لاورا وأخرجتُ كاميرتي من حقيبتي.

– لن أغيب أكثر من دقيقة.

خرجتُ راكضة وشققتُ طريقي عبر المتجمهرين. كان المنزل الذي يتفرّجون عليه مسكناً مطلياً بالجِير يحرسه شرطيٌّ وحيد. وأثناء تلفّتي انفتح الباب. ابتهج المتجمهرون. وللحظات لم يحدث شيء. ثم على مهل بانَ الوجهُ البيضوي الذي كنا نعرفه جيداً من الملصقات ذات اللونين الأبيض والأزرق، الوجهُ المليء بالتجاعيد والمحتفظُ بنضارته رغم ذلك، كأنها خطوطٌ قد رُسمت بقلم رصاص على قشرة بيضة، الشعرُ الأسود مملَّساً مسرَّحاً إلى الخلف، الفم مشقوقاً كما لو بسكّين، الشفتان الرومانيتان، أنف النسر. رفع ذراعيه كلتيهما في حركة ذهبتْ مثلاً عنه، ونطق بضع كلمات من الشكر والتحيات، كأنه يرحّب بجمهوره على خشبة مسرحه؛ ثم راح يتمشّى في الشارع وكلابهُ تجرّه، فيما كان أتباعه المخلصون يصدُّون الصحافيين. تبدو صورتي مثل كولاج: فمن جهة، هناك مالك البيت الوحيد المعزول ينزّه حيواناته الأليفة في حدث شخصي يخلو من أي فرادة، ومن جهة أخرى هناك الصحافيون والمناصِرون يبعدهم رجالٌ أكتافُهم عريضة – محاربون قدامى من الحزب، مقاتلون شبّان من المجموعات

المسلَّحة – وقد أقلقوا راحة الجيران الذين غزا الهمج مأوى عزلتهم. تلك حياةُ الساسة.

***

قلّما تطرّق القبطان إلى عمله هنا: كانت كل إشارة إلى عمله تُنْطَقُ بنبرةٍ ضجِرة ومضجِرة، كما لو كان يتطلع إلى ختام وشيك له. كان عمره الآن في منتصف خمسينياته: كان جليّاً أنه فيٍ أوج نضوجه، أو سن الرشد كما يُقال، ومن الصعب تخيُّل أنه سيتقاعد عما قريب – كان الجيش الفرنسي يسرح رجاله من الخدمة في عمر الستين – ليصبح واحداً من الجيل الذي يجلس على مقاعد الحدائق العامة ويُطعِم الحمام أو يلعب الشطرنج. كان يمضي جُلَّ وقته في البيت مع آنا، متحدّثاً إليها كأنها قادرة على استيعاب كلماته، وأعترف أنني شعرتُ بالغيرة، ولاسيّما في المساءات، ومتى ما نامت الطفلة، عاود التحدث إلي.

كان يناقش السياسة في بعض المناسبات. كان يقول:

"أجلس وأستمع إليهم. أستمعُ إلى الجنرالات يتجادلون حول الطريقة المثلى للاستفادة من بيرون ورجوعه. أستمعُ إليهم يحبكون كلمات طويلة معاً مثل طلاسم تعاويذ يعلّقها كلٌّ منهم إلى عنق الآخر. إنهم مقتنعون، في السواد الأعظم، بأنهم أصحاب مهمّات. إنهم مثل قديسين يبحثون عن استشهاد بلا ألم، ويؤمنون بالواجبات الهيّنة ونيل المكافآت على نياتهم الطيبة. إنهم يؤمنون بمقدرتهم على استقدام

بيرون وحاشيته واجتراح الأعاجيب".

ذات مرة، أثناء المشي في جادة كابيلدو تحت أشجار الجاكراندا، متفرّجين على واجهات المحلات التي كانت تحلُّ يوماً بعد يوم مكانَ المنازل الضخمة والوقورة والشامخة، التي كانت تذكّرني بالأبيار، أوقفنا رجلٌ يرتدي بدلة سوداء، وابتسامته تلوح تحت شاربٍ رفيع.

عرّف القبطان أحدنا إلى الآخر: الرجل، وكان نقيباً بدوره، قبّلَ يدي وأثنى بكلامه على روعة الطقس.

- البلادُ عادتْ إلى اللجام، إذا جاز لي القول.

ابتسم.

- فقط تحويل بضعة من فحول الجياد إلى خِصيان، ثم سيسعنا النوم بسلام في الليل. لم يفقدْ بيروننا صلاحيته، أليس كذلك؟

هزّ القبطان رأسه، وكان موشكاً على توديعه والانصراف، حين مدَّ الرجل الآخر يده وأمسك بذراعه.

- ودَعني أقلْ لك شيئاً من القلب: كلُّنا ممتنّون لكم، لفرنسا، لأنكم لم تتخلّوا عنّا في ساعة حاجتنا. كانت إيفيتا[١]، بارك الله روحها

١ إيفيتا، أو إيفا بيرون، أو إيفا دوراتي (١٩١٩-١٩٥٢): الزوجة الأولى لخوان بيرون (١٨٩٥-١٩٧٤) الجنرال ورئيس الجمهورية الأرجنتينية الذي اختلطت أثناء مدد حكمه الفاشية التقليدية بالدعاية الشعبوية وهيمنة الرقابة والفساد ونفوذ العسكر. تولى بيرون رئاسة الأرجنتين ثلاث مرات، انتهت الولاية الأولى بوفاة إيفيتا وتحنيط جثمانها، بعدما شاعت صورتها كشفيعة للفقراء ونصيرة الحفاة والعراة، ونسج البيرونيون الكثير من القصص حول تفانيها في مساعدة العمال والإحسان عبر صندوق الأعمال الخيرية الذي أسسته، لكن الانقلاب العسكري الذي أطاح بالولاية الثانية لزوجها سنة ١٩٥٥ كشف ثروات طائلة مختلسة في القصور الرئاسية، ثم حُظر الحزب البيروني ونفي بيرون إلى فنزويلا، وانتقل بعدها إلى بنما فمدريد أثناء حكم الجنرال فرانكو. عاد بيرون إلى بوينس

بالسكينة، ستشدُّ على يدك.

"التقيتُها ذات مرة"، قال القبطان.

"وماذا بعد؟"، ورفعَ الرجل يده كأنه يروزُ مدى إعجاب القبطان.

"كانت تبدو عارفة تماماً بما تريد"، أجاب القبطان.

أضاف الرجل:

"امرأة رائعة. كانت لها خصيتان. أستميحكِ عذراً، ***señora***، ولكنها كانت تستحقّ أن تكون رجلاً. لا تستطيع إيزابيل مضاهاتها، أليس كذلك؟"، وضحك ليظهر لنا معرفته أن القبطان يتفق معه.

"Allonsenfan!"[1]، غنّى وأكمل سيره.

تساءلنا أحياناً هل سنستقرّ في هذه الأرض الغريبة. تخيّلنا آنا تترعرع في اللغة الإسبانية للبلاد ورنين حروفها الناعم، ونحن نتعلّم في مقبل السنين الحكاياتِ التعليمية لكتبها في الصف الأول فتشوّش معانيَها الوقائعُ البيروقراطية للعيش اليومي، ما سمّته السيدة إتورّالبي

آيرس سنة ١٩٧٢ ليتولى رئاسة البلاد للمرة الثالثة حتى وفاته، فخلفته زوجته الثالثة إيزابيلا دي بيرون التي أطاح بها انقلاب عسكري سنة ١٩٧٦، ودافع العسكر عما رأوا أنه الوطنية الكاثوليكية الأرجنتينية، وسمّوا الانقلاب "عملية إعادة التنظيم الوطني"، وبدأت مرحلة سميت "الحرب القذرة" امتدت حوالى سبع سنوات. تحول الحزب البيروني (أو الحزب فحسب) إلى "حزب العدالة البيروني"، وكان كارلوس منعم أحد أعضائه.

١ Allonsenfan: قد تشير الكلمة بهذا الشكل إلى شخصية ألونزانفان التي مثّلها مارتشيللو ماسترورياني في فيلم للأخوين تافياني يحمل الاسم نفسه سنة ١٩٧٤، ولكنها منطوقة بالفرنسية تطابق العبارة الافتتاحية في النشيد الوطني الفرنسي [لا مارسييز] وتعني: "هلمّوا يا بَنِي الوطن".

"وجوداً مزدوجاً *Doppelgänger*[1]"، حيث يقول المرء شيئاً بصفاقةٍ فارقة، ثم ينفّذ شيئاً آخر غيرَه من دون خجل.

استقررنا على روتين مريح: نزهات صباح الأحد في جادّات المتاجر المقفلة، فيلم مرة واحدة في الأسبوع في صالات الحيّ، وجبات في المطاعم كل يومين تقريباً لأننا كنا نستمتع بحياة آخر الليل الصاخبة في بوينس آيرس، حيث يبدو أن لا وجود البتة لأي شيء يعطّل الأكل والشرب وتدفق الناس إلى الشوارع السيئةِ الإنارة بسبب تقنين الطاقة.

كنا نمارس الحبّ نادراً: أحياناً بعد ظهر الأحد، في غرفة النوم الكبيرة الباردة ذات المصاريع الشبيهة بالمصاريع في منزل مونيك في الجزائر، ولم تكن ممارستنا الحبَّ نابعةً من الشهوة قدر ما كانت من باب الصُّحبة، ولا كانت من باب الصحبة قدر ما كانت بسبب الحزن. في بوينس آيرس، يغدو الإنسان مؤهَّباً للكآبة السوداوية.

***

ذات يوم أحد، استُدعي القبطان في الصباح الباكر. عندما عاد بعد انتصاف النهار – كنتُ أطعِم آنا في المطبخ – قال لي إن بيرون قد مات. تمّ إبلاغ السفير الفرنسي، فجرى استدعاؤهما، هو والقبطان،

١ اصطلحت هذه التسمية الألمانية للدلالة على فكرة "القرين" في الأدب، وتعني حرفياً "المزدوج"، وقد استخدمها كتّاب كثر من عصور الإغريق القدامى وصولاً إلى دستويفسكي وإدغار آلان بو وأوسكار وايلد وألبرتو مانغويل نفسه.

إلى منزل بيرون في بيئنته لوبيث[1].

طوال يومين ظلَّ الجثمانُ مسجًّى داخل مبنى الكونغرس ليُلقي عليه المشيّعون النظرةَ الأخيرة. بخلاف إيفيتا، كان بيرون قد أوصى بألا يحنّطوا جسَده. كان الوجه المطلّ من ثنايا الثياب حيواناً أملطَ ناشفاً، رابضاً، بعينين مغمضتين، في زاوية التابوت. استصدر لي القبطان إذنا خاصاً لأصوّر الميّت، وفي الصورة التي اخترتُها، بدا الرأس مقعَّراً، كأن الوجه قد تداعى وصار تراباً للتو فلم يبقَ منه إلا الفراغ الذي كان يشغله معلّقاً لوهلةٍ في الهواء.

صافحتُ إيزابيل بيرون، المتشحة بالسواد، في نواحها الهستيري خلف خِمارها. كانت هي الآن رئيسة الأرجنتين. "تشجَّعي، تشجّعي"، ما انفكّ رجل قصير القامة يرتدي بدلة مقلَّمة يردّد وراء كتفها. وبدا أن كلَّ "تشجّعي" تدفع بها من جديد إلى وابل من الدموع.

تراجعتُ إلى الخلف وأعددتُ كاميرتي، ولكن الرجل قصير القامة تقدّم نحوي وقال، بنعومة بالغة، موشكاً على التوسُّل:

"رجاء، لا تلتقطي أي صورةٍ أخرى هنا. الجنرال الراحل، حسناً، تغمّده الله بواسع رحمته، خارج نطاق تأثيرنا؛ ولكننا هنا بحاجة إلى المحافظة على كل الطاقة التي نستطيع. هل تفهمينني؟ هذا لطف منك. فيلم التصوير يمتصّ كل القوة الروحية، كما تعلمين. وإيزابيليتا بحاجة إلى كل القوّة التي في حوزتها الآن تحديداً. الملاك المسكين".

---

[1] منطقة ثرية شمال بوينس آيرس.

رافقتني لاورا روساليس إلى الكونغرس، ولكنها ظلّت أمام الباب.

ولما انصرفنا، قالت:

"الرجل الذي تحدَّث إليك هو لوبيث ريغا[1]. الرجل الذي يستشير العرّافين. كبد الحمام[2]، أوراق الشاي، وأشياء من هذا القبيل".

ثم أضافت، مع تنهيدة:

"آمل ألا يعني هذا المزيد من الفوضى. لقد أنهكتنا الفوضى إلى أقصى الحدود! لا أعلم كم سيطول تحمُّلنا لها".

عندما كرّرتْ هذه الكلمات للقبطان على طاولة مقهى، بسط القبطان يدَه على ثنايا غطاء الطاولة الأبيض: "كيُّ التجاعيد هو فحوى حديثك. ما مقدار الأشياء التي ترغبين في التخلّي عنها مقابل السلم والهدوء؟ أي تضحياتٍ ستقدّمين، لاورا؟".

***

تدفعنا الصور الفوتوغرافية إلى الاعتقاد أن الماضي ثابت، مثل

١ خوسيه لوبيث ريغا (١٩١٦- ١٩٨٩): سياسي أرجنتيني. كان وزير التنمية الاجتماعية خلال المرحلة الأخيرة من حكم بيرون، ثم استلم القيادة العامة لقوات الأمن خلال السنتين اللتين استمرّ فيهما حكم إيزابيل دي بيرون بين ١٩٧٤ و١٩٧٦، وهو أحد المسؤولين الكبار المتَّهمين بعمليات التعذيب والقتل. كان لقبه الساحر، أو "إيفولا الأرجنتيني" نسبة إلى الفيلسوف وعالم الروحانيات الإيطالي إيفولا الذي استلهمه الفاشيون الجدد.

٢ إشارة إلى السحر والعرافة، شأنها شأن أوراق الشاي المستخدمة في قراءة الطالع، ولكنها تستعيد ما أورده شكسبير في **هاملت**، حيث الحمامة كناية عن الجبان بينما الكبد مقرّ الغضب والحبّ.

المطبوعات على الورق، المجلَّدة بصفيحة صقيلة. الاعتقاد بأن الوجوه لا تتحوّل، وأن الأمكنة تبقى على حالها. أحبّ (وأنا أعي هنا استخدامَ الزمن المضارع) وجهَ القبطان في هذه الصُّور الفوتوغرافية.

ذات مرة، سألتني لاورا روساليس هل أصدّق القصص عن الناس الذين يُعْتَقَلون ويُخطَفون ويُعذّبون. جاءتها جارةٌ لتخبرها أن ابنتها وأحفادَها قد "اختُطِفوا" على يد رجال بوليس بثياب مدنيّة. كان روساليس قد أخبرها بنفسه أن تلك المرأة كانت تتفرّج على الكثير من أفلام الإثارة، وأن على المرء توخّي الحذر حيال ما يُصدّقه.

أجبتُها بأن الواقع، مثل الصور الفوتوغرافية، يقبَل تفاسير كثيرة.

***

في وقت مبكر من أحد الصباحات، وجدتُ لورينثا تواسي رييبكا في المطبخ. كنتُ قد نزلتُ لأعِدَّ فطور آنا وأجلس معها إلى الطاولة قبل ذهابها إلى مدرسة الحضانة، وللحظةٍ لم أنتبه إلى وجود أي أحد آخر في الحُجرة. كانت لورينثا جالسة في إحدى الزوايا ممسكةً بيدِ بنت عمّها. ما كانت لتخبرني ماذا حدث، واكتفت بالقول:

"يا للعار، *señora*، يا للعار".

ثم قالت:

"أخبرتهم أن السياسة سيئة. نحن عائلة جيّدة. لم تكن لنا أي علاقة أبداً مع السياسيين".

كانت رييبكا تنتحب.

لاحقاً، بعد أن تحدّثتُ إلى القبطان بخصوص ريبيكا، بدا لي اضطرابه استثنائياً. ثم أخبرني، كما استخلص مما تناهى إليه، أن شقيقَ الفتاة أو زوجَ أختها قد عُثِر عليه ميتاً في واحد من مكبّات القمامة. وافق على أن مكوثها معنا خيرٌ لها، على الأقل إلى حين.

الجسد الميت، متحلّلاً وسط النفايات، حرباء تموّهها خرقٌ من الثياب والورق المقوَّى والجلد والشَّعر وقشور الخضراوات، ارتفعَ أمامي، وقد صار للتوّ جزء من الماضي. سألتُ القبطان هل يعتقد أن الحكومة هي المسؤولة.

"الناس مسؤولون عن حُتوفِهم"، قال.

***

كانت ريبيكا تتقاسم غرفة نوم مع لورينثا، وتساعد في أعمال المنزل. أربكني بكاؤها في ذلك الصباح، كأنني قد لمحتُها تتعرّى، إذ كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أراها فيها تبكي. فيما بعد، أمسى حضورها في المنزل مألوفاً.

ذات يوم، حين كنتُ أصنّف صوري الفوتوغرافية، على مائدة غرفة الطعام، توقّفتْ عن الكَنْس وقالت إن بحوزتها بعض الصور أيضاً.

أخرجت من جيبها صورة صغيرة متّسخة، بالأبيض والأسود، لشاب يرتدي زيَّ مجنَّد.

"خورخي، أخي. أثناء خدمته العسكرية"، قالت.

وضعتْ الصورة وسط صُوري التي كانت كبيرة وبالألوان.

– أخبروني بما حدث. وضع رجلٌ كيساً فوق رأس خورخي. ركّعَ خورخي. وضعَ سطلَ ماء أمام خورخي. أقحم رأس خورخي داخل الماء. ترك خورخي يخرج رأسه، ثم أقحمَ رأسَ خورخي مجدَّداً في الماء. فعل الرجلُ ذلك عدة مرات. في المرة الأخيرة، غرق خورخي.

نظرتُ إلى الصورة الفوتوغرافية ثم إليها، وأخذتُها بين ذراعي وأجهشتُ بالبكاء، وأخبرتُها كم أنا متأسّفة. لكنّها دفعتني عنها بلطف، وقالت إن الأمور بخير.

– ليس خطأك، لا تقلقي، *señora*.

ندَّتْ عنها ضحكة صغيرة، وأخبرتني أن خورخي لم يختَرْ تأدية خدمته العسكرية في القوات البحرية لأنه لا يعرف السباحة.

– كان يخشى الغرق، *señora*.

***

صورة من سلسلة الصور التي عرضتُها في صالة ميرتا بكستاين:

بلاثا دي مايو [ساحة أيار]، المقرّ الرئاسي يتلألأ وردياً في البعيد، فوق بحرٍ من الرؤوس المغطاة بمناديل بيضاء، نساء يطالبن الحكومة بأطفالهنّ المفقودين. في مقدمة الصورة، وجهٌ وحيد، مغبَّش، لصافحةٍ لا ملامحَ لها[١].

١ كان الأثينيون يطلقون اسم *Eumenides*، أي الصافحات، على ربات الغضب

صورة أخرى: قناطر رمادية متقشّرة الطلاء، كمثل المباني المقنطرة في الجزائر. الحائط المبَّقع إياه، كمثل جلد بقرة، وجه الجندي المغضَّن الأسمر عينُه، مثل قشرة جوز، جاثماً عند طاولة متّسخة. في صفٍّ مَن يقفُ؟

"في هذه الحرب، لا أحد يرتدي لباساً عسكرياً"، كما كان يحلو للسيدة إتورّالبي أن تقول لي.

صورة أخرى: أطفال في صدريّات مدرسية بيضاء – وجوه هنود حمر، وجوه إسكندنافية – ووراءهم معلّمة ضخمة، نسخة كابوسية عنهم. يقول القبطان إن المدارس في الأرياف تفتقر إلى كل شيء: أقلام الرصاص، الكتب، التدفئة. كانت هذه الصورة ملتَقَطة في أولميدو، على مبعدة خمسين كيلومتراً من بوينس آيرس، بالقرب من الدارة الريفية للكولونيل كاساريس.

صورة أخرى: أشجار منقَّطة بزهور ليلكية اللون ودروب معبَّدة برملٍ أحمر، وأسد برونزي ضخم يكشّر عن نيوبه لفريسةٍ لا تُرى. درجتُ على دفع آنا في عربتها عبر حديقة باليرمو العامة، وسط الشجر المعمّر، الصفصاف والجاكراندا والسَّيْبَة. أحياناً، كانت فيرونيكا، بنت عائلة روساليس، تأتي معي أيام العطلة الدراسية. أحياناً أخرى، كانت تقترح أن تأخذ آنا بمفردها. وفي أحيانٍ أخرى، كانت لورينثا تأتي لتنوب عني بينما نلتقي، أنا والقبطان، لنشرب شيئاً قبل الغداء

أو المنتقمات اتقاء لشرورهنّ. الصافحات هو عنوان الجزء الأخير من ثلاثية أوريست لأسخيلوس، ومحور هذه المسرحية هو الانتقام: ربات الغضب يطاردن أوريست لقتله أمّه، ولكنهن لا يقتلنه في النهاية بعد تدخل الإلهة أثينا، ويسامحنه ويتحول اسمهنّ إلى "الصافحات".

في أحد المقاهي المجاورة لمقبرة ريكوليتا.

كان بمستطاعنا المشي من باليرمو إلى ريكوليتا، ومن هناك، نمرُّ بأشجار مطّاط شاهقة كأبراج النورماندي، لنصل إلى السفارة الفرنسية حيث كنّا بين حين وآخر نحضر حفلاً أو استقبالاً رسمياً.

***

عيد الميلاد سنة ٧٥ أو ٧٦. كانت زوجة السفير الفرنسي قد قرّرت أن تقيم *bal costumé* [حفلة تنكّرية راقصة]. أعلم أن الحرَّ كان مُريعاً، رغم المراوح الكهربائية، ولكن التواريخ تتشوّش هنا؛ ذكرى الأحداث بحد ذاتها واضحة، أما مدارات الشهور والسنين، فقد اختلفتْ.

زوجةُ السفير الفرنسي غرنوقٌ. فستانها مصنوع بالكامل من الريش والتّرتر الأبيض. وجهها منقارٌ أسود طويل. السفير ديكٌ روميّ. طبقات من الريش الرمادي تحيط بصدره وبطنه، ومادةٌ جيلاتينية تتدلّى من ذقنه وأعلى رأسه. الكولونيل كاساريس - أميّز صوته وراء فروةِ الدب التي ارتداها - يقول: "لا تدعونا نقع في خطيئة التكبُّر؛ لسنا معصومين عن الخطأ في محاكماتنا. عندما ننخرط في واجبات عملنا السياسي، فنحن نبقى كاثوليكيين، مثلنا مثل القساوسة الذين يبقون كاثوليكيين عندما يتصرّفون كمدنيين".

الديك الرومي موافق: "حالة حصار. رأي سديد. ثمة شيء واحد مؤكّد: أنت تأتي بشيء من النظام إلى هذا الجنون".

الدبّ: "النظام المسيحي، يا صاحب الفخامة".

الغرنوق: "ونحن جميعاً نثمّنه".

حصانٌ يدخل إلى الغرفة خبباً ويرتطم بنادل، ليتسبب له في انقلاب صينيته الملأى بكؤوس الشمبانيا.

يصهل الحصان ويشبّ على قائمتيه الخلفيتين. يتقافز ببغاءٌ على هشيم الزجاج ويؤدّي رقصاً إيقاعياً على الشظايا. يلتمع الزجاج المطحون.

يستدير الحصان صوبنا، أنا والقبطان، كلٌّ منا يرتدي ثوباً طوارقياً، متخفياً وراء لثام.

"تهانينا!"، يقول رأس الحصان.

"حفلة رائعة"، يقول القبطان.

"أعتقد أن لدينا سبباً للاحتفال. موت، ميلاد، الألفية الجديدة، ماذا أيضاً؟"، ويقهقه رأس الحصان ومؤخرته بصوت مجلجل.

يقف أسدٌ ونمرٌ تحت شجرة عيد ميلاد علوّها عشرون قدماً. عصافير بيضاء صغيرة وكراتُ كريستال تزيّن الغصون وعلى ذروتها ملاك نابوليتاني ينفخ في بوقه. تحت فروع شجرة التنّوب، نصبت زوجة السفير الفرنسي مشهد ميلاد المسيح، ومهدَهُ المنحوتَ خصيصاً (على حدّ قولها) في باهيا[١] مطلع القرن التاسع عشر. الأسد ممسكٌ بيسوع الطفل، ويقول إن عيد الميلاد قد بدا له على الدوام احتفالاً سياسياً.

النمر: "بالفعل، بالفعل".

---

١ يقع إقليم باهيا على المحيط الأطلسي، شمال شرقي البرازيل.

الأسد ممسكاً بصورة المسيح: "أتساءل هل استنسخ بيرون عنه حركة الذراعين المرفوعتين. *Pax vobiscum!*[1]".

النمر: "أخبر الأسقف ويتِ طلبةَ اللاهوت أنهم كانوا يغالون في قراءة عقيدة المسيح حرفياً. تكلم المسيح على الفقراء، ولكنه كان يقصد فقراء الروح. لم يكن يقصد الفقراء الفقراء. في الأرجنتين فقراء الروح هم الأغنياء".

دافني[2] المتحوّلة إلى شجرة غار واقفةٌ في زاوية بعيدة. أتقدّم إليها بحبَّتي برقوق ملفوفتين بشرائح لحم الخنزير مغروستين في نكاشَتي أسنان، في كل يدٍ حبّة.

– عُثر على الصناعي الإيطالي الذي اختطفوه، ويداه مقيَّدتان، مع طلقة في الرأسِ، في حي عشوائيات. كان جالساً على صندوق خشبي والغرفة كلّها مغطاة بالجرائد. حتى النوافذ كانت محجوبة بجرائد *Crónica*[3] و*La Razón*[4]. كان هناك تلفاز في الغرفة، ولا شيء

١ تترجَم هذه العبارة اللاتينية إلى "السلام عليكم" أو "السلام معكم".

٢ دافني: تولّه الإله أبولو بالحورية دافني التي أبغضته وجَفَته، ولما صمّم أبولو على اختطافها وتزوُّجها رغم برودتها تجاهه، لاذت بالفرار داخل الأحراش والغابات، وكلما أمعنت في الفرار والابتعاد، ازدادت جمالاً في عينيّ الإله، حتى استجابت الآلهة الأخرى لتضرعها فأنقذوها وحوّلوها إلى شجرة غار. ظلّ أبولو على حبه لدافني، وتوَّج الشعراء بأوراق الغار.

٣ *Crónica*: كانت هذه الصحيفة واحدة من أكثر الصحف رواجاً في الأرجنتين، وقد أقفلها العسكر سنة ١٩٧٥.

٤ *La Razón*: كانت جريدة واسعة الانتشار في الأرجنتين، وهي حالياً جريدة الصباح التي توزَّع في المواصلات العامة. تأسست سنة ١٩٠٥، ثم هرب صاحبها خاكوبو تيمرمان خارج البلاد بعد اختطافه وتعذيبه أثناء الحكم العسكري بين عامي ١٩٧٧ و١٩٧٩.

آخر سواه. حصَّلَ الأنذالُ نقودَهم ثم قتلوه. ولا أحد منهم يتجاوز الخامسة والعشرين، على ما يقال. عيد ميلاد مجيد.

– ولكن ألقوا القبض عليهم!

– آه نعم، أمسكوا بهم. لا يستحقّون المحاكمة، ولكننا نعيش في بلد ديموقراطي، لسوء الحظ.

كلب أجرب: "وووف، وووف. سأرفع ساقي وأبول على شجرتك".

دافني (مطلقة صرخة): "مارتين، كفى! توقّفْ!".

"أنا روحُ أدبنا الوطني"، يقول صوتٌ بجانبي.

ألتفتُ فأرى كولاجاً من الكتب والعرائس والصور الفوتوغرافية وقطعٍ وأجزاء أخرى. أتميّزُ صوتَ السيدة إتورّالبي.

– هؤلاء شخوصٌ من روايتي الأخيرة؛ وهذا الغيتار هو مارتين فييرو[1]. وهذه الصفحة من إحدى الموسوعات تمثّل بورخيس.

تذكارات: يعطوننا هدايا صغيرة جميلة. أتلقى دبوسَ زينة من لؤلؤ؛ ويتلقى القبطان ثقّالة ورق زجاجية يقول السفير إنها كانت تعود إلى شاتوبريان في يوم من الأيام (تثير حنقي فكرة أن الأشياء التي يعتمد وجودها على وجودنا أبقى منّا وتظلّ قائمة، لا مبالية بنا، منيعة على الموت. في إحدى المرات، كنتُ سأرمي بالدبوس في لُجج شمال الأطلسي، لولا علمي بأن إرجاع اللآلئ إلى البحر سوف

١ بطل القصيدة الملحمية "الغاوتشو مارتين فييرو" لخوسيه هرناندث، تحوّل إلى أسطورة وطنيّة لاستقلال الأرجنتين. كُتب الكثير في الإشادة بهذه القصيدة المكتوبة في القرن التاسع عشر، وهي في جميع الأحوال أحد أشهر الأعمال في الأدب الأرجنتيني.

يزيدُ فرصتها في الخلود).

يلقي الديك الرومي خطاباً: "سيداتي سادتي، أصدقائي الأعزاء. أودُّ أن أشكركم جميعاً على وجودكم هنا، أودّ أن أشكركم جميعاً على السماح لي بالوجود هنا، غريباً في أرض غريبة. رحّبتُم بي، مثلما رحّبتُم بفرنسا على الدوام، وفرنسا لم تنسَ أن أقاليم Río de la Plata [نهر لابلاتا][1] قد اقتدتْ بثورتنا منذ أقل من مئتي سنة[2]. على نحو ما، فرنسا هي أمُّ الجمهوريات كلِّها، وقد أخذتُ على نفسي عهداً بأن أقدّم لكم مساعدة بلادي في المحافظة على بلادكم. *Joyeux Noël!* [عيد ميلاد سعيد!]".

تدخل بطة تتمايل في مشيتها وتعلن العشاء.

***

كانت السيدة إتورّالبي هي التي ألحّت على إقامة معرض لأعمالي. كانت إحدى صديقاتها، ميرتا بيكستاين، قد اشترت صالة صغيرة للفنون في شارع فلوريدا، ولم يكن لديها مانعٌ دون عرض التصوير الفوتوغرافي إلى جانب لوحات الرسم. طلبتُ من القبطان مساعدتي في اختيار الصور التي سأعلّقها هناك.

١ أو ريفر بلايت بالتسمية الإنكليزية الشائعة، أعرض الأنهار في العالم، يجري بين الأرجنتين والأوروغواي.

٢ إشارة إلى ثورة أيار/ مايو ١٨١٠، وما تلاها من حرب استقلال الأرجنتين عن الإمبراطورية الإسبانية. أدت تلك الحرب إلى توحّد أقاليم الريو وبلاتا القديمة لتشكل جمهورية الأرجنتين الحالية التي يصادف عيدها الوطني ٢٥ أيار/ مايو.

بدا متحمّساً مثل طفل. بسَطْنا محتوياتِ صناديقي على أرض غرفة المعيشة، وبعد أن انتهى من تنويم آنا، نظرنا إلى الصّور واحدةً بعد أخرى، طوال ليلة كاملة. قال إنه ما كان ليتخيّل مدى ما أنجزتُ، وكم اجتهدتُ في العمل، وكم كانت صوري قويةً وصافية. قال إنني قد اهتديتُ إلى أسلوب، صوتٍ، عَيْن.

أخجلتني فجأة الأشياءُ التي لم أبُحْ له بها، كمثل وحش البحر نصف المنهوش. هناك، وسط الصور المنثورة على الأرض، وددتُ لو توقّفتُ لأخبره. لم أفعلْ.

افتُتح المعرض من دون كثير جلبة. حضرته زوجةُ السفير الفرنسي (بصفة غير رسمية طبعاً)، والسيدةُ إتورّالبي التي كانت قد كتبتْ عنه مقالة فياضة بالعواطف في *La Nación* اجتذبت بدورها مجموعة من *femmes savantes*[1] [النساء العالمات].

شابّ ملتح، كاميرته تتدلّى من عنقه بطريقة تستلفت الأنظار، سألني هل أنا "الفنّانة"، وعندما قلتُ نعم، امتدحني على عملي.

– لم نكد نلاحظ أنها مأخوذة هنا، في الأرجنتين، في حقبتنا هذه. يا لمقدرة الأوروبيين! يا للتَّوْريَة!

سألْتُه ماذا يقصد.

– التورية؟ ثمة صورة فوتوغرافية لمصوّر ألماني، مأخوذة في بوخنفالد أو في مكان مماثل له. ثمة كومة ضخمة من العظام، العظام آدمية، على الأرجح. وعند طرف تلك الكومة بالضبط ثمة كلبٌ

١ بعد مسرحية موليير الكوميدية التي تحمل العنوان نفسه **النساء العالمات**، بات معنى هذا التعبير هو "المتعالمات" أو "المتحذلقات".

يسحب عظمةً من العِظام. كما تعلمين، لا يعرف الكلب أنها عظام آدمية. كلٌّ ما يراه الكَلب هو الطعام. وهو على حق، بالطبع. الجثّةُ طعامٌ أيضاً.

– عملي هو البورتريه أساساً. ونعم، بالفعل، هذا هو ما أختار أن أراه.

– آه! الاختيار! كم هم جميل أن يكون المرء قادراً على الاختيار! ذات مرة، أنجزتُ سلسلة من البورتريهات. الفارق أننا لا نستطيع أن نرى الأشخاص. لا نرى شيئاً إلا الحائط الخاوي وراءهم. *Desaparecidos* [المختفون قسرياً]، هل ترين معي[1]؟ لا توريةَ هنا. أنا آسف، لم أتقصّد الوقاحة.

سألتُه هل يعمل هنا، في بوينس آيرس. قال بلى، راجياً أن يسنح لي الذهاب ذات يوم لأرى عمله.

قلتُ إنني سأفعل.

تلك الليلة، أثناء معاونتي ميرتا على إغلاق الصالة، سألتُ القبطان

---

١ خلال السنوات السبع لحكم المجلس العسكري في الأرجنتين، الممتدة من عام ١٩٧٦ حتى ١٩٨٤، تعرّض عشرات الآلاف من الأرجنتينيين للاعتقال والاختطاف، وبينهم مئات الأطفال، ولا يزال مصير كثيرين منهم مجهولاً حتى الآن. في تلك الفترة السوداء، تمت تصفية المعارضين السياسيين، طلبة جامعات ومثقفين وناشطين ميدانيين، وأجبِر الكثير منهم عِلى الهرب خارج البلاد. خلال سنوات دكتاتورية بيديلا (١٩٧٦ – ١٩٨١)، شكلت أمهات المفقودين جمعية "أمهات ساحة مايو"، الناشطة حتى يومنا، وقد اجتمعن في ساحة مايو مقابل القصر الوردي، مقرّ الرئاسة الأرجنتينية، وهنّ يضعن على رؤوسهن مناديل قطنية بيضاء باتت رمزاً لهنّ، ويدُرن اثنتين اثنتين حول النصب الهرمي في الساحة، لأن الأحكام العرفية آنذاك كانت تمنع تجمّع أكثر من ثلاثة أشخاص في الأماكن العامة.

هل صُوري تخفي شيئاً ما؛ وهل يعتقد أنني منافِقة أو عمياء، أو كلتاهما.

- لأنك لا تُطلقين أحكاماً على أحد؟

- أظنّ أنني أقصد ذلك، نعم.

- أعتقد أنك تخلقين خيارات. تخلقين خياراتٍ بالعمل على الكاميرا. تخلقين خيارات بعثورك على الإطار الصحيح.

- ماذا لو أتيتُ بالخيارات غير الصائبة؟ واخترتُ الأسبابَ غير الصحيحة؟ وادّعيتُ شيئاً لا وجودَ له على الأرض؟

أجابني:

- يا عزيزتي، لا تهمّنا الأسباب. تهمّنا النتائج، ما نراه حين تنتهين من عملك. لن يعرف أحدٌ أبداً لماذا اختار دُورر أن يرسم ذلك الوجه الذي أبهركِ بتلك القوة.

ثم أضاف، مشيراً إلى ثلاث صُورٍ فوتوغرافية، الواحدة تلو الأخرى:

- لن يعرف أحدٌ لماذا اخترتِ هذه الصُّورة، أو هذه، أو تلك.

***

ثمة كتبٌ تقترن لدي بمأكولاتٍ معينة، أو أمكنة معيّنة، وعلى الأخصّ بروائح معينة: روايات بلزاك تعبق بزعتر مطبخنا، دانتي يفوح برائحة خشب محروق، **تارتاران** بابا ورائحة تبغه، جين ريس[1] ومربى الفريز

١ جين ريس (١٨٩٠- ١٩٧٩): روائية بريطانية اشتهرت روايتها **بحر سارغاسّو**

على الباغيت المحمَّص تحت شمس باريس. بعض لحظات الحب على هذه الشاكلة: تلتصق كالطحالب بشجرةٍ معيّنة. ليلة معرضي مارسنا الحب بهدوء (كانت قد انقضت أسابيع على ممارستنا الأخيرة، وكانت آنا ترقد نائمة على سريرها في الغرفة المجاورة)، مارسنا الحب وقتاً طويلاً، مبتهجَين، كاتمَين ضحكاً ينبع من الغبطة الصافية، وكان المنزل مفعماً برائحة مواد التصوير الكيماوية التي قال القبطان إنها تذكّره بالمختبرات العسكرية أثناء الأيام الأولى في مستهلّ مسيرته المهنية. وقلتُ في نفسي إنني كنتُ أمارس الحبّ مع كلماته أيضاً، ومع الفكر وراء كلماته، ومع تجارب السنوات والأمكنة القابعة وراء ذلك الفكر، سنواتِ الحجر والغبار والعشب الأخضر المجزوز، والفصول، وكلِّ الكتُب التي كان قد قرأها، الموسيقا التي كان قد استمعَ إليها، اللوحات التي كان قد رآها، وتذكرتُ مراراً وتكراراً أنه قد تبنّى خياراتٍ أيضاً، فتبنّى خياراً واحداً، رازهُ وقاسَه وفكّر فيه ملياً، وفي النهاية اختارني أنا.

***

كان القبطان يتطلّع إلى تقاعده. تارةً، كان يفكر في العودة إلى النورماندي أرض طفولته؛ وتارةً أخرى كان يتساءل إن لم يكن خيراً له اختيارُ مكانٍ آخر، مكانٍ "داسَه التاريخ أقلّ" (على حد تعبيره)،

الواسع (١٩٦٦). وُلدت في الدومينيكان بجزر الهند الغربية، وامتزجت في تنشئتها ودمائها الثقافات الويلزية والاسكتلندية والإسبانية والفرنسية. ترجمت لها إلى العربية رواية **صباح الخير يا منتصف الليل**.

وكان يصف ساحلَ غاسبهِ في كيبيك، الممتدَّ إلى خليج سان لوران، وكان قد قرأ عنه بعد الحرب منذ سنين كثيرة خلت. قال: "أرض النوارس. كفى بيروقراطية. كفى حياتي انصياعاً للقواعد".

كانت السفارة قد أرسلته بضع مرات إلى مدن أرجنتينية أخرى لتسيير شؤون تتعلق بفرنسا: تأسيس شركات فرنسية، البحث اللازم تمهيداً للاستثمارات، الأمور الدبلوماسية المعهودة. ذات مرة أرسلوه إلى روساريو، حيث كانت قد اكتُشفت أكوام من الوثائق المهمَلة في القنصلية الفرنسية. كان القنصل الفخري - وهو صاحب معملٍ للمربّى كان قد عُيِّن في هذا المنصب محاباة للحاكم - قد أهمل استمارات المتقدّمين للحصول على تأشيرات سفر وتصاريح استيراد قرابة سنة كاملة، وكان السفير الفرنسي - على حدّ قوله - قد تلقّى الكثير من الشكاوى. كان يتذمّر قائلاً: "أنا صبيُّ الطلبيّات لدى فرنسا".

فضلاً على كل ذلك كان القبطان يمقت أن يترك آنا. كان قد اعتاد لعبهما الصباحي، ومراقبتها بحيادِ القطّ وهي تتعلّم، ضاحكاً قدّام ألاعيبها. كان يبدو دائم الاندهاش حيال التحولات التي تطرأ عليها، ولكنه كان يدرك أنها كانت قد بدأت التحوّل منذ المرة الأولى التي حملَها، بعد دقائق من ولادتها، وقد صارت، بفضلِ سحرٍ خفيّ، بضةً بعمر السنتين، فضولية بعمر الأربع سنوات، سريعة رشيقة في الخامسة، وراحت في السادسة من عمرها تبتعد عنه أكثر فأكثر متوغّلة داخل غابات عالمها الخاص.

قال لي وهو يحملها في عصر أحد الأيام بعد أن وقعتْ وجرحت مرفَقها:

”مَن سيحبُّها عندما تكبر؟ مَن سيأخذها ويغيّر كنيَتها وينام معها؟ وهي، مَن ستحبُّ؟“.

في صباح يوم شتويّ، عند رجوعي بعد اصطحابي آنا إلى الروضة عند ناصية الشارع، أتت لورينثا لتخبرني أن لاورا روساليس كانت هنا. كانت تبدو في غاية الاضطراب. لم تكن تستطيع العثور على فيرونيكا. في المساء الفائت، كانت فيرونيكا قد ذهبت إلى إحدى الحفلات الترفيهية في الجامعة، جرياً على عادتها - كانت في السنة الأولى من دراسة الحقوق - ولم تعُدْ. سهرت لاورا في انتظارها (لم يكن بمقدورها أن تنام أبداً قبل سماع الصفق الناعم للباب الأمامي والخطوات الخفيفة لفيرونيكا على الأدراج، وانطفاء مصباح الحمّام، وأخيراً باب غرفة نوم فيرونيكا وهو يُغلَق في العتمة) وحوالى السادسة صباحاً كانت قد طلبت من زوجها الذهاب والاستفسار في منزل إحدى صديقات فيرونيكا؛ كانت الهواتف، على جاري عهدها، خارج الخدمة. كما كانت قد حاولت بنفسها البحث في عددٍ من الأماكن - شقة الأستاذ، الجامعة، بيت أختها في كاباليتو - من دون نتيجة. كان زوجها قد جاب المستشفيات. بدا أن هناك الكثير الكثير من الشبّان الذين يتورّطون في المشكلات هذه الأيام؛ ولكن فيرونيكا كانت مختلفة. كانت لاورا ذاهبة إلى إدارة البوليس. فهل سأتكرّم بمرافقتها؟

***

لإدارة البوليس المركزية في بوينس آيرس مظهر *palazzo* [قصرٍ إيطالي] يُرى عبر عدسات تشوّه الملامح. إنه رابضٌ في مركز القسم الأقدم من المدينة، عالياً وضخماً في جوانبه وغائراً في قمّته، متداعياً ومعفَّراً بالزمن. طوابير طويلة من الناس المنتظرين للأوراق (فإصدار الوثائق يتمّ هنا) تلتوي حوله كالثعابين، وشرطة الحراسة في أكشاك متهالكة يحرسون الأبواب ببنادق آلية.

أرسلنا الحارسُ الأول إلى كوّةٍ حيث بعد شيء من التأخير طلب منا رجل عجوز صغير الحجم ذو نظارات دائرية أن يرى هوياتنا الشخصية. ختم قصاصة ورق، ناولنا إياها بيدٍ ترتجف، وأرسلنا إلى الطابق العلوي عبر رحابة الأدراج التي كانت تفوح برائحة البول والمعقّمات. في الطابق الثاني، كان منْبَسط الدرَج ينقسم إلى ممرات لا حصر لها، وكلُّ ممر مدروز بالأبواب، وأمام كل باب جلست جموع صغيرة من الناس وهم ينتظرون. كانت نساء بمآزر بيضاء يدخلن ويخرجن من هذه الأبواب حاملاتٍ أضابير سميكة بلون القشدة. استوقفنا إحداهنّ، وأريناها القصاصة. أشارت إلى باب في نهاية الممر.

انتظرنا واقفتَين وسط المجموعة الصغيرة خارجاً. امرأةٌ سمراء ذات حاجبين كبيرين نقرت الورقة نقراً خفيفاً وقالت، بنبرة واثقة:

"ابنُكم، ابنتكم".

"ابنتي"، قالت لاورا.

"وأنا أيضاً"، قالتِ المرأة وهزّت رأسها.

بعد انقضاء قرابة الساعة، لم يكن قد دخل أحدٌ من المجموعة

بعدُ، وبدتْ لاورا كالمريضة. تقدمتُ وطرقتُ الباب.

فتحَتْهُ امرأة طويلة.

- ما الأمر؟

- نحن ننتظر هنا منذ ساعة. لقد أتينا...

لم تدعني أكمل.

- انتظري دورَك.

كانت على وشك أن تغلق الباب، ولكنني أمسكته بيدي وأبقيتُه مفتوحاً.

- لا نعرف حتى الشخص الذي يُفترض بنا أن نراه. ليس ذلك مذكوراً في الورقة.

- نحن لا نعطي الأسماء. هل ستتنحّين، يا سيدة؟

"أرجوك، الزمي الهدوء"، همست السيدة السمراء وراءنا.

أبقيتُ يدي على الباب.

- فقط أريد أن أعرف الشخص الذي سنقابله. هذه المرأة تبحث عن ابنتها.

- الجميع يبحثون عن ابنة، ابنٍ، زوج...

دفعتُ الباب.

أفلتَته، وصاحتْ على أحدٍ ما في الداخل:

"سانشيس، هؤلاء الأشخاص يدخلون عنوة!".

ظهر وراءها شرطيٌّ شابّ، وفي يده بندقية آلية.

"فلنذهب"، أمرَنا.

"ماذا يحدث؟"، سأل صوتٌ من داخل المكتب.

– لا شيء، سيادة المفتّش. اثنتان من مثيري الشغب.

انفتح الباب أكثر. بدت على المفتّش علامات الضيق في الحرّ. مسّد شواربَه بظاهر يده، وسأل:

"مَن هاتان المرأتان؟".

قالت المرأة، مشيرةً إليّ:

– هذه، ذات اللكنة المضحكة، كانت تحاول الدخول.

"الأمر متعلق بابنتي، إنها مفقودة"، توسّلتْ لاورا.

أجاب المفتّش:

– كل هؤلاء الناس يبحثون عن شخص مفقود. هذا مركز شرطة، وليس زريبة سائبة. عليكُم أن تلجموا أقرباءكم.

ثم قال ملتفتاً إلي:

"أنت فرنسية؟ بوسعي استنتاج ذلك من لفظك حرف الراء".

– مدام بيرِنس!

من بعيد، نادى شخص باسمي. الكولونيل كاساريس.

"ماذا تفعلين هنا؟"، قال.

فجأة، تغيّر كلُّ شيء. تعارفنا، اعتذر المفتّش، وتصافحنا جميعاً، وأدخلَنا إلى الغرفة رغماً عن الغضب الشديد للمرأة الطويلة.

استمع المفتش لرواية لاورا، نقّب وسط ركام من الأوراق، ثم استلّ قائمة طويلة منضّدة على الآلة الكاتبة. قال:

"هذه هي قائمة الذين تم التبليغ عن اختفائهم البارحة. البارحة، هل تفهمون؟ يوم واحد، فقط لا غير. ثم سيعودون جميعاً، وسيتّضح أنهم قد أسرفوا في الشرب، أو سهروا مع أصدقائهم، أو قد قرّروا

البحث عن نصيبهم لأن مامي ودادي في منتهى التزمُّت. لا أظنّكم متزمّتين للغاية، أليس كذلك؟".

– فيرونيكا ليست على هذه الشاكلة. كانت ستتّصل، وتترك رسالة.

– لا أحدَ منهم على هذه الشاكلة. هذا ما يقوله الجميع. كلُّ ابنٍ قديس، وكلُّ ابنة قديسة. سيدة روساليس، أولئك هم الذين يهيمنُ عليهم المحرّضون، فيغوونهم... بالسياسة والمخدّرات... اسمعيني، لا أسعى إلى تخويفك، ولكن كان حرياً بكم أن تراقبوا ابنتكم عن كثب. سوف تعود، كونوا على ثقة من ذلك، وذيلها بين رجليها. هل تتذكّرين الابن الضالّ[1]؟

وبتلك العبارة، قادنا المفتش إلى الباب.

رافقنا الكولونيل كاساريس إلى الطابق السفلي، وقال:

"لا تقلقي، ستكون على ما يُرام. وسنتخذ الإجراءات اللازمة للعثور عليها. ولكنك سمعتِ ما قاله المفتّش. رجوعها محتَّم خجلةً من نفسها وهي تشعر بحماقتها. عندئذ، لا تقسوا عليها كثيراً. هذا هو الشباب!".

***

١ ترد قصة الابن المبذّر الضالّ في الإصحاح ١٥ من إنجيل لوقا مثالاً عن توبةِ الذين يهجرون بيت أبيهم وبيت ربّهم يسوع ويُعاشِرون الخطاة. إنها قصة ابن بذّر كل المال الذي وهبه إياه أبوه حتى صار راعي خنازير، وحين يتوب ويرجع إلى أهله يقول الأب: "لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجد".

توقفنا في مقهى على مبعدة بضع بنايات. كان القلق قد استنزف لاورا. اقترحتُ التحدث إلى القبطان تلك الليلة لعله يعرف أحداً نستطيع أن نستفسر منه. كنا جالستين أمام فنجانَي القهوة الصغيرين المصنوعين من الخزف السميك الأبيض، وخطر لي أن بمقدوري وضع تقويم لمدد حياتي بهذه الدوائر البيضاء المبقّعة، نقاطاً تسجّل حضوري في كل مدينة من المدن التي عشتُ فيها. أشعلت لاورا سيجارة وسحبت نفساً عميقاً. ثم دوّرتْ أصابعُها رأسَ السيجارة على حافة المنفضة رواحاً ومجيئاً. وضعتُ يدي على معصمها.

- لاورا...

- المعذرة...

كانت المرأة السمراء نفسها، الجالسة خارجاً أمام باب المفتّش، تقفُ إلى جوارنا. لاح وجهها، في ضوء نافذة المقهى، مبقّعاً بالكَلَف على نحوٍ غريب. أضفى عليها حاجباها العريضان مسحة كوميدية.

- هل لي بالجلوس؟

وجرّتْ كرسياً من دون أن تنتظر جواباً.

- سمعتُكما هناك. إنهم لا يفعلون أي شيء أبداً. يقيّدونك في السجلّ، ثم... مَن يدري؟ ربما يرمون الملفّات إلى القمامة.

أتى النادل فطلبتْ قهوة.

- اسمي مارتا. مارتا كورّاليس. أنا أرملة. اختفتْ ابنتي منذ ستة شهور. مع زوجها. وأطفالهما. هل تريدون أن تروا صورتَهم؟

أخرجت من حقيبة يدها، السوداء والمجعّدة كحبة برقوق عملاقة، صورة صغيرة لعائلتها. كان الزوجان الشابان واقفين وراء

أطفالهما الثلاثة. كان أصغرهم – ولم أستطع أن أعرف هل هو ولدٌ أم بنت – يرتدي قميص سوبرمان. تَلَتِ المرأة أسماءَهم علينا، مشيرةً إلى كل حفيد من أحفادها بسبّابتها الشبيهة بإصبع ساحرة.

سألتُها ماذا حدث لهم.

روى لها الجيران أن رجالاً بملابس مدنية قد اقتحموا بيت ابنتها ذات صباح، قبل الفجر. في الواقع، ما رأى أحدٌ شيئاً، ولكنهم سمعوا أبواباً تصطفق، وسيارةً تنطلق وعجلاتٍ تنهبُ الإسفلت. بدا البيت منهوباً. كتب البوليس في تقريره أن المنزل قد تعرّض لتخريب متعمَّد "على يد مجهولين".

– وماذا بعد؟

– لم يحدث شيء. لم يعطني أحدٌ أي أجوبة. وفي نهاية مطافي، التقيتُ امرأة أخرى كانت تبحث عن ولديها أيضاً. صبيّ وبنت. أخذتني لألتقي نساء أخريات كنّ يحاولن العثور على أولادهنّ أيضاً. هناك الكثير منهنّ، الكثير الكثير.

رفعت لاورا عينيها.

– فيرونيكا ليست مثلهم. لم تهتمّ بالسياسة يوماً. إنها طفلة. فيرونيكا طفلة.

وقفت السيدة كورّاليس مرة أخرى. لم تكن قد مسّت قهوتَها.

– لماذا لا تأتين وتلتقين النساء؟ فقد نستطيع أن نقدم إليك الأدلّة، ونقترح حلولاً.

وضعتُ بعض النقود على الطاولة، تحت الطبق المعدني الذي يحتوي الفاتورة.

"أعتقد أن عليك الالتقاء بهنّ. يبدو أنه ما من خيارٍ آخر أمامك"، قلتُ للاورا.

***

كانت النساء مجتمعات في شقة تكاد تخلو من الأثاث في شارع بوليفار، في حي يزخر بمقاهٍ قديمة وبمنازل كبيرة تؤجّر غرفها. كانت الغرفة التي جلسنا فيها، على مقاعد خشبية، تحتوي منضدة معدنية وخزانة أدراج للملفّات، وكانت هناك على الجدران، مؤطّرةً بقوالب من الجصّ المزخرف، خرائط وخريطةٌ للمدينة وصُورٌ للمفقودين.

قدّمتنا السيدة كورّاليس. كانت هناك في الغرفة عشر نساء أو اثنتا عشرة امرأة، ومعظمهن بُعمرنا؛ وبضعة منهنّ أصغرُ سنّاً. بدت واحدةٌ أو اثنتان منهنّ أكبر من عمرها الحقيقي على الأغلب: كانتا جالستين عند المنضدة، تمحّصان الأوراق. تكلّمن، واحدةً بعد الأخرى.

– اختفت ابنتي أثناء قضائنا العطلات في مصيف مار دِل بلاتا. كانت قد ذهبت لتشاهد أفلاماً مع أصدقائها. قالوا إن رجلين أوقفا سيارة بغتة وجرّاها وهي تصيح. لم أسمع أي خبر عنها منذ ذلك الحين.

– كانت ابنتي حاملاً عندما اختفت. جاؤوا إلى بيتنا، قالوا إنهم من البوليس، أخذوها. فيما بعد، قالوا لنا، في مركز البوليس، إنهم لم يرسلوا أحداً قطّ، وإننا نشوّه السمعة الطيبة لقوى البوليس.

– كان زوجي في اتحاد عمال التعدين. اعتُقل خلال أحد

اجتماعات الاتحاد، ولكن البوليس أنكر وجود أي محضر له. أخبرني عضوٌ آخر في الاتحاد أنه قد سمع، من شخص آخر، بترحيل زوجي إلى آثول[1].

- اختفى ابني وزوجي ذات صباح وهما ذاهبان إلى العمل. إنهما طبيبان في مستشفى راموس ميخيا. منذ فترة، عالجا رجلاً أحضره البوليس مصاباً بحروق بليغة. أخبرهما البوليس أن الرجل قد وقع في سطلٍ من الأسيد. أصرّ زوجي على كتابة تقريره الطبيّ. حذّروه من مغبّةٍ ذلك. مات الرجل مساء ذلك اليوم نفسه.

- حفيداي، صبي وبنت، أخِذا مع أبوَيهما إلى السجن. قال البوليس للجيران إنهم سيُرجِعون الولدين. لقد تمكنتُ من التحدث إلى ابنتي في معتَقل النساء، ولكن لم يكن لديها أي أخبار عن ولديها، ولا عن زوجها. أخبرها أحدُ الحرّاس بارتداء ملابس الحِداد.

- زوجي مدرّس في المدرسة الوطنية العُليا في بوينس آيرس. عصر أحد الأيام، بعد انتهاء الدوام المدرسي، أوقفه ثلاثة رجال أو أربعة. أخبرني الطلّاب أن الرجال قد أدخلوا زوجي عنوة إلى سيارة انطلقت بهم بعيداً. كانوا قد رموا كتبه في عرض الشارع؛ لملمها الطلاب وأحضروها إليّ. لم أسمع منه شيئاً منذ ذلك الحين، قرابة عامٍ مضى.

فجأة وقفت إحدى النساء الشابّات، وصاحت:

"ما عدتُ قادرة على الاحتمال أكثر! أخبروها بما حدث لي! أخبِروها! أخبِروها عن توتي، عن ألفريدو، عن كارمِن، عن السيدة

[1] بلدة تبعد ٣٠٠ كلم عن بوينس آيرس.

إبستاين، عن أندريس، عن سونيا، عن كارلوس، عن لا نيغرا[١]! قولوا كيف رأيناهم، وسمعنا عنهم، وقرأنا رسائلهم، وقرأنا ما قدرآه الآخرون! أخبروها عن الاغتصابات، الأظفار المقْتَلَعة، العظام المكسَّرة، الضَّرب، الصَّعْق، الخَنْق...»، حبست أنفاسها. لم يتحرّك أحد.

– اقتيدت ابنتي باولا. أجبروها على التفرج وهم يعذّبون زوجَها نستور. أردّد اسميهما كلما استطعتُ – باولا، نستور – لأننا نعلم أنهم لا يقولانهما أبداً. يقولون لك إن أولادكِ لا أسماء لهم. يقولون لك إن أولادكِ لا وجودَ لهم، وإنهم قد تلاشوا. إنهم يريدون إجبارك على إجهاض أبنائك وبناتك، وتصديقِ أنهم لم يولَدوا أحياء أبداً، والتفكير بهم كأنهم بقعُ دم على سجّادة، كأنهم حوادث طارئة مأسوف عليها[٢]. كانت الكلمة التي يستخدمونها ليشتموهم هي "*aborto*" [إسقاط]. ينعتون أولادك بالساقطين، وكأن أولادك لم يُولَدوا قط. نستور، باولا. لا أستطيع. ما عدتُ قادرة على الاحتمال أكثر.

تقدّمت إحدى المرأتين الأكبر سناً نحونا وأشارت إلى أدراج الملفّات.

---

١ La Negra: أي "المرأة السوداء"، لقبٌ عُرفت به المغنية الأرجنتينية مرثيدس سوسا التي تلقّت تهديدات عدة بالقتل أواخر السبعينيات، واعتُقلت أثناء غنائها على خشبة لابلاتا في بوينس آيرس، ثم أفرج عنها بوساطة دوليةَ وسافرت لتقيم في باريس ثم مدريد.

٢ في مقابلة صحافية مع خورخي بيديلا، رئيس المجلس العسكري الأرجنتيني آنذاك، طُرح عليه سؤال حول مصير آلاف المخفيين قسرياً في البلاد، فأجاب: "ليس بمستطاعنا اتخاذ أي إجراءات خاصة للكشف عن مصيرهم ما داموا مختفين. إنهم إشارة استفهام. ليسوا موجودين. لا هوية لهم ولا وجود. ليسوا أحياء ولا أمواتاً. ببساطة، إنهم مختفون".

- نرحّب بكِ إنِ أردتِ استطلاع تلك الملفات. إنها تحتوي مئات الإفادات. بعضها من أولئك الذين هربوا وتخفُّوا. وبعضها من أولئك الذين هربوا ثم قُتلوا. وبعضها الآخر من أولئك الذين لا يزالون في المعتقلات، يعلم الله بأي طريقة قد هُرِّبَتْ.

حنَتِ الشابةُ جذعَها إلى الأمام واستفرغَتْ.

وقفت امرأة أخرى:

- ما لا أفهمه هو كيف يمكن فعل ذلك. كيف يمكنكِ فعلياً أن تمسكي بإنسانٍ حيّ بين يديك وتتعمّدي إيلامه. قصدي، أن تختاري عن عَمْد أداةً لجرحه، لضربه، لحَرقه، وتعمَدي إلى إشغال عقلك بالتفكير في طرائق لإيذاء ذلك الإنسان وتوجيه أفكارك لتنصبّ على لحم جسده. قصدي، إذا كنتِ قد أمسكتِ بشخصٍ آخر، بيدٍ رائعة مع أصابعها الجميلة، أو برأس، إن كنتِ قد أمسكتِ برأسٍ على كتفكِ يوماً، مع الشعر والعينين واللسان، فكيف يمكنكِ عندئذ أن تتسبّبي في نزيفه عن عَمد؟ كيف لكِ أن تجرّحيه؟ كيف؟

وضعت لاورا يدها على فمها كأنها توشك أن تتقيأ. ساعدتُها على النهوض، وفي الحمام، رششتُ الماء على وجهها.

"لا تنتظري حلول هذه الليلة. اسألي القبطان الآن هل بمقدوره فعل أي شيء للمساعدة في العثور عليها. أرجوكِ، أرجوك". قالت.

اقترحتِ السيدة كوراليس مرافقة لاورا إلى البيت، وأنا استوقفتُ سيارة أجرة لتقلّني إلى مكتب القبطان.

***

كان المبنى الذي يعمل فيه منتصباً وحده وسط أراض خالية غامضة، حيث كانت بنايات أخرى مشابهة قائمة ذات يوم ولكنها كانت أقلّ حظاً أو أقلّ دَعماً من هذا المبنى فهُدِمتْ في مطلع السبعينيات. كانت له واجهتان: الرئيسية منهما إطلالتها على المدينة، باتجاه القناطر الجزائرية الرمادية لـPaseo Colón [شارع كولون]، والأخرى، المخفية، تطلّ على النهر البنّي الذي يترامى إلى البعيد باتجاه ساحل الأوروغواي. خارج البوابة الرئيسية، كان جمع من الأطفال الصغار يلعبون:

كانت أمّي وأمُّك
تنشران الغسيل.
أمّي لكمَتْ أمّك
على أنفها.
فبأيّ لون كان الدم؟

ما كنتُ قد أتيتُ إلى هذا المبنى من قبلُ أبداً. خلال الشهور الأولى القلائل، كان القبطان قد عمل في مكتب يطلّ على Plaza San Martin [ساحة سان مارتين]، في جادّة سانتا–فه، داخل قصر جميل على طراز *fin-de-siècle* [نهاية القرن التاسع عشر] بات العسكرُ الأرجنتينيون شاغليه الرئيسيين حالياً، وكانوا قد وضعوا جناحاً منه تحت تصرُّف السفارة الفرنسية. كنتُ قد ذهبتُ إلى هناك بضع مرات لكي أراه، ولكني كنتُ أكره المجاملات الرسميّة، الأصوات التي تتغيّر نبرتها وفق هويتي أو هويّة الشخص الذي كنت زوجته.

حينئذ، بعد الرحلة إلى روساريو، كان قد طُلِب منه تقديم المساعدة في مسائل بيروقراطية شائكة أخرى، في منطَقة عسكرية أخرى. كان قد أخبرني قبل أن ينتقل إلى هناك:

– فظيعٌ هو هذا المكان الجديد، إنه أشبه بمبنى جامعةٍ مهجورة، مليء بمكاتب فارغة ضيقة كقنّ الدجاج وقاعات تدريسٍ مهمَلة.

وجّهني حارس إلى طاولة الاستعلامات، وحملني إلى الطابق العاشر مصعدٌ ذو صرير باباه من حديد مشبَّك. كانت منافذ كلِّ الطوابق السُّفلى حتى الطابق السابع مسدودة بألواح خشبية مثبتة بالمسامير.

وقبل الوصول بقليل، توقّف المصعد فجأة، فتعيّن عليّ ارتقاءُ درجةٍ عاليةٍ تشكّلت بين أرضيته والطابق العاشر. كانت الممرات الرمادية تمتد في أربعة اتجاهات منفصلة، ولم تكن هناك لوحات تشير إلى أرقام المكاتب. كانت هناك أنابيب نيون طويلة متقطّعة الوميض تنير السقف أما النصفُ السفلي للجدران والأرضية بأكملها فغارقان في الظلام. ركلت قدمي عبوةً معدنية فارغة، رفرفت جريدة قديمة في الهواء الدافئ. كان المكان يعبق بروائح الجصّ والشراشف غير المغسولة. بدأتُ المشي في الممر الأول إلى يميني، فما لبثتُ أن وقعتُ على صفٍّ من الأبواب المرقَّمة.

كان رقم المكتب الذي أعطاني إياه الرجل في الاستعلامات هو ١٠٣٨. على البلور المغشّى للباب الأول تبيّنتُ رقم ١٠١٢. ثم ١٠٠٨، ١٠٥٦، ١٠٢٤. بدا لي أنه ما من منطق للترتيب الذي تظهر به الأرقام. تشعّب الممرّ إلى ممرّين، فانعطفتُ إلى اليمين مرة

أخرى: ١٠٣٠، ١٠٠٢، ١٠٩٦. ثم، في نهاية المنعطف الثاني: ١٠٣٨. حاولتُ فتح الباب لكنه بدا مقفَلاً. حاولتُ الباب الذي يليه في الممر، ١٠٤٤، فانفتح.

كنتُ في أعلى مدرَّج للمحاضرات. كان الطابقان التاسع والعاشر مدموجين، على الأقل في هذا الجناح، لإفساح المجال لصفوف عدة من المقاعد. كان الحاضرون حوالى خمسين رجلاً، شعرهم مجزوز على الطريقة العسكرية. في الأسفل، في مركز القاعة، كانت منضدة صغيرة ووراءها سبّورة سوداء. كان القبطان واقفاً بين السبّورة والمنضدة.

استغرقتُ بضع ثوانٍ لأميّزه، لأنني ما كنتُ قد رأيتهُ من فوق أبداً، فبدا لي أقصر قامة وأكبر عمراً. ثم رفع ناظريه، ولكنه لم يرَني. كان يتحدّث إلى الرجال الجالسين على صفوف المقاعد.

كان يمسك في يُسراه ما بدا لي أشبه بساق كرَفْس، موضوع على الطاولة. كانت يُمناه ممسكة بسكين. تخيّلتُ للحظة مديدة مدوّخة أنه سيُحاضر عن الطبخ. فكرتُ بطريقة عبثية: "إنه لا يعرف شيئاً عن الطبخ، فما الذي سيدرّسه لهؤلاء الرجال؟".

كان القبطان يتكلّم.

"... هذه مهمةٌ التجرُّد فيها جوهريٌّ قطْعاً. ما تحتاجون إلى مراقبته، قبل أي شيء آخر، هو أنتم، أنتم أنفسكم، المراقبة المتيقّظة كالقطط. أفهم أن المتزلّجين على الجليد يحتاجون إلى نسيان أحاسيس المشي الطبيعي كافة لحظةَ التزلُّج؛ يعتمد توازنهم على هذا النسيان. سيختلُّ الحسُّ الفطري الذي يسيّر القدمين ليضع قدماً

أمام الأخرى، عندما يحاول المتزلّج ألا يتهادى بل أن يدفع نفسه، ولا يرفع قدمه بل يزحلها. عليكم بنسيان أنكم قادرون على المشي أيضاً. يجب أن تكون الزلاجات امتدادات لكُم، أجزاء من جسدكم. فأنتم، في هذه اللحظة، لستُم مُشاةً أبداً، وإنما أنتم متزلّجون بالفطرة".

"في المقابل، ليس مريضُكم إلا شخصاً يمشي. هو (أقول "هو"، ولكنه قد يكون، كما في أغلبية الحالات، امرأة) مَن يجلب هذه الظروف على نفسه. مريضكم مسؤول عن الحالة التي وصل إليها، وهو المذنِب في هذا الوصول، وقد تنازل في الواقع عن كل حق تمتلكونه، أنتم، بصفتكم متزلّجين. ما يتوجّب عليكم قوله لأنفسكم هو أن المريض، لا أنتم، هو صاحب العَقْد؛ وأنتم، لا المريض، مَن تمّ استدعاؤكم لتقدّموا خدماتكم، وعليكم تنفيذ مهمتكم بعناية من دون أن يرفّ لكم جفن. مشاعركم الشخصية، مخاوفكم الشخصية، تأملاتكم الفلسفية، لا أهمية لها في هذا المضمار، وعليكم أن تضعوها جانباً، مثلها مثل حس المشي. وفضلاً عن ذلك كله يجب أن تبقوا لبِقين عقب انتهاء مهمتكم".

"لكلِّ مَهمّة هدف. قد يُقال لكم أن معلومة محددة، اسماً أو مكاناً أو تاريخاً، يجب الحصول عليها مهما كلّف الثمن. ليس ذلك من شأنكم، ولا ينبغي أن يكون. تلك مهمة المحقّق... أو، استكمالاً للصورة التي طرحتُها، مهمةُ الحكَم في مباريات التزلّج. ليس من شأنكم استخلاص النتائج، بل الحفاظ على وتيرة العَرض".

"ممَّ يتألّف هذا العَرض؟ إنه يتألّف من فعل تحطيم مُطوَّل ومدروس بالتفصيل. أنتم، الرجال الذين تآلفتم والموت في القتال... أو ربما

لا، لأن بلادكم لم تخُضْ أي حرب منذ القرن الماضي. مع ذلك، أنتم تعلمون أن الموت لا يحطّم الإنسان وإنما يُلغيه. الموتُ يضع حداً للحاضر، ولكنه عاجزٌ عن فعل أي شيء إزاء الماضي. إنه أشبه بوضع حدّ لعدد المنازل التي ستُبْنى في موقع معين. لن تعلو منازل أخرى بعد لحظة الموت، أما المنازل التي شُيدت هناك، فسوف تبقى قائمة وشاهدة على ما حدث. لذا، إن مهمتكم أبعد مدى من مهمة الموت. مهمتكم المستحيلة هي محو الماضي".

"الألم قادرٌ على تحطيم الإنسان. الألم، في الواقع، قويٌّ إلى حدّ قد تكون فيه فكرة الألم بحد ذاتها قادرةً على تحطيمه. المعرفة بالألم لدى الآخرين قادرةٌ على التحطيم (مرة أخرى، هذا هو ما يجب أن تتحصّنوا ضدّه). بل حتى توقّع الألم لدى الآخرين قد يكون قادراً على التحطيم".

"ما بين يديّ هنا، هذه القطعة من النبات، يتطابق مع مريضكم تطابقاً جوهرياً. لها جِلدٌ ولحمٌ، ويمكن أن تُرى أوراقها الداخلية بمكانة الأعضاء الحشوية والعِظام. الفارق الوحيد المهمّ، بل المهمّ جداً، هو أنها لن ترتكس. لن تصرخَ أو تتوسّل أو تبكي أو تكتم ألمها. سآتي لاحقاً على ذكر هذا الجانب من مهمتنا".

"عندما تقترب السكّين من الجِلد يبدأ التحطيم. وهو يبدأ، في الواقع، قبل ملامسة السكّين للجِلد. تؤسّس السكّين طبيعة العلاقة الناشئة بينهما: المعدن واللحم، مرتبطين. الإيلاج الأوّل (وهنا أخفضَ السكّين، وترك نصلها يشرط بلطف القسمَ الخارجي من ساق الكرفس) يولّد المفاجأة. مفاجأة الألم الأوّل، مفاجأة الجسم

الغريب، النصل، داخلَ الجسد، وفضلاً عن ذلك كله، المفاجأة لأن الألمَ أقلُّ مما يتوقّعه المريض. رغم الألم، تترافق هذه المفاجأة مع إحساس مشين بالارتياح".

"الخطوة الثانية تعزّز التحطيم. فالارتياح قد يقود المريض إلى افتراض أن العملية قد... لا، بل سوف تتوقف. يجب عليكم التيقّن من غياب أي شك لدى المريض في أنّ ما يحدث سوف يدوم إلى الأبد. تسحبون السكّين (يسحبها بعناية قُصوى) وممسكين بطرف شريط الجلد المفصول بين إصبعين من أصابعكم، تسحبونه حتى يُقْتَلعَ بالكامل (كان يمسك في يُمناه بشريط ممزَّق من الخضار، والأوبار الخضر تتدلّى من الأسفل باتجاه كفّه)".

"والآن، اللحمُ عرضةٌ للهواء. الآن، يدرك المريض أن ثمة أشياء محكومة بالاختفاء في هذه العملية، وأنه لن يتدارك هذا الفقدان أبداً. وعليكم أن تقولوا لأنفسكم طوال الوقت: لستُ معنياً بهذه البلاد الأجنبية، هذا الجسد الغريب، هذا العذاب الآخر. إنه هو، المريض، مَن جنى على نفسه. لستُ إلا عاملاً. أنا أؤدّي عملي. وعليّ فعله على أحسن وجه".

"سوف تجدون هذه النقطة جديرة بالتذكّر أثناء اللحظات التي تُستخدم فيها إحدى الأساليب المعتمدة على الماء. سيكون عملكم حينئذ أن تدفعوا المريض إلى التخلّي عن الأرض مقابل الماء. مخفضين رأس المريض، ستعيدون الرأس – وليس جسد المريض بكامله، وإنما الرأس فحسب، كأنه كيانٌ قائم بحد ذاته – إلى الماء. ذلك، إذا شئتم، بمثابة رجوع المغتربين إلى وطنهم أو تغيّر

في الطقس. وإذا المريضُ وافاه الموت، فمردُّه دوماً عنادُه، كمَن يرغبُ عن ارتداء ملابس تدفّئه جيداً في عاصفة ثلجية. لا ينبغي أن يكون "غرق"، في قاموس مفرداتكم، فعلاً متعدّياً. يجب أن تكرّروا لأنفسكم: لا أحد يغرقُ أبداً. الناس يختارون أن يكفّوا عن الحياة. الغرق تعليقٌ للإرادة".

رجعتُ القهقرى عبر الباب، واستدرتُ في الممرّ لأنزل أدراج الطوابق العشرة، وأخرج إلى الشارع، عائدةً إلى البيت. جلستُ في غرفة النوم، وكان بمقدوري سماع لورينثا تنادي، وآنا تبكي، ومن ثم القبطان يقول اسمي، ومع ذلك، ما كنتُ لأفتح الباب، وفيما بعد، حين خيّم الليل ببطء مبرّح، دخل أخيراً، وحاول أن يلمسني، ثم تركني وشأني، ولمّا استدرتُ إلى الحائط وحاولتُ النوم وشعرتُ فجأة بالجوع والعطش، ولمّا تذكّرتُ أنني ما كنتُ قد أكلتُ شيئاً، ولمّا ردّدتُ لنفسي: "سيّان"، اجتاحني كالظلام الغثيانُ والحزنُ والشفقة الضارية، فما برحتُ أقولُ لنفسي: "لا أَستطيع أن أحبّه"، وقلتُ لنفسي: "هذا شخصٌ آخر؛ ليس هو؛ لا يمكن أن يكون هو نفسه هذا الشخص"، وقلتُ لنفسي: "لا أزال أحبّه؛ لا أستطيع أن أفهم السبب، لكنني لا أزال أحبّه".

وفي تلك البلاد، وفي البلاد التالية، وفي تحوّلات المناخ والفصول، في المنزل الذي تركناه وفي المنزل الذي جئنا إليه، في مجاهل الأرجنتين الشاسعة وراءنا وفي مجاهل كيبيك الشاسعة أمامنا، في الأرض التي تبيّض كلَّ الخطايا، لتصبح، كهذه الأرض، شيئاً لا ماضيَ له، أدركتُ أنني سأواصل حبّي له، رغماً عن عينيّ وأذنيّ،

رغماً عن نفسي، وكل ما استطعتُ فعله لخلاص نفسي من السؤال هو الاستسلام للنار، للرماد والهلاك، التي كنتُ سأحملها بنفسي مثل ملكة اللورين المجنونة. وحينئذ، تمكّنتُ من فهم المغزى وراء ذلك كله. كان المغزى هو أن هناك شيئاً قد انتهى.

***

الطريق من منزل آناليز ميشو إلى منزلنا ليس طويلاً، والعصر لطيفُ الحرارة رغم الشمس. أخبرتُ آناليز أنني كنتُ على ما يرام، وسأكون على ما يُرام، وكانت تحبّ أن تراني أغادر شرنقتي وأمشي في العالم مرة أخرى دون حراسة ريبيكا لي. خلال تلك الأيام الأخيرة في بوينس آيرس، حاولت ريبيكا إخباري باعتقادها أنها كانت تعرف، واعتقادها أنني كنتُ أعرف. "أستطيع مواجهة *señor* بيرنس"، كانت تقول، غير متأكدة من أنني كنتُ أفهمها. "ها أنا أراه يتنقّل ويتحدث ويكون معك ومع آنا. كيف لي أن أصدّق؟"، ثم تغيّر شيء ما.

لم أنبس بكلمة واحدة، لم أخبرها أبداً. لكنني سمعتُها والرجلين يتحدثون عن المتفجّرات. "النارُ بالنار، ولكن متى؟"، فكرتُ. ومن ثم، في نهاية المطاف، أقلّتني إلى منزل آناليز، وأخذت بيد آنا، وقالت لها بنبرتها الطريفة:

– العبي مع ماتيو حتى المساء.

هكذا إذن، سيتمُّ التفجير الآن، عصر هذا اليوم، حين نكون، أنا وهو، راقدين معاً في غرفة النوم المعتمة، وسيأتي النوم في مواعيده

الدقيقة المعهودة، وستنشب فينا النيران ونحن نائمان.

في الظلام، كانت النارُ بأصواتها المحلّقة والهامسة والمطقطقة حولي تحفر دروبها ناخرةً أعماقي، ليربو جلدي كسطوح الجحور، وتسكنني كأشباحِ حيوانات صغيرة مكسوة بالفرو تتكاثر وتنقضّ وتمزّق اللحم فيَ حلقي، وتُتخمني، خانقةً صوتي، مثلما فعلت بي في تلك الليلة الأولى بعدما عرفتُ، وطوال النهار الذي تلاها، والنهار التالي والذي يليه، حتى اليوم، حتى الآن، لأنني في نهاية المطاف، المطاف الطويل الطويل، ما عدتُ أترقّب حزنَ الاستيقاظ صباحاً.

هنا

جلستْ آنا إلى جواره، منتظرةً منه أن يتكلّم، لأنه كان يطمئنها على الدوام. كانت جالسة وحزام الأمان مشدود بإحكام حول خصرها، وكانت تحسّ بالوقوع في فخّ أكثر من إحساسها بالأمن، مفعمة بالحزن، وعلى حين غرة متعبة حدَّ العياء، إذ أدركت أن عليها ألا تسمح لعينيها بالانطباق وإلا غرقت في النوم، وعندئذ ستكون وحيدة. رأت يديه قابضتين على عجلة القيادة، عينيه مصوَّبتين إلى الأمام نحو الطريق الذي يهجم على العين. انتظرتْ.

ثم تكلّم.

هل الباب مغلَقٌ جيداً، هل حزام الأمان مربوط، فاجلسي، واستمعي، إذ هناك الكثير الكثير مما أرغب في توضيحه، الآن وقد ماتت أمك، أمك المسكينة ماتتْ، بلغتْ نهايتها، النهايةَ التي شاءتها لنفسها، جسورة حتى اللحظة الأخيرة، وعلينا جميعاً أن نتعلّم كيف ننتهي، لأن الموت ليس مهماً، إن كنتِ تعلمين، حتى موتُها، وموتي، حتى موتُك، أنتِ، يا آناي، يا ابنتي، لأن كلَّ شيء يأخذ مجراه، والخيارات خياراتك، فهي قرّرتْ أن تتوقّف، بينما نحن مستمّرون، وعليكِ أن تقرّري كيف ترغبين في الاستمرار، ولهذا أنصتي، لأنني بحاجة إلى أن تفهمي، لأنني سأعطيكِ خياراً، ولا يمكنك أن تختاري من دون فهم، قبل وصولنا إلى مدينة كيبيك، أوه بالتأكيد، قبل وصولنا

إلى مدينة كيبيك بوقتٍ طويل، واسأليني إن صعُبَ عليك أيُّ شيء أقوله، أو احتاج إلى إيضاح، لأنني، حتى لو كنتِ ابنتي، وأنا والدك، رجلٌ عاش بدوره سنوات كثيرة غريبة ومختلفة من دونك، وما اجتمعنا، أنا وأنتِ، إلا في نهاية المطاف، إلا في مقادير الزمن الصغيرة هذه، المقادير الأخيرة المديدة التي تبدو لك سريعة ومليئة بالأحداث، متحوّلة بسرعة فائقة، ولا وقت للتفكير في كيفية تحوّلها، بمعنى تحولاتها، لا وقتَ لتنظري إلى نفسك منذ دقائق مضت لتري نفسك تتحوّلين، بسرعة هائلة، إلى شيء آخر، المخلوق الغريب الذي يبزغ وراء عينيك مثلما بزغَ للتوّ الآن، ضارياً أو مذعوراً، أكاد أقدر على الإمساك به كلما نظرتُ إليك، كما لو كنتِ تتراءين لي وراء ملاءاتٍ من الماء المنهمر، فتارةً أكاد أستطيع تبيُّن ملامحك، ولكنني تارةً أخرى لا أستطيع تذكُّرك إلا كما أراكِ في ظنوني، كما كنتِ في ظنوني، وأنا متأكد من أنك قد فكّرتِ بهذه الفكرة نفسها ذات مرة، فإذا ما تحوّل الوجهُ الذي لنا، وتحوّلت سحنتُنا، ولا أقصد بذلك أن نكبُر فحسب، وإنما قصدي التعلّم، والخسران، فعندئذ أيُّ وجهٍ من تلك الوجوه هو نحنُ، أيُّ وجهٍ من سلسلة الوجوه تلك كوجوهِ شخصٍ ميت أثناء الليل الطويل للسهر على جثمانه قبل الدفن، مكتملاً ومضمحلاً كالقمر بين بدره ومحاقه، كما في واحدةٍ من ذكرياتي الأولى، عندما كنتُ بعمر ثلاثة أعوام أو ربما أربعة، في البيت الكبير في إترِتا، في النورماندي، ذي النوافذ المشرفة على الشاطئ الذي يشبه كثيراً الشاطئ هنا في غاسبه، الستائر السُّود الطوال مسدلة على الباب والمرايا مقلوبة لأن Mère Félisie [الأم فيليزي] قد ماتت، الأم

فيليزي، أمّ أبي، أمّ جدّك التي لكِ الآن عيناها، وفي غرفة الطعام، غرفة الطعام الطويلة المعتمة حيث تلمع الفضّة ويفوحُ الأثاث برائحة التفّاح، على مائدة غرفة الطعام كانوا قد سجّوا تابوتَها، ورفعني أحدُ أعمامي لأرى وجهها للمرة الأخيرة، وأمسك بي عالياً بينما أنا أنظر إلى الوجنتين بلون الزبدة مؤطّرتين بالدانتيل، الشفتين الرقيقتين، العينين المغمضتين، وحينما كنتُ أنظر، طوال تلك اللحظة المديدة المترامية التي كان عمّي أثناءها ممسكاً بي، وحينما كنتُ أتفرّج، بدأ وجهُ الأم فيليزي بالتحوّل، فترمّد لونُه ثم تورّد ثم بدا كأنه يسقطُ ببطء، كما لو كانت العظام داخل الرأس قد كفّت عن حمْلِ الوجه، فصرختُ، فأنزلني العمُّ وقال لي إنني جبان، ولوقت طويل لم أفكر فيما قاله، ثم تذكّرته، بعد سنوات كثيرة، عندما كنتُ أحاول أن أتبيّن كيف تحوّل وجهي أنا، أمام مرآة حلاقتي، وكيف تحوّل العالم مع وجهي، ولعل الشيء نفسه يحدث معكِ، فقد ينبثقُ بغتةً شيءٌ كنتِ قد نسيتِه، مثل كتابٍ لم تُحسني إرجاعه إلى موضعه فتهاوى بغتة عن رفّه، مثل كتاب جول فيرن الذي ضيّعتِه ثم عثرتِ عليه وأخفيتِه، عندما كنتُ في منتهى الفظاظة معكِ، لأنكِ لم تحافظي عليه ككتاب، كما أحافظ على كتبي، بل عاملته كمحارة أو جثّة، وها هو هناك الآن، وما من شيء يستطيع حقاً أن يفسّر أين كان قد اختفى طوال ذلك الوقت، إن كان موجوداً هناك حقاً، متخفّياً وسط الكائنات السرية، الكتب، "زوّاري" كما سمّيتِهم ذات مرة، ربما لأنك أحسستِ أن هناك تلك الأشياء التي تحتفظُ بها مخيّلتك وأشياء أخرى تكتفي بتلقّيها، ضيوفاً من كلِّ مكان، ينشدون السُّكنى، بعضهم لقضاء ليلة

واحدة، وآخرون للإقامة فترات طويلة غير محدَّدة، وآخرون سواهم، وهم الأندر، يطالبون بالإقامة مدى الحياة مع مساحات شاسعة من الأراضي التي سيتجوّلون فيها، فهم معارف محظورون، كنتُ أفكّر حين كنتُ بمثل عمرك، غرباء خطيرون، ربما لأنهم لم يكونوا موجودين دوماً هناك، ربما لأنّ جدّتك في البيت كانت تؤمن بأن هناك جوّاً فضائحياً طفيفاً يكتنف الكتب، وأن الكتب خارج سيطرتها، وأنها داخل خزائنها، مجلَّدة بالجلود، تُخفي موسيقا غريبة، فكاهات لا تُرى، لأنك تستطيعين أن تري الخزف، الزجاجَ المزخرف، الأثاثَ المطليَّ بالورنيش، لا تحرّك ساكناً في عُزلتها، أما الكلماتُ، القصص، المنسابة عبر خربشات سوداء، فلا يمكن الإمساك بها ما لم تُسْتَكشَفْ، وتلك هي الخطيئة المقترفة، ولذلك كانت هناك كتب قليلة في البيت في إترِتا، وكانت مصفوفةً كالعجائز على رف سميك من خشب السنديان، أقلَّ أهمية من خزف السيفر[1]، وهي كتابٌ مقدس، **الأسطورة الذهبية**[2]، كتابان أو ثلاثة لشاتوبريان، **حياة المسيح** لرينان، معجم جغرافي في صفحاته المقسومة إلى عمودين رأيتُ للمرة الأولى الأمكنة التي عشتُ فيها لاحقاً، وكأن بَصر الإنسان كان قادراً آنذاك على أن يلمح خطفاً الأمام والخلف على السواء، فينظر ويرى، آهٍ نعم، في هذا المكان سأكون سعيداً،

١ Sèvres: منطقة جنوب غربي باريس معروفة بصناعة البورسلان والسيراميك.

٢ **الأسطورة الذهبية**: جمع جياكومو دي فارّازي المؤرخ الإيطالي وأسقف جنوة قصص هذا الكتاب في القرن الثالث عشر. قُرئ هذا المؤلف على نطاق واسع نسبياً في الفترة المتأخرة من القرون الوسطى، وهو يضمّ السير الأسطورية لعدد من القديسين كمرويات شعبية، منها مار جرجس والتنين على سبيل المثال.

وهنا سأيأس، وهناك سوف أموت، بدلاً من الاختبار المنهِك، اختبار الأمكنة مكاناً تلو مكان، مرةً بعد مرة، الكثير من التجوال الذي لا طائل منه، ويتساءلُ أين تُراه سيبدأ هذا التجوال، لأن البدايات قد بدت على الدوام مفضيةً إلى الفهم، تراكمات السبب والنتيجة، كمثل هذا الهواء المتحوّل خارج السيارة والحلكة التي لا يفلح الضوء في بلوغها والمطر الخفيف، والأشجار التي لا تزال خضراء تخرمش سطوح غيوم العاصفة ومن ثم هطول القطرات الأولى، فذلك شيء بمستطاعي تذكّره، حديقة مسوَّرة وناموسية مطرَّزة لصدّ الحشرات أو القطط، ثم بهدوء تمتلئ الناموسية بمساحات قاتمة، ويدلهمّ الغيم، ويحطُّ على بشرتي شيء نديٌّ وبارد، مطرٌ ساحر، آه، الذكريات تطفو إلى السطح، كم كان الجيران يتمعّنون فيّ عن كثب، صبياً مؤدَّباً يرتدي المخمل والحرير، ابن الفقيد Monsieur le Docteur [السيّد الطبيب] الذي كانت أصابعه قد جسَّت المواضع الأكثر خفاء وحميمية في أجسادهم، وكان صوتُه قد أملى عليهم عاداتِ أكلهم وحركاتِ أمعائهم وخروجهم إلى الحمّام، ساعاتِ ملازمة السرير والنزهاتِ بعد الظهر، ابن الفقيد السيد الطبيب الذي كان لزاماً عليه أن يُبدي تهذيباً رفيعاً، وكان عليه الخشوع في ذكراه، وكان لا بد من الإشراف عليه خشية أن يحتذي بقدوات سيئة، لا بد من الإشراف على قراءاتي، شؤوني التي كنتُ أتابعها، الأصدقاء الذين كنتُ ألعب معهم في الحديقة الخلفية المرصوفة بالحصباء في البيت في إترِتا، الأصدقاء المختارَين كمثل ابن قريبِ جدّتك، "المسكين، يا قلبي، يحبّك كثيراً"، كما درجتْ جدتكِ على القول بنبرةٍ غير مبالية كنتُ

أمقتُها، "يجب أن تكون قدوة برنار ابن عمّك"، بشعره الكثيف الباهت اللون ملتصقاً بجبينه وكريهاً، "اذهبْ والعبْ مع ابن عمّك برنار، اذهبْ وتمشَّ مع ابن عمك برنار، أرِ لابن عمك برنار المرسى القديم على الشاطئ ولكن احترسْ، انتبهْ إلى المواضع الزلِقة"، وبالطبع كان ابن العم برنار سيقع في المياه المليئة بأعشاب البحر، أو سيخوضُها عن قَصد، فتغدو رائحته النتنة أقوى الآن، وبالطبع أنا المُلام، "أنت مَن دفعتْه، أنطوان، لقد فاقت شيطناتك كلَّ احتمال"، ومن ثم حرمان العشاء، مضاعفة الصلوات، والاعتذارات، حتى المرة التالية، مراراً وتكراراً، إلى أن أتى يوم قلتُ فيه "لا"، رفضي الأوّل، كبداية أو نهاية، ولا أستطيع تذكّر المرة الأولى التي قلتِ فيها "لا"، يا آناي، خيارَك الأول، وأنت تتشكّلين، وتلتمّين كبُرادة الحديد حول مغناطيس، لكنني أتذكّر بدقّة أولَ "لا" قلتُها، لأننا كنا قد ذهبنا معاً، أنا وابن العم برنار، في رحلة أخرى من تلك الرحلات التي كنا نقوم بها عاماً بعد عام، لنزور أقرباءنا المسنّين أو المرضى، مدام إنريكه بيرِنس، العمة دورا، Père [أبونا] بونيفاس، وعلى الأخصّ أبونا بونيفاس، الكاهن المنكمش الضئيل الحجم في كنيسة نوتردام دو غراس، الذي كان يبارك البحرَ في الخميس المقدس[1] ويأمره باحترام الحدود التي وضعها الخالق، أبونا بونيفاس، الوحيد بين أقرباء جدّتك كلّهم الذي لم تكن زيارته تضايقني، رغم الرائحة الحامضة في بيته

١ الخميس المقدس، في التقويم المسيحي، هو خميس العهد أو خميس الأسرار أو خميس الغسل، وهو يوم الخميس الذي يسبق عيد الفصح، وتحيا فيه ذكرى العشاء الأخير للمسيح، حين غسل يسوع أقدام حوارييه وعلّمهم أن يخدموا بعضهم بعضاً كما خدمهم، وهو ما يُعيد الكاهن فعله حين يغسل أقدام مساعديه.

الواطئ السقف الذي كانت الكنيسة قد أعطته لكاهن رعيّتها، حيث الحرُّ والدخان المنبعثان من النار الموقدة على الدوام، المكتبةُ المليئة بكتبٍ مجلَّدة بجلد أخضر على أرففٍ واطئة محاطة بأثاث أسود مزخرف – أتذكّر براثن الغريفِن[1] القابضة على تفاحات خشبية كانت بمثابة دعائم لقوائم الكراسي – وكان أبونا بونيفاس يجلس على واحد من هذه الكراسي، ولا تكاد رؤوس أصابعه تلامس السجادة بين براثن الغريفِن، ملقياً علينا أسئلة مبتذلة ممجوجة، فيجيب ابن العم برنار بأدب، وأجيب بأدب، ثم يقول أبونا بونيفاس: "لا بد من أنكم جائعون، يا أطفالي، دعوني أرى ماذا سأحضر لكم"، ويتوارى في مطبخ مظلم يضوعُ بنفحاتٍ من عبق البرتقال، ويعاود الظهور ومعه إناء فضيّ من الشوكولاته وصحن من بسكويت أصابعِ السيدة الرقيقة بلون صفار البيض كانت جدّتك قد أوصتني بألا أقبلَها عندما تقدَّم إلي للمرة الأولى، بل أن أنتظر بأدب حتى المرة الثانية، وعندئذ أتناول إصبعاً واحدة فقط، وأشكره عليها بلطف، ولا أغمسها في الشوكولاته، وكان ابن العم برنارد يأخذ اثنتين، ثم يجلس هناك، وغرّته الكثيفة تغطّي جبينه، ريثما يعود أبونا بونيفاس إلى المطبخ، ولحظتئذ، بسرعة النار، كان ابن العم برنار يثِبُ ويركض إلى رفوف الكتب، فيسحب كتابين أو ثلاثة، ويفتحها ويمزّق حفنة من أوراقها عشوائياً، مقتلعاً إياها من الكتب كأنه يقتلع شعر دميةٍ يكرهها، ثم يرمي الأوراق إلى النار، ويُعيد الكتب إلى الرفوف، ويجلس من

---

١ مخلوق خرافي يصفه هيرودوت بالمسخ المجنَّح، ويصفه بليني بالوحش طويل الأذنين معقوف المنقار، كما يرمز إلى المسيح في المنحوتات الكنسية، أسداً برأس نسر وجناحيه ومخالبه، وضعه دانتي في مقدمة عربة النصر في "المطهر".

جديد، محدّقاً بي من تحت غرّته منتشياً متحدّياً، فيما يرجع أبونا بونيفاس ليقدم إلينا مزيداً من الشوكولاته وأصابع السيدة، وكنتُ عاجزاً عن نطق كلمة واحدة، وانتابني الغثيان من تخيل الأب بونيفاس يستطلع في اليوم التالي أو العام التالي واحداً من كتبه الأثيرة، فيفتحه على مقطع يكاد يعرفه عن ظهر قلب، فيجد الصفحات ممزَّقة، والكلماتً القليلة المتبقية كأنها معلّقة إلى الحافة المشرشرة لجُرح، ولا يفهم، ولا يعرف، مَن أو كيف، عاجزاً عن التخمين، بينما يبتسم ابن العم برنار، وحده في غرفته ليلاً، ابن العم برنار يتخيّل ويتلذّذ بفكرة العجوز الذي يقف حيث كان هو واقفاً، محاطاً ببراثن الغريفِن، باكياً ربما، وفكرتُ، لا أرغب أبداً في معرفة كيف تمَّ هذا، لا أريد أبداً أن أكون قادراً على متابعة ابن العم برنار من الفكرة إلى التطبيق، من فكرة تمزيق الكتاب أو إيلام العجوز إلى تنفيذها، لا أريد أبداً أن أكون مثل ابن العم برنار، أريد أن يكون هناك سببٌ لكل فعلٍ من أفعالي، حتى يمكنني الآن التحدُّث إليك تحت المطر الدافئ، بينما السيارة تشقّ ستائر الماء المنهمر ستارةً بعد أخرى، بينما الأشكال السيّالة ترتطمُ بزجاج السيارة الأمامي فتمحوها ماسحات الزجاج، فيما هي تأتي صوبنا أسرعَ فأسرع، وتكبر في قدومها وتتلاشى، فيما العالم كلّه يتحوّل من ألوانٍ لا تُحصى إلى العدم، من الأبجديات إلى ورقةٍ ممحوّة، حجرِ اردوازٍ تآكل بالحتّ، وتلك بدايةٌ بالنسبة إلي، مرة أخرى، لأحاول مساعدتك على فهم أنني هناك، في تلك المرة إياها، استهجنتُ الأذى، وجدتُه مقيتاً، مقزّزاً، حتى قلتُ إنني لن ألتقي ابن العم برنار مرة أخرى أبداً، وارتضيتُ بحبسي في

غرفتي أياماً وأياماً، ولا حلوى على الصينية التي تحضرها الخادمة دامعةَ العينين، فابيولا ذات الساق المعطوبة، الساق النحيفة الجميلة التي كانت تجعلها تعرج وهي تذرع الممرات وتصعد الأدراج وتهبطها، فتبدو حركاتها أشبه بالرقص، إلى أن استسلموا وما عاد أحدٌ يتطرّق إلى النزهات مع ابن العم برنار، وعرفتُ أنني قد ربحتُ شيئاً، قد أنجزتُ شيئاً لم أكن أعرف بوجوده، كأن تطأ قدماك جزيرة لم يكتشفها أحد، ثم استيلاؤك على ملكيتها باسمكِ الشخصيّ، وبعدئذ أتت أصيافٌ أخرى، وانقضى الوقتُ بتصفُّح كتب قديمة كانت تستعرض بطباعةٍ روتوغرافية الأعمالَ الكبرى للإنسانية، صوراً فظيعة التفاصيل لفتح الحمراء والحملة إلى منبع النيل، القاطرة البخارية الأولى، أناس يستشرفون الآتي ينظرون إلى مغيب الشمس أو شروقها، مستكشفين مثلي، إلى أن وقعت عيناي ذات يوم، في كتاب صغير للتاريخ، باعتقادي، على لوحة ماساكايو[1] "المسيح المسجَّى على الحجر، مصفرَّ الشحوب وميتاً، وقدماه في المقدّمة، قدماه العقداوان الحكيمتان، وتساءلتُ كيف للطخاتٍ لونية أن تجعلني أرى كلَّ هذا، كيف لضربات الفرشاة المدوّمة، والكشط، والتظليلات، أن تضعَ مثل هذا الجمال الساحق على قطعةٍ من القماش الميت، وفكّرتُ، أنا أخلق هذه اللوحة، فالفنان قد مات وأنا الذي أراها أحوّلها إلى مادة حية، فمن دوني لن تحيا هذه الأعجوبة، وفيما

١ ماساكيو: أحد الرسامين الإيطاليين البارزين في عصر النهضة. توفّي شاباً عن ٢٦ عاماً.

بعد، في مكتبة الليسيه اكتشفتُ راسكين بترجمة بروست[١]، وقد علّمني بروست، وليس راسكين، كيف أستلقي على العشب في الصيف، أو في غرفة الطعام المعتمة، وأنكبّ على كتابٍ، لجول فيرن، لكارل ماي[٢]، فأجعله، مرةً أخرى، كتابي أنا، مغامراتي أنا للقبطان هاتّراس[٣]، ملاييني أنا للبيكُم[٤]، طَوْفي أنا في الأورينوكو[٥]، وكنزي أنا في البحيرة الفضية[٦]، أو لم تشعري بذلك، يا آناي،

١ ترجم مارسيل بروست عن الإنكليزية **كتاب آميين المقدّس** لجون راسكين.

٢ كارل ماي (١٨٤٢-١٩١٢): كاتب ألماني اشتهر برحلاته المتخيلة وروايات المغامرات التي نقلت إلى خشبات المسرح وشاشات السينما، وتدور أحداثها في الغرب الأميركي أو صحارى بلاد العرب أو جبال كردستان. وسط الشخصيات التي تخيّلها، من بين رعاة البقر والهنود الحمر، ومن بين العرب والأتراك والفرس والأكراد قطاعي الطرق الكسالى المؤمنين بالخرافات، اشتهرت شخصية حجي خلف عمر بن حجي أبو العباس مع صديقه وخادمه كارا بن نمسي، في عمله الأشهر **عبر الصحراء**. لعبت مؤلفاته، نظراً إلى شعبيتها الكاسحة (كان أدولف هتلر أحد المتحمسين لها)، دوراً في ترسيخ الصورة النمطية التي لم تخلُ من العنصرية حول الهنود الحمر وأهل الشرق، عرباً وأتراكاً وفُرساً وكرداً.

٣ **مغامرات القبطان هاتّراس**: رواية لجول فيرن، عنوانها الأصلي في الفرنسية **رحلات ومغامرات القبطان هاتّراس** (١٨٦٦)، وتروي قصة حملة بريطانية إلى القطب الشمالي قادها القبطان جون هاتّراس.

٤ La Bégum: إشارة إلى رواية جول فيرن **الخمسمئة مليون ثروة البيكُم** (١٨٧٩)، يرث بطلاها ثروة طائلة عن رجل فرنسي كان قد استقرّ في الهند منذ سنين بعيدة وتزوّج هناك بأرملة أمير هندي ثريّ البيكم هو لقبها، وهو المرادف المؤنّث للقب البيك في تركيا وآسيا الوسطى، وتشمل بنت البيك أو زوجته، وتستخدم كاسم علم.

٥ إشارة إلى رواية جول فيرن **أورينوكو الخارق** (١٨٩٨)، وهي تروي رحلة الفتى جان عبر نهر أورينوكو في فنزويلا بحثاً عن أبيه الذي اختفى هناك.

٦ **كنز البحيرة الفضية** (١٨٩١) إحدى أكثر روايات كارل ماي شعبية، وتدور

الإحساس بمُلكٍ لا نهاية له، وعيناك وأنفك وأذناك كجيوش استطلاع تغزو العالم من أجلك، وتضعه عند قدميك، قدميك أنت يا آنا، لتفعلي به ما يحلو لك، رهن مشيئتكِ، أنتِ واهبةَ الحياة والنفَس، ولتعثُري وسط الغنائم على الجوهرة اليتيمة الكاملة التي كانت بالنسبة إلي، في وقت لاحق، هي لوحة دُورر في سوقٍ باريسي، لوحتي أنا، مكتشفاً أنني، أنا أنطوان بيرنس، كنتُ السبب في ظهورها إلى الوجود بطريقة غير مسبوقة قطّ، فأنقذتُها من التلف والغبار، وذات مساء في كاتدرائية تُور، وموسيقا تيلمان تعلو ببطء من حولي، كمثل ذرات من الرمل المبلل تشيّد أبراجاً بمحاذاة الماء، كانت يدي تقطّر النغمات في زوايا سرية من العقل، وما درى أحد، ولم يكن هناك أحد لأخبره بذلك، ومثل هذه الواقعة تختفي بالنسبة إلى الآخرين وتندثر، لا بالنسبة إليّ، أنا الذي أحمل الكنوزَ الخفية في أرجاء الليسيه، الليسيه بقاعاتها الكبيرة المقفرة وأبوابها الضخمة المقدودة من خشب السنديان وباحتها المرصوفة ببلاط أصفر التي تتوسّطها نافورة حيث كنا نلتمّ ونتبادل الأحاديث، ثم قُتِل الرئيس دومير[1] آنذاك، ودخل المعلّمون إلى الصفوف عاصبين أذرعهم بشرائطَ سُود، وفي الكنيسة قال لنا الكاهن إن الله قد بسط يده فوق فرنسا لنكفّر عن ذنوبنا، لأن كلَّ قطرة دم سقطت على الرصيف عند موت الرئيس قد سُفكَتْ بأيدينا نحن، جميعنا ولا يُسْتَثنى منا أحد، وفكرتُ حينئذ أنه لا يعرفُ ما

مغامراتها في الغرب الأميركي.

١ بول دومير (١٨٥٧-١٩٣٢): رئيس فرنسا الذي اغتيل أثناء افتتاح معرض للكتاب في باريس.

يقول، فيتحدّث عن إله يخلق الأشياء لكي يُهلِكها، ويتحدّث عن شخص لا يُبالي، ولن يُبالي، لا عن ربٍّ كنتُ أجلس بين يديه ولا يتفّهمنا فحسب، بل على العكس، يحبُّنا من أجل خطايانا، مثلما أحببتُ فابيولا حين كانت تقف أمام المَجلى في إترِنا، تنورتها السوداء تنحسر عن مأبضيها، وكانت ساقها الضامرة أشد إثارة بكثير من باقي جسدها، بيضاءَ كقرن أحادي القرن[1] الذي رأيتُه لاحقاً في متحف كلوني، بياضاً عاجيّاً، إلى أن التفتت في أحد الأيام وكشفتْ أمري، فابتسمتْ وعقدت ذراعيها وأمسكت بذيل ثوبها ورفعته وسألتني هل رأيتُ يوماً امرأة عارية، فامتلأتُ خوفاً، بل افترسني الخوف، وركضتُ واختبأتُ في غرفتي، وتساءلتُ عندئذ، أثناء نموّ جسدي وتغيّراته، إذ خشن صوتي وشحُب جلدي، ما هو ذنبي لأنال ما نلتُه، متخيّلاً الأفعال الشنيعة في المجلات ذات الأغلفة البنية الغامقة المبعثرة على طاولة الحلاق أثناء الحملات التي كان أبي يقودها لتأدية تقاليد قصّ الشعر، الغرفة العابقة بالكولونيا، خصلات الشعر المتناثرة على أرض الصالون، رائحة التبغ والبصل ممتزجةً

١ الصورة الشائعة عن هذا المخلوق الخيالي هي حصان أبيض صغير له القائمتان الأماميتان لوعل ولحية عنزة وقرن طويل متحلزن في منتصف جبهته. وصفه المؤرخون الإغريق والرومان القدامى، وصولاً إلى **ألف ليلة وليلة وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** للقزويني، كما لم تغفله كتب القرون الوسطى ومطرَّزاتها كرمز للعذرية، حيث كان الصيادون يضعون أمامه فتاة عذراء فيقفز إلى حضنها ويهدأ لتدفئه بالحب، بينما عزا ليوناردو دافنشي اصطياد أحادي القرن إلى قوة شهوته التي تنسيه شراسته، ولعلّ أشهر الأمثلة التي يظهر فيها هي مجموعة مطرزات "السيدة وأحادي القرن" الموجودة في المتحف الوطني للقرون الوسطى، المعروف سابقاً باسم متحف كلوني، في باريس.

بكريمات الشَّعر ومعجون الحلاقة، بينما الرجال يتحدثون في السياسة وأقاويل البلدة، وكنتُ أشعر أنني خجول وحذِر كدخيل متطفّل، عارفاً أنّني متَّهم، وحيداً في الكون كله، مذنباً باقتراف فعلة قذرة، تتوعّدني طوال الليل إصبعُ الله التي كانت تفوح منها رائحةٌ شبيهة بإصبع الحلاق حين يثني أذني ليمرّ بالموس، سائلاً نفسي، عالياً على كرسيّ الحلاق، كيف سأحَبُّ مع هذه القبائح، أيّ سرٍّ كان ميثاقي وتحت أيِّ ضوء سيراني الله، مثلما يرى الجمالَ البهي للضفدع بوفُّوس أو كما ينظر إلى الخطم المكشّر لوطواط جاوة في الرسوم، ويحبّ البزّاقة وخِيار البحر والسمكةَ الصخرية[1] الحرشفية الشوكية في سرير المرجان تحت ماء البحر، ورحتُ أفتّش عن تلك الأضواء التي أعتمتْ لدى الآخرين، فصادفتُ التماعاً هنا، وومضةً هناك، لكنّني سرعان ما أدركتُ أن هذه الأشياء، مخلوقاتِ الله، لا يستوعبها عقل، وتبدو مبتذلة لا تبعث على أي اهتمام، وأن ميفيستوفيليس[2] خيالٌ ولا أحد يفتل شواربه هكذا بين الناس، وأن عليّ وحدي الاعتناء بحديقتي المسوَّرة، ورعاية الأسْدية الصفراء المستدقّة في أعماق وردة ببتلاتها المتتالية طبقة إثر طبقة، والبتلات تُواري القلبَ في خفائها، العينَ اللامرئية للوردة، وقد أهَّبني ذلك، على ما أظن، لأننا عندما خرجنا جميعاً إلى الشوارع، وقد تركنا الليسيه وراءنا أخيراً،

١ السمكة الصخرية: سمكة سامّة بطيئة الحركة تعيش في المياه البحرية الضحلة، وتموّه نفسها وسط الصخور.

٢ الشوارب الرفيعة المفتولة التي تظهر في تصاوير الشيطان القروسطية، ونموذجها ميفيستوفيليس الروح الشريرة التي باعها فاوست روحَه.

حين انهارت حولنا حكومةُ العجوز بلوم[1] وخُضنا الحرب وارتدينا البدلات العسكرية، وأصغينا إلى الإيعازات، وبدأنا نتعوّد خشونة الأصوات الجشّاء، وخشونة اللباس وجلودِ أيدينا، والمناظر، الأفواج الطويلة من الرجال والنساء والأطفال يمشون واحداً بعد الآخر على امتداد الطرقات الموحلة، الأحصنة القتيلة في الخنادق، الأشجار المنزوعة اللحاء، ودمّر رجالُنا البيتَ في إترِتا وأحالوه خراباً بسبب خطأ تقني، عبث الأقدار، فجلستُ في خندق، مكسوًّا بالوحل، محاولاً ألا أكترث بالقمل الذي يزحف ببطء متخللاً مستنقعاتِ جسدي، وفكرتُ، هذه هي اللحظة التي ستندلعُ فيها تلك الخطايا السرية، منتظرةً شرارةً كعود ثقاب، الرقيبُ الأول مقتطعاً لنفسه حصةً أكبر من الطعام، الجنديُّ الذي يترك صديقه وراءه فاغرَ الجراح، كاهن الجيش المذعور إلى حد يتخلف فيه عن إعطاء سر المسحة الأخيرة[2]، ولكنني فكرتُ حينئذ، كلا، هذه ليست أسراراً على الإطلاق، بل إنها لابدةٌ، تنتظر تنفيذها ذات يوم مثل المستحيلات

١ ليون بلوم (١٨٧٢–١٩٥٠): ترأس حكومة "الجبهة الشعبية" في فرنسا بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧. التزم موقف الحياد في الحرب الأهلية الإسبانية لكيلا تنتقل عدوى الصراع إلى بلاده، وناهض حكومة فيشي. كان أول رئيس وزراء اشتراكياً ويهودياً في تاريخ فرنسا الحديث. تأثر بقضية درايفوس، وكان مقرَّباً من الزعيم الاشتراكي السلميّ جان جوريس الذي اغتيل لمعارضته دخول فرنسا إلى الحرب العالمية الأولى.

٢ أو مسحة المرضى. دُعي هذا السرّ الكنسي، القائم منذ الرسل المسيحيين الأوائل، "المسحة الأخيرة"، حين يُمسح المحتضرون بالزيت المقدس بعد التوبة والمناوَلة الأخيرة.

الثلاثة الكلاسيكية، وبعدئذ، إثرَ انقضاض الألمان على خطّ ماجينو[1] حيث مات ابن العم برنار، حلَّ الصيفُ، وكان الجميع ينتظرون حدوث شيء ما، في مزيج من الحَميّةِ والذُّعر، وفي باريس انخفض منسوب المياه في نهر السين وتراكمت أعشابٌ ضارة بخضرة عفونتها على أطراف أرصفته كلّها، وعطن الطميّ يصعد إلى الشوارِع، وهناك، في المتاجر والمقاهي والمطاعم، حيثما نظرتِ، لم يكُنْ هناك شخصٌ واحد معاد للألمان، أو معادٍ للغُزاة، أو معادٍ لبيتان[2]، أو معادٍ لأي شيء، لأنه لم يكن هناك منتصرون، ولا يمكن إحراز النصر، فالنصر لا يطاوله الفانون، حتوفنا تختطف منا النصر ووهمُ الأبدية كله ليس إلا نكتةً سمجة، وجلس الناس كالمعتاد يشربون النبيذ على الطاولات المستديرة ذات السطوح الرخام، يلعبون البيتانك في الساحات المرصوفة برملٍ أحمر، يتمشّون أزواجاً عبر الجسور، وطبعاً كانت هناك سياراتٌ مصفّحة وقوات عسكرية، والأعلام الألمانية بصلبانها المعقوفة خفّاقة على قمة المتاجر الكُبرى، ولكن إن وُجِدتْ أصواتٌ ضدّها، فهي لم تتعدَّ الغمغمات، وإذا رمى

١ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، شيّدت فرنسا خطّ تحصينات عسكرية كبيراً على حدودها مع سويسرا وألمانيا ولوكسمبورغ، سمّته "خط ماجينو"، على اسم وزير الحرب أندريه ماجينو، ولكنه فشل في حماية فرنسا من الاجتياح النازي سنة ١٩٤٠.

٢ هنري فيليب بيتان (١٨٥٦–١٩٥١): مارشال فرنسي وبطل معركة فاردان (١٩١٦) ضد الألمان في الحرب العالمية الأولى. تولّى رئاسة حكومة فيشي عام ١٩٤٠، ثم رئاسة الدولة في ظل الاحتلال النازي لفرنسا (١٩٤٠ – ١٩٤٤). اتُّهم بالخيانة العظمى وحُكم عليه بالإعدام، ثم خفّف ديغول الحكم إلى السجن المؤبّد.

بضعة أشخاص أحجاراً عليها، فإنهم لم يكونوا يثيرون رُعباً أكبر مما يثيره أطفالٌ يقذفون الحصى، أطفال نكِدون خجولون، كمثل الأطفال الذين ساروا ذات صباح، وكان الطقس بارداً لأن الشتاء قد حلَّ باكراً، يقودهم رجل نحيل طويل لا يلبس معطفاً، صوب شاحنات مفتوحة كانت تنتظرهم عند طرف جزيرة سان لُوي، حيث كان قديس فرنسا الأول[1]، الذي كان ملكاً أيضاً، قد بارك رعاياه، أما الذين كانوا قد خرجوا إلى الشرفات ليطعموا العصافير الأخيرة أو ينفضوا لحفهم المحشوة بالريش في الهواء القارس، أو ببساطة ليطلُّوا على المدينة وقد شاختْ في الضباب، فنادوا على الرجل: "أنت، يا عازف المزمار[2]، لماذا يتبعك الأطفال؟"، فرفع ناظريه وأخبرهم بأن الأطفال كانوا يتبعونه لأنهم يثقون به، وظنَّ الناس أن النجومَ الصفراء المخيطة إلى معاطف الأطفال طريفةُ المظهر، فنادوا على الأطفال: "صغارٌ أنتم وتحملون نجمة كبيرة كهذه"، وابتسمتْ قلة من الأطفال لأنهم كانوا قد تربُّوا على الابتسام أمام نكات الكبار، وعاود

١ لويس التاسع (١٢١٤–١٢٧٠) ملك فرنسا الذي تزعّم الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٤٨، وأسِر في المنصورة في مصر، ثم راح يعدّ العدة لحملة جديدة بعد رجوعه إلى فرنسا عام ١٢٥٤، ولكنه مات بالطاعون في تونس. لقبه "القديس"، وعلى اسمه سميت جزيرة سان لُوي [لويس] في باريس القديمة.

٢ في الأسطورة الألمانية التي أعاد كتابتها غوته وبروانِنغ والأخوان غريم، خلّص عازف مزمار غريب يرتدي لباس مهرّجين أهالي بلدةَ هاملين من الجرذان التي غزت أرجاءها، حين قادها بموسيقاه السحرية إلى النهر فقفزت فيه وغرقت، ولما نكثت البلدة بوعدها، فلم تمنحه مكافأة الذهب التي وعدته بها وأوشكت تزجُّ به في السجن، استدرج بعزفه أطفالَ البلدة وأخذهم معه إلى جبل على أطراف البلدة، وهناك اختفى معهم إلى الأبد، مثلما لاشى الهولوكست أطفال اليهود المشار إليهم في متن الرواية.

الناس الدخول إلى بيوتهم، صافقين نوافذهم ومصاريعَها، وأنزلوا ستائرهم، وانطلقتِ الشاحنات بعد تعبئتها، ثم شاعَ قليلٌ من الدفء، وسُمِح للصباح أنَ يبدأ جدياً، وفكرتُ، ربما لأنني قد رأيتُ بعيني الآن، ببساطة دع كل شيء يحدث، مثل المسكين بيلاطس البنطي، لأنه ما من شيء يلمُّ شملَ ما تفرّق، لا شيء يخاطب جميع الناس دونما استثناء، لأن باريسٍ مثل بابل، فالمرأةُ في كشك الجرائد كانت تتحدث اليونانية، والنادلُ الإيطاليةَ، والجنتلمان الذي يقرأ شيشرون في المطعم يتحدث الإنكليزية، وكنا نتحدّث الفرنسية، والجنودُ الألمانيةَ، وكلٌّ منصرفٌ إلى شأنه، وكنتُ أدخل الشوارع وأغادرها مع جنود آخرين، وندخل الحانات والمدارس والبيوت ونغادرها، ولم يتغيّرْ شيء، فهنا كانوا يخدمون كولونيلاً ألمانياً، وهناك يطالبون برؤية الأوراق الثبوتية، وكان المرء يسمع إشاعات حول قواتٍ تتقدّم هنا أو قواتٍ تتراجعُ هناك، وحول أناسٍ يُعْتَقَلون في مداهماتٍ الليل، وحول اقتيادٍ الخبّاز الفلاني أو المدرّسٍ الفلاني، ولكن لم يُسمَعْ أحدٌ قط يقول أي شيء ما عدا "آه، كلا!" متشكّية أو "لقد شبعنا!" متذمّرة، أو في أقصى الأحوال ركلةٌ للكرسيّ وشتيمةٌ كأنهم قد خسروا في لعبة ورق، أو قلبُ كأس من البراندي، أو إحراقُ أيديهم بسيجارة مشتعلة، وكانوا بعد ذلك يقولون إنهم لم يعرفوا، ولم يسمعوا، ولم يتصوّروا قطّ، سوى أن بعضهم كان يتذكّر مشاهدة القطارات الطويلة التي تغادر المحطات، وسماع الأبواب تُكْسَرُ في الليل، كما لو في حلم، والصرخات في أفنية الماريه[1]، وكان الشكّ قد انتابهم، وهم

[1] الماريه: حيٌّ يضم العديد من الأبنية القديمة والمعالم التاريخية وسط باريس، تمّ

مُعرِضون عن التصديق، وهكذا إلى أن تمّت تصفيةُ كلّ شيء، فتم إحصاء الموتى وإرسال الناجين إلى بيوتهم، والمصافحات بين أيدي الجنرالات، وإعادة بناء المنازل التي سُوّيت بالأرض، وزُرِعت أشجار جديدة وأطلِقَتْ على الشوارع الجديدة أسماء المقاتلين الجدد من أجل الحرية، ووُقِّعَتْ معاهداتٌ جديدة، وأزهقت خمسة وخمسون مليون روح، شرعتُ بالتساؤل، أين هي العقدة التي تربط كل هذه الأشياء معاً، التوازن بين الألوان في الموت الذي رسمه ماساكيو أو في بورتريه لدُورر، النغمات التي تبدو كلحن واحد حيناً، طبقة من الذاكرة فوق طبقة أخرى من الذاكرة، الخريطة التي يقتفي أثرها كتاب، أو سير القصة وتطوّر الشخصيات وتقدّم الأفكار وتكاثر الصور، كلُّ ما يشير إلى نظام ما، نظام ستتبعثر الألوان والأصوات والكلمات من دونه، ومن دون ذلك النظام، سينبجس دمي راشقاً الجدران التي تتداعى، ستتفتّت عظامي، ستنفجر أعصابي وتغدو شباكاً ممزّقة وتتعلّق بحطام هذا الانفجار الوحيد الأسمى، وهكذا يتعين عليّ العثور على ذلك المركز، تلك النقطة الحميمة والكاملة التي يتعيّن علي أن أحاول الوصول إليها وتثبيتها، على درب موسوم بمصادفات تفسيرُها في منتهى الصعوبة، وكأنكِ قادرةٌ على صياغة حياتك على شكل تاريخ فصولهُ كثيرة، في لحظات تتذكّرينها من فترات تحوّلاتك، لحظاتٌ تلتصق لسببٍ غير معلوم كالذباب بالورق القاتل للذباب، مدرّسٌ في الليسيه واقفٌ أمامنا جميعاً، قارئاً راسين والدموع تسيل على خدّيه، أو أختُ جان ماري، لعله صديقي الأعزّ،

فيه توقيف عدد كبير من اليهود قبل إرسالهم إلى معسكرات الموت النازية.

جالسةً على كرسي أبيها، فستانها مرفوع فوق الركبتين ولسروالها الداخلي لونُ بشرتها، أو اكتشاف *Les Caves du Vatican* [أقبية الفاتيكان[١]]، ومعرفةُ أن اقتراف الفعل ممكنٌ من دون تفكير، من دون سبب، والخوف من أنّ أسبابي كانت أعذاراً، أو عصر ذلك اليوم حين رأيتُ عاشقين في ريعان شبابهما يُحْشران في سيارة على يد جندي ألماني أيفَع منهما، وكان العاشقان يضحكان، فاستدار الجنديّ الألماني إلى الضابط المسؤول عنه، وقال: "لماذا يفعلون ذلك؟" - **هُمْ**، وليس **نحن** - واليوم الذي بلغتُ فيه الثلاثين نظرتُ إلى وجهي في المرآة مرة أخرى ولم أتعرّفْ إليه، لأنني كنتُ أفترض أن الوجه الذي كان لي في عمر الخامسة عشر لا يزال موجوداً هناك تحت طبقاتٍ من لحيةٍ لم تُحْلَقْ وجلدٍ متسمّك، وتقبّلتُ عمري، وفي النتيجة، سنة ١٩٥٥، التحقتُ، أنا النقيب، بعشرين ألف جندي آخرين قصدوا الجزائر، وكنتُ الوحيد، كما تخيّلتُ، الذي يحمل في حقيبة ظهره كتاب *Le Trésor de la Poésie Française* [كنز الشعر الفرنسي]، وكان جامعُه، مسيو برتران لافيش دو فاليريو، قد نبّه على الغلاف :"لم يُدْرَجْ مؤلِّفون أحياء"، وهو واحدٌ من الكتب التي لطالما سخر منها مسيو كليف، كتابٌ أبقاني على مرّ الأيام ساهراً مع

---

١ رواية لأندريه جيد صدرت عام ١٩١٤، منع الفاتيكان تداولها واعتبرها عملاً مخلاً بالأخلاق، شأنها شأن العديد من أعمال جيد. "ما لم تكن الحياة قصة عجيبة، فهي ليست سوى مهزلة"، كتب جيد، وأبطال روايته "فئران تجارب" براهينهم تشبه أمراضهم وقناعاتهم مجانية ومغامراتهم ساذجة مضحكة. كان المتهكم العبثيّ لافكاديو، إحدى الشخصيتين الرئيستين في الرواية، شخصية أثيرة لدى السرياليين.

الأفكار، من قبيل ما كتبه إيفاريست بارني[1]: "لا تثقوا بالبِيض، أنتُم يا أهل الساحل"، أو لوتريامون: "أيها المحيط العجوز، أيها العازب العظيم"، أو هوغو: "يتّسع القلب عبر جراحٍ لا تُحْصى"، أو رونسار: "تبقى المادة ويضيع الشكل"، وفي مدينةِ الجزائر، البيضاء بياض العَظْم، التي لم ترَيها يا آنا، في الشوارع الصغيرة المشرقة، والمنازل الكالحة في الداخل، كانت الأبيات لا تنفكّ عن مراودتي بمعانٍ أخرى، فانعدام الثقة سببهُ أولئك الذين قوّضوا القانون، وكان البحرُ سرمدياً ولا يتبدّل، ولحمُ الجسد الهالك أقلُّ شأناً من القلب في الحسابات، والمادة تبقى في النهاية، لأنني أبغضتُ العنف، لأنني دائماً أبغضتُه، لأنه يُغثي نفسي غثياناً أكبر من أي شيء آخر أحسستُ به يوماً، عندما رأيتُ في إحدى المرات، قرب الأدراج المغمورة بفضلات البشر والمفضية إلى البحر في الجزائر، النوارسَ تحومُ فوق قطٍّ محصور في فجوة بين الأحجار، قطّ أصفر، قطّ أصفر هزيل جداً، قطّ أصفر هزيل جداً وصغير جداً، وكانت النوارس تحومُ فوقه في صعود وهبوط وهي تقيس المدى الذي تصله مخالبها، وكانت تزعق وهي تنقضُّ وتبتعد، ولكنها كانت تنقر القطّ في تلك الأثناء، لتأكل عينيه فحسب، وكان انقضاضها مباغتاً تماماً، في غاية السرعة، في منتهى الخفّة حتى أنك ما كنتِ لتستطيعي على الإطلاق رؤيتها وهي تفعل ذلك، كانت تعلو في طيرانها وتهبط فقط، وما حدث ببساطة

١ إيفاريست بارني (١٧٥٣-١٨١٤): أحد الممهّدين لقصيدة النثر الفرنسية عبر ديوانه **أغنيات مدغشقرية**، وكان يعدّ قصائده ترجمات لأغاني جزيرة مدغشقر غير البعيدة عن جزيرة ريونيون التي وُلد فيها. امتدت شهرته خارج فرنسا في القرن التاسع عشر، ورأى فيه ألكسندر بوشكين أستاذاً له.

أن القطّ قد عمي، ففي لحظة كان هناك قطّ يخرمش ونوارس تزعق، وفي اللحظة التالية، كان القط يصيح صياحاً لم أسمع له مثيلاً من قبل قطّ، وكانت عيناه الداميتان هما وحدهما اللتان تشيان لك بأن شيئاً ما قد حدث، عنفاً محضاً، مجانياً، ولا يُثمِر عن أي شيء، ولا يخدم أي غاية ولذلك كان ينقصه الشغف، ولا يمكن بناء أي شيء من دون شغف، ولا الحفاظ عليه من دون شغف، شغف في خدمة النظام، ولكنني لم أخبر أمك بتاتاً بما رأيتُه، إذ لم أكن أعرف كيف سأخبرها، وإن كنتُ راغباً في إخبارها، أعرف، كنتُ سأرغب في سماع تعليلها، كنتُ أحبُّ التعلم من شغفها، أفكارها، المختلفة للغاية عن أفكاري، لمقدرتها الفريدة على صياغة شغفها في أشكالٍ تحبّها، وأخشى ما خشيتهُ، خيانةُ المقرَّبين، لم تكن تُرعبها أبداً، وكانت تسلّم بها بحبور، وعند قدومها إلى السرير كلَّ ليلة، بوجهٍ مغسول وعلى الوسادة أريج أسنانها المنظّفة بالفرشاة، نظيفة كأحجارٍ في نهر، كنتُ أحبُّها من أجل ذلك كله، وما بدا صمتي خيانة أبداً لأن دافعه هو حبّي لشغفها بالأشياء، شغف كذاك الذي يقود القانون ويحميه، كما اعتاد الرقيب الأوّل غروليبه القول، رقيب أول أدّى نذوره ليلتحق بالرهبنة البنديكتية[1] ثم آثر أن يخدم الله بالجيش، وأنا أتذكر وجهه بوضوح شديد، كان طويلاً، بل متطاولاً، وكأن تقاطيعه قد اعتراها الوهن،

[1] نسبة إلى بنديكت النُرسي (٤٨٠–٥٤٧) الراهب الإيطالي مؤسس الرهبنة الغربية. ابتدأ الطريقة التي تحمل اسمه، ويعرف رهبانها بلباسهم الأسود، فتزهّد واعتزل الحياة وأنشأ ديراً في جبل كاسّينو وسط إيطاليا، تخرج منه عشرات البابوات. تتمّ تأدية النذور (الفقر والتبتُّل والطاعة والصلاة) وفق القانون البنديكتي الذي يضم ٧٣ مادة، وينصُّ على العمل اليدويّ والقراءة والتأمل الفرديين.

وكان ما يقاسيه من ضياء الشمس رهيباً، وكان موكَلاً باطلاعنا على البلد الجديد، على الإستراتيجيات والمزالق، لأننا جميعاً كنا قد تلقينا، في فرنسا، دروساً في الجغرافيا والتاريخ وعلم الإناسة، ولكننا جميعاً كنا مدركين حاجتنا إلى ذاكرة أولئك الذين عاشوا التجربة، وقد عاشها الرقيب الأول غروليبه مراتٍ كثاراً، فهناك اغتيال الزوجين الشابّين معلّمَي اللغة الفرنسية، ذوَي العقلين المنفتحين، المفعمين بالنيات الطيبة، أو الحافلة المليئة بالأطفال خارج وهران، أو القنبلة في مقهى ميلك بار[1] حيث كان قد رأى يداً تتدلّى من غصون شجرة، يدَ فتاة عمرها خمسة عشر عاماً اقتُلعت من معصمها جرّاء التفجير، وكان يعيد القول مراراً وتكراراً، "لسنا هنا بُغية العقاب، نحن هنا من أجل إيقاف المذبحة، لأن إيقافها واجب، ولأن إيقافها واجبٌ فسوف ننتصر، ولكي ننتصر علينا أن نعرف، ولكي نعرف علينا أن نسأل"، وكان قد استنبط طريقة للحصول على الأجوبة، طريقة أليمة في الرجوع خلفاً عبر فروع الجماعات الجزائرية المسلّحة، لأنه إذا كان أ قد اختار ب وَ ج حليفين له، وكان ج قد اختار د وَ ه، وَ ه قد اختار و وَ ز، فسوف يحتاجُ المحقّق إلى الرجوع خلفاً من الياء إلى الألف عدداً من الخطوات يعادلُ على الأقل العددَ الذي اقتضاه الذهابُ من الألف إلى الياء، وكان ذلك يعني إحضار كل الأعضاء من تحت الأرض، عضواً عضواً، الأعضاء كافة من دون استثناء، كل رجل

---

١ مقهى ميلك بار: فجّر فوج زرع القنابل، التابع لفدائيي "جبهة التحرير الوطني"، هذا المقهى في العاصمة الجزائر سنة ١٩٥٦ ردّاً على تفجير نفّذته في حي القصبة منظمةُ "اليد الحمراء" الفرنسية. قُتل في التفجير ثلاثة أشخاص من بينهم السيدة اليهودية مالكة المقهى.

وكل امرأة، وكل طفل إذا لزم الأمر، وكانت مهمتنا هي تعلُّم طرح الأسئلة المناسبة، كما عند النظر إلى لوحة، ورؤية هذا القسم منها في صِلَته بذلك القسم الآخر، رؤية لون تلامسه الألوان التي خلفه، أو انظري، مثل هذا المطر الذي لا ينفكّ يُسربِل زجاج السيارة الأمامي، ثالوث العلاقات الذي يعود، المرة تلو الأخرى، نافذةً على العالم، آه سريعةَ التلاشي، ثغرات في القلب، كما كان الرقيب الأول غروليبه يُسمّيها على عادته، "جِدُوا ثغراتِ القلب"، وكثيرون منا لم يفهموا عبارته قطّ، من بينهم كليف، الأحمق المسكين الذي كانت حاجته إلى الصداقة تدفعه إلى الاعتقاد بأننا رفيقان في رحلةٍ واحدة إلى بلداتٍ صحراوية صغيرة، كفتيان كشّافة يتحدّثون عن كوكب الأرض ومداره في المجرّات، وكان ببساطة يتخلّف عن الرّكْب، مسيو كليف، الذي لا تحبّينه، حصاناً هزيلاً يحاول أن يتنكّبَ عمل النهار من شروق الشمس إلى غروبها، عديم الكفاءة، حسن النيّة، مسيو كليف المستوحد، مَن يُحرِجني بذكرى صُحبةٍ يستعصي عليّ استيعابها الآن، لأننا نكبر، ونتطهّر، وكنتُ، أنا وثلاثة رجال أو أربعة على الأكثر، قلقين كالمُقبِلين على امتحان السنة الأولى، وكان الرقيب الأول قد أحضر السجين، المريض كما كان يدعوه، ويطلب منا قولوا المريض دائماً، ووقف المريض أمامنا، رجلاً صغيراً نحيلاً ذا شوارب سوداء، مذعوراً مثلنا، وأمره الرقيب الأول بخلع ملابسه، وقال لنا، استمرّوا كما لو كنتم تعرفون الأجوبة كلّها، كما لو كنتُم تعرفون الأسئلة كلَّها، كما لو كنتُم تفعلون هذا الأمر لمصلحة المريض فحسب، وخلع المريض ملابسه، أمام سرير قابل للطيّ مصنوع من

مادة شبيهة بقماش تُلَفُّ به الجبنة، واهٍ كبيتِ العنكبوت، طاولةٍ صغيرة، كرسيّ، سطلين من الماء، هاتفٍ لاسلكي، ومصباحِ غاز يتراقص وميضه، وانتظر المريض، وهو لا يزال مرتدياً بنطلونه، فصاح الرقيب الأول "أسرِعْ!"، لأن العرب يستحون كثيراً، وأجسادهم العارية لا تراها عينٌ أبداً، فهي حِكر عليهم وعلى الله، وهبَّ الرقيب الأول واقفاً وكان ذلك كافياً، وكان المريض واقفاً، مثل طفل صغير يرتدي قناعاً ذا شاربين كبيرين، وعندئذ بدأنا الأسئلة، السهلة أولاً، ثم رفعنا سويّتها حتى خبط الرقيب الأول الطاولة بقبضته وأمر بسكب سطلَي الماء على المريض، ثم أخذ المِسْبر الكهربائي، الذي كنتُ قد أخفقتُ في ملاحظته، واختبره في الهواء، وكلّمنا على رِسْله، بعدما توقف عن طرح الأسئلة، شارحاً كيف كانت تلك الأداة تعمل، كيف كانت الكهرباء تَسري عبر المِسبر وفوق الجسد المبلَّل، لأن الماء يساعد الألم على الانتشار ويمنع احتراقَ الجِلد، والأمر رهْنٌ بنا في العثور على طرقٍ لاستغلال الألم، فبالنسبة إلى مخيّلتنا الألمُ تحدٍّ أكبرُ من اللذة، وفوق أنين المريض وعويله، الشبيهين بأنين حيوانٍ وعويله، شرح الرقيب الأوّل وجوبَ التمهّل في تطبيق المِسبر، ووجوبَ أن نأخذ وقتنا، ووجوب الاستراحة لتكرار الأسئلة وليستردّ الجسد قواه، إذ سيبدو الألم كأنه قد ازداد بعد زواله، فيهلع العقل من زوال الألم قدر هلعهِ من الألم، وقد شرح كلَّ هذا بهدوء، قائلاً لنا، عندما تتكلّمون الآن كونوا لطفاء، الصياح انتهى، سيصرخ المريض ولكن عليكم التزام الهدوء، تخيّلوا أنكم طبيب الأسنان، وقولوا للمريض، "تبقى القليل، فقط لمسة هنا، دعنا نرى ماذا بوسعنا أن نفعل، هذا

سيوجعك للحظة فحسب، كُن شجاعاً، كُنْ قوياً"، لأن المريض يجب أن يثق بكم، ففي نهاية الأمر عليه أن يلوذ بكم لترشدوه، في النهاية سيتعيّن عليكم، أنتم الذين تسبّبون الألم، أن تُبلغوه بأنّ الألم سيتوقّف، وحينئذ سوف يجيبكم، أو لن يجيبوكم في حالات قليلة جداً، وليس ذلك خطأنا، لا أحد يرغب في الفوضى، لا أحد يرغب في الهلاك النهائي الذي يأخذ معه كلَّ شيء، بما فيه المتسبِّب في الهلاك، إذ نحن نسعى إلى تطهير، أو انهيار محسوب، كمثل حزم أضواء السيارة التي تشعّ الآن عبرَ الليل، مبرزةً قطرات المطر واحدة واحدة وهي تُمْسَح برِفق عن زجاج السيارة الأمامي، إذ لا شيء يقلّ عنفاً عن التعذيب، ولا شيء يفوقه في الترتيب والموضوعية والدقّة، لأن التعذيب وظيفة من وظائف الواجب، تتاخمُ الضجر، ولكنه ضجرٌ ضروري أحياناً، كمثل الدوران البطيء للكوكب، الضروري لكي يستمرّ نظام الحياة، هل تفهمينني، وذلك هو ما حاولناه، يا إلهي، وبذلنا في المحاولة قُصارى جهدِنا، ونظّفنا الجزائر في النهاية، لأن الجزائر استعادت هدوءها سنة ١٩٥٨، وكان بمقدورنا السيطرة على مجريات الأمور، بحزم وصمت، لكن السياسة تفسد الناس، والسياسيين ينصاعون لأهواء طمعٍ تافهة، فاستسلموا نيابةً عنا، ورفعوا أيديهم باسمنا، ورحلنا، وما كففتُ عن محاولة الاستفادة من خبرتي المهنية في تنظيم الأمور، الحاجة إلى تطهير المكان، إعادة الترتيب، إعادة الأشياء إلى نِصابِها، وهكذا في نهاية التطواف صرنا معلّمين، ولم نكن معلّمين فحسب، وإنما قادةَ أوركسترا، يدَ الله فوق المياه، لأن تلك الخبرة هي ما يتبقّى لك عندما تكبرين، عندما تشيخين،

وتبقّى لنا أن ننقل مفهومَ النظام لدينا إلى مكانٍ آخر، ونختبر منهجيّاتِنا في مكانٍ آخر، مثل مستكشفين في نهر الأورينوكو، أو ليفينغستن[1] في أفريقيا، أو هاتّراس في القطب الشمالي، ليسعنا القول "لقد كنتُ هناك"، كي نعطي لهذه اليوتوبيات مكاناً، وعندئذ تستطيعين العثور على وجهتك، مثلما حاولنا مساعدة الأرجنتين في العثور على وِجهتها، تلك البلاد الجميلة الضائعة، على غير هدى في عرض البحر، محاولين، من جديد، استرجاع معنى للنظام في خضمّ الفوضى، ولكن كيف، كيف، حين يكون الذين تمرّدوا خيراً من الذين تبوّؤوا سدّة الحُكم وتخفُّوا وراء الأزياء شتى، زيّ عسكري، زي دينيّ، وذكاؤهم محدود، مثل كاساريس، يجب أن تتذكّري كاساريس، تفوح منه رائحة كولونيا رخيصة، شعره مسرَّح إلى الخلف وملمَّع كدرع خنفساء، كاساريس الذي يشنّ حرباً ضد العصيان المسلّح، كاساريس المدافع عن "قيم أجداد هذه الأمة"، كاساريس الفخور بأن هناك مَن علّمه "كيفية التعامل مع هذه الحُثالة"، قائلاً، "نحن لدينا القلب، وأنتُم أعطيتُمونا العِلم"، قائلاً، "سنأتي هذه الأرض من دُبرها ونجبرها على الرضوخ"، وهو طوال الوقت يرفع كؤوس النبيذ في دارته الريفية، ورائحة اللحم المحروق على الفحم تمتزج بفوح الأوكاليبتوس، متحدثين ونحن نتمشّى وحدنا بعيداً عن الحفلة، ونعبر أمام الدارة والجهنميّة المعرّشة على الجدار الورديّ

١ ديفيد ليفينغستن (١٨١٣-١٨٧٣): طبيب ومستكشف جغرافي ومبشّر بروتستانتي اسكتلندي. بعد اهتدائه إلى منابع النيل وسط أفريقيا، أطلق اسم الملكة البريطانية فكتوريا على البحيرة التي ينبع منها النيل الأبيض.

بارزة كسِلعة درقية[1]، قرب بِركة البطّ التي هجرها البطّ، المكسوّة بغطاء مخمليّ من غَرينٍ أخضر لزج، وحافاتها مبلّطة ببورسلان إسباني متشقّق، وضفادعٍ من الحديد المطروق صدئت منذ وقت طويل وكان المفترضُ انبجاسُ الماء منها، وعند طرف عقاره، برج ملوّن بالأبيض والأزرق لا يُرشد إلى أي مكان، وأشار إليه كاساريس بكل فخر وفتح باباً صغيراً، وأراني حجرة صغيرة مظلمة حيث كان يُحفظ أثاث الحديقة من غير بد، وقال: "هنا، أدّيتُ دوري الصغير في سبيل بلادي"، فسألتُه ماذا، فقال: "إلى هنا أحضرناهم، الطلبة"، إذ كان قد أوعز باعتقال مجموعة من الطلبة في البلدة وإحضارهم إلى دارته الخاصة واستجوابهم هناك، ورجاله الذين لا يعرفون شيئاً، بالطبع، احتجزوا شبّاناً بطريقة عشوائية، وأقاموا حفلة هنا، يضربون ويغتصبون ويروّعون من دون أي منهج، من دون هدف، بُلهاء بالفطرة يلاعبون قططاً صغيرة، وكاد أمرهم ينكشف، قال كاساريس، فقد تناهت صرخاتٌ إلى مسمع زوجته فخرجتْ إلى الحديقة، "المسكينة الحمقاء"، قال، "بثوب نومها، حافية"، وأرجعها على أعقابها ولم يحاول إخبارها أبداً، ولم يوضّح لها شيئاً، لأنه لم يكن يعي ما يفعله أبداً، واستنتجتُ أن اتهام كاساريس سيجرُّ علينا الفشل، وسيحطّم النظامَ الآتي، إن كان هناك من نظام سيأتي يوماً، فيشرد عن طهو لحومه، ويسهو عن المراقبة، آمراً بسوقٍ الأجساد في شاحنة ليلاً، طاردتْها كلابُ الجيران، وشهد مجنّدون مذعورون كيف تُرمى الجثامين في مكبّات القمامة لتنبشها النوارس، إذ لم يكن هناك أي

[1] مصطلح طبي يدل على تضخم الغدة الدرقية.

منهج، ولا إحساس بالمسؤولية، ولا مطامح، ولا تفكير، لكننا كنا نعرف أن المواظبة فرضٌ علينا، كان علينا أن نحاول، لنعلّم أمثال كاساريس كيف يفكرون، كيف يتصرّفون وفقاً لمنهجية، ومع ذلك كنا نعرف منذ البداية أن الأملَ كان ضئيلاً، كنا نعمل يداً بيد مع أحطِّ بني البشر، مثل كريستوفر كولومبوس الذي أعطوه أسوأ المجرمين ليبحروا معه إلى العالم الجديد، وبدورهم أبادوا العالمَ الجديد وسوّوه بالأرض، مُطْعِمين الكلابَ جثثَ الأطفال، مقطِّعين الأوصالَ الأربعة لملك الإنكا، مغتصبين النساءَ، سالخين الماضي، فالقين الرؤوسَ المريضة لأولئك الذين ينشدون الخلاص خارج النظام، وتشوّه جميعهم في نهاية الأمر، وتعيّن عليهم الفرار كالمنبوذين إلى بلدان أجنبية، ليستقرّوا في هذا المطهر، حديقة المتقاعدين هذه شمال الأرض، ليقرؤوا ويسمعوا الموسيقا، ويحضروا المناسبات الاجتماعية، ويتفرّجوا على البحر، ثم تعيّن عليهم الآن، من جديد، بعدما انكشف أمرهم كإمبراطور متخفٍّ، السعي إلى ملاذ جديد، آركاديا[1] أخرى، لا أعرف أين تقع، وحاولتُ، وحاولتُ، لكنني لم أفلحْ قطّ في شرح كلِّ ذلك لأمّك، ما شعرتُ به، غثياني، اعتراضاتي، وجميعها خالية من أي معنى على الخريطة الكبرى للكون، الزاخرة

١ نسبة إلى إقليم آركاديا في اليونان القديمة، وقد أمسى بمنزلة يوتوبيا ريفية-رعوية، وكناية شعرية عن الطبيعة العذراء عصية المنال والحديقة الفردوسية المفقودة في أساطير القرون الوسطى. رسم بوسّان رعاة يقرؤون بيتاً شعرياً لفرجيل [فرجيليوس] مأخوذ من عمله **الرعويات**: "أنا [الموت] موجودٌ حتى في آركاديا".

بالنجوم، ضعفي، كملاريا ليفينغستن أو الغانغرين لدى سكوت[1]، أجزاء من نفسي أطعمت للكلب ذي الرؤوس الثلاثة[2] حارسِ مدخل العالم الذي أحنُّ إليه بهدوء، عالم معتم وصامت مثل غرفة الطعام الفارغة لدى بروست في صباح صيفيّ حارّ، حميم ويحتوي كلَّ شيء، يعشّش في يد الله، حيث تُفَسَّر المواجع ولا يُكتَرث بالخسران ولا سلطانَ للزمن، ويغدو النوم ممكناً، وفي النتيجة، سؤالي لكِ، يا آناي، وأنتِ الآن بهذا العُمر، وقد عرفتِ كلَّ هذا، وتفهمين مَن أنا وماذا أريد، سؤالي هو: هل ستأتين معي، يا ابنتي؟

حين سكت الصوت، كان الظلامُ والصمت يتفجّران بقوّة ارتعدت لها فرائصُ آنا. هذا هو قاعُ البحر. كانت بين الغرقى. كانت وجوهٌ فوسفورية تراقبها من لوحة عدّادات السيارة.

"أجيبيني"، قال الصوت.

وآنا، المربوطة بحزام الأمان، قالت:

"لا".

---

١ روبرت فالكن سكوت (١٨٦٨–١٩١٢): ضابط بحري ومستكشف بريطاني، مات أثناء محاولة الوصول إلى القطب الجنوبي. حين وصل إلى القطب، مع مَن تبقّى من حملته سنة ١٩١٢، اكتشفوا أن فريقاً نرويجياً قد سبقهم إلى هناك. الخمسة المتبقّون، وهو أحدُهم، قضوا جوعاً على طريق الرجوع، وكانت أوصالهم قد تموَّتت وقضمها البرد.

٢ سربيروس، الكلب حارس الجحيم ذو الرؤوس الثلاثة التي ترمز إلى الماضي والحاضر والمستقبل، وهو يحيّي بذنبه (الذي هو ثعبان) كلَّ الداخلين إلى الجحيم، ويفترس كلَّ من يسعى إلى الخروج منها. استرضاء له كان قدماء الرومان يضعون داخل توابيت موتاهم كعكاً محلّى بالعسل.

أوقف أنطوان بيرِنس السيارة بجانب الطريق. مدَّ ذراعه فوق آنا وفتحَ الباب. فكَّ حزام أمانها بعناية، تاركاً إياه يعود بانسياب إلى سقّاطته. انحنى ليقبّلها. راقبها تلفُّ حول نفسها سترتها الواقية من المطر والريح، وتترجّل تحت جُنح الليل. مال بجسده مرة أخرى ليغلق الباب. حينئذ، مع الصوت الناعم لاحتكاك العجلات بالوحل عند دورانها فيه، انطلقت السيارة صوب الغرب في الظلام.

لم يكن لدى آنا أي فكَرة عن مكان وجودها. كانت تشعر بالبرد والبلَل. نظرت إلى الأمام، باتجاه تلاشي الأضواء الخلفية للسيارة، وبدأتِ المشي تحت المطر الذي لا يُرى.

رحلة في الظلمات، ولكنها قصة حب أيضاً، برهافةٍ تتحرّى المعلومَ والمجهول وما لا سبيل إلى معرفته بين الرجل والمرأة، بين الأب والابنة.

تحكي الرواية قصة أنطوان بيرنس، ضابط متقاعد حسن السمعة في الجيش الفرنسي يعيش في كيبيك مع زوجته وابنته اليافعة. تأخذنا في رحلة عبر أربعة عقود من الزمان وقاراتٍ أربع، من الجزائر المستعمَرة أثناء كفاحها المستميت لنيل الاستقلال، إلى باريس في عقد الستينيات، ثم إلى الأرجنتين في فترة الاختفاءات القسرية، وإلى كندا في ختام المطاف، وصولاً إلى الحقيقة الصاعقة والمدمّرة التي ستشتّت إلى الأبد شملَ هذه العائلة 'العادية'.

ألبرتو مانغويل مؤلّف موسوعيّ مشهود له عالمياً ومترجم وكاتب مقالات وروائي. حازت كتبه جوائز عدة وكانت الأكثر مبيعاً. من إصداراته عن دار الساقي: 'تاريخ القراءة'، 'مع بورخيس'، 'المكتبة في الليل'، 'يوميات القراءة'، 'الفضول'، 'ذاكرة القراءة'، وفي الرواية: 'عودة' و'كل الناس كاذبون'.

ISBN 978-614-425-854-5

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com

9 786144 258545 >